اقرأ

د. لويس عوض

رحلة الشرق والغرب







تصدر فى أول كل شهر

رئيس التحرير : السيد أبو النجا







د. لويس عوض

رحلة الشرق والغرب

اقرأ ٣٥٤

دار المعارف بمصر

اقرأ ٣٥٤ – يونيو سنة ١٩٧٢

الناشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج. م. ع.

الباب الأول

رحلتي الروسية



الفصل الأول

١٠ أيام في يوجوسلافيا

عتبة أوربا الاشتراكية

كان قدراً أن أكون آخر من زار روسيا من الأدباء المصريين المعروفين . وقد بدأ الروس يستقبلون في بلادهم أدباء مصر منذ سنة ١٩٥٥ ، وكان المرحوم الدكتور محمد مندور رئيس أول وفد من الأدباء المصريين يزور الاتحاد السوفييتي . منذ ذلك التاريخ سافرت وفود ووفود بدعوة من اتحاد الكتاب في روسيا ، وعقدت مؤتمرات ومؤتمرات في الاتحاد السوفييتي ، وكانت تأتي الأنباء بين الحين والحين أن اتحاد الكتاب قد وجه إلى دعوة بالاسم ، ثم يثبت أن هذا غير صحيح ، أو أن الدعوة لم تصلني ، وكنت أحس إحساساً واضحاً بأن في ثقافتي فجوة عميقة . كنت كالكثيرين أعرف الكثير عن الأدب الروسي من بوشكين إلى جوركي عبر تولستوي ودوستويفسكي وجوجول وتورجنييف وتشيخوف ، وكنت كالكثيرين أحاول أن أعرف شيئاً عن الأدب الروسي منذ الثورة البلشفية في سنة ١٩١٧ من يسنين إلى يفتوشنكو عبر ما ياكوفسكي وباسترناك وإهرينبورج . . إلخ . .

وكنت أعرف الكثير عن الفكر الماركسي والنظام الشيوعي نظريًّا

وعمليًّا ، ما لهما وما عليهما ، من قراءتى فى ماركس وإنجلز ولينين وبليخانوف وبوخارين وروزا لكسمبورج وستالين وتروتسكى وماكس إيستمان وسيدنى وبياتريس ويب وشارل بتلهايم ، ثم ما استجد من اجتهادات فى الثلاثينيات (هولدين وبرنال وهوجبن) والأربعينيات والخمسينيات والستينيات ، فقد كنت دائماً ولا أزال من هواة الفكر الاجتماعي والسياسي . وكنت أقرأ المعارضين والمنقحين والمراجعين والمنحرفين بنفس الحماس من كاوتسكى إلى جيمس بيرنهام ومن سيلونى وكيسلر إلى جورج أورويل . وما زلت أقرأ اجتهادات لوكاتش وجارودى وألتوسير بنفس الحماس . ولكن ليس من رأى كمن سمع . ولهذا كنت دائماً أحس بأن أى حكم يطلق على المجتمع الاشتراكى السوفييتى أو الفكرةالاشتراكية السوفييتية هو بغير قيمة حقيقية ما لم ير المرء كل هذه الأفكار وتطبيقها على الطبيعة .

ومنذ عام زارنى فى « الأهرام» الرفيق سوفرونوف رئيس تحرير مجلة « أوجانيوك » ودعانى لزيارة روسيا على نفقة مجلته ، فأبديت له تحفظى من قبول الضيافة وأضفت : « لكل شيء أوان ، وأنا لست متعجلا ، ولكنّ عندى يقيناً بأنى سأزور الاتحاد السوفييتى فى يوم من الأيام . . على كل حال قبل أن أموت » ، فضحك الرجل السمين لتوجسى ضحكة سمينة .

ولم أكن أعلم أن هذا اليوم قريب . وقد جاء اليوم فجأة ودون ترتيب . فقد زارنى فى مكتبى بالأهرام منذ شهرين أو ثلاثة مسيوبتكوفيتش المستشار الثقافى للسفارة اليوجوسلافية وتفضل بدعوتى لزيارة بلاده بمناسبة

٩

حاول مهرجان الفنون السنوى فى دبروفنيك خلال يوليو وأغسطس ١٩٧٠ فقبلت الدعوة شاكراً دون تردد . ثم عجبت لقبولى الفورى برغم أنى ، بمنتهى الصراحة ، لم أكن متحمساً بصفة خاصة للتجربة اليوجوسلافية فى الاشتراكية ، ولم أكن بصفة خاصة من هواة الثقافة اليوجوسلافية ، ولم يكن فى يوجوسلافيا — بلداً أو شعباً — شىء يلهب خيالى أو يسحر وجدانى حتى يلهينى عن مبدأ رفض كل ضيافة . وبعد أن استعرضت الموقف فى هدوء زال عجبى . . لقد كنت دائماً أتحاشى الأغنياء وأتوجس من الأقوياء ولا أقبل جميلا إلا ممن هم فى طبقتى . ولم يكن فى اليوجوسلاف شىء يخيفنى كمصرى ، فنحن شعبان صغيران ناميان ، وإذا كان لهم فضل الحداثة فلنا أيضاً فضل القدم . ووافقنى الأستاذ هيكل على أن تكون رحلتى اليوجوسلافية بداية مناسبة لرحلتى الروسية على نفقة الأهرام. وما دمنا مع الاشتراكيين فلننظر إلى الاشتراكية فى كل مكان ، لا أقول فلندرس وإنما أقول فلننظر فكل هذا لا يمكن أن يدرس فى شهر واحد . وقررت أن أبدأ بيوجوسلافيا ثم أدخل إلى روسيا ثم أزور بولندا ثم أعرج على ألمانيا الشرقية ومنها إلى تشيكوسلوفاكيا ثم أعود .

وفى ١٥ يوليو وجدتنى فى مطار بلجراد أنتظر من ينتظرنى . فقد كان من المقرر أن ينتظرنى فى المطار مرافق موفد من وزارة الثقافة اليوجوسلافية أو من الإدارة المنظمة لمهرجان دوبروفنيك ، ولكن أحداً لم يظهر ، قيل فيما بعد لأن شركة الطيران العربية المتحدة أجلت موعد سفر طائرتى ٢٤ ساعة . وكنت أتميز غيظاً وأضطرب قلقاً . أكلم الناس

بالانجليزية فلا يفهمون . وأجرب الفرنسية فلا يفهمون ، ووجدت نفسى فجأة فى عالم غريب لا أعرف فيه أحداً أو شيئاً أو عنواناً ، وجميع أدوات الإرسال والاستقبال بينى وبين العالم معطلة فيما خلا لغة الإشارة . وأخيراً وضعت نفسى فى تاكسى وقلت « هوتيل » ففهم السائق وحملنى إلى هوتيل سلافيا . وما إن وضعت حقائبى حتى انطلقت بتاكسى آخر إلى السفارة المصرية ببلجراد لأستعين بها على المجهول اليوجوسلافى ، أى لتصلنى السفارة بوزارة الثقافة اليوجوسلافية أو بمنظمى مهرجان دوبروفنيك فوجدت سفارتنا خاوية على عروشها تحفها السقايل والملاط وصفائح البوية من كل جهة ومن داخل الحجرات والدهاليز والقاعات ، فقد كانت بها « عمرة » شاملة ولم أجد بها إلا سكرتيرة يوجوسلافية شابة تعرف الإنجليزية ولا تريد أن تحرك ساكناً . وعرفت أن أمور السفارة تصرف مؤقتاً من بيت السفير . فعدت إلى الفندق وبحثت بين أوراقى عن خيط يصلنى بالعالم الخارجى فوجدت رقم تليفون الزميل فريد كامل مراسل أ.ش.أ. فى بلجراد .

وخف إلى فريد كامل على عجل ، وفى أقل من ساعة خرجت من هذه الورطة الغريبة . فى أقل من ساعة خف إلى المرافق المترجم المعين لمساعدتى واتفقنا على برنامج الرحلة .

وخرجت أتجول فى مدينة بلجراد فوجدتها مدينة جديدة نظيفة باهتة بلاشخصية ، بها بعض العمائر الأثرية القليلة ، ولكن طابعها العام حديث ، وأبرز ما فيها عساكر المرور الذين ينظمون المرور فى

ميادينها الفسيحة كأن كلا منهم يقود أوركسترا من السيارات ، كذلك أبرز ما فيها أن يوم العمل بها يبدأ فى الساعة السابعة صباحاً فإذا نظرت من نافذتك بالفندق فى السادسة صباحاً رأيت الشوارع مكتظة بالسيارات وبالمارة ، كل يسعى لعمله وكأنك فى الساعة التاسعة فى أحد ميادين القاهرة الكبرى . وسرعان ما أدركت برغم عوائق اللغة أنى وسط شعب معقد التكوين ، لأنه متعدد القوميات ، متعدد اللغات ، متعدد الثقافات ، متعدد الأبجديات ، متعدد الأديان ، ففى يوجوسلافيا ٢٠ مليون نسمة ينقسمون إلى ستة شعوب مختلفة يضمها إطار سياسى واحد ، وهذه الشعوب هى الصرب (نحو ٨ ملايين) والكروات (نحو ٤,٥ ملايين) وسكان سلوفينيا (نحو ١,٧ مليون) والبوسنة والهرسك (نحو ٣,٥ ملايين) ومونتنجرو أى الجبل الأسود (نحو نصف مليون) ومقدونيا (نحو ١,٥ مليون) . وهناك قومية إسلامية قوامها نحو مليون مسلم إلى جانب المسلمين المندرجين تحت القوميات الأخرى . . هذا بالإضافة إلى الأقليات القومية الأخرى التى تعيش فى يوجوسلافيا كالأتراك (نحو ربع مليون) ، والمجر (نحو نصف مليون) ، والغجر (نحو ٤٠ ألفاً) والألبان وغيرهم وهم يمثلون نحو عشر سكان البلاد ، وقد سمعت أن الغجر فى يوجوسلافيا قد رفعوا شعار : « ياغجر العالم اتحدوا » وأنهم يطالبون بوطن قومى للغجر وبجمهورية غجرية داخل الإطار السياسى اليوجوسلافى . والقوميات الرئيسية فى يوجوسلافيا تعيش فى جمهوريات شبه مستقلة داخل إطار الجمهورية اليوجوسلافية التى يرأسها الرئيس تيتو. فإذا عرفت

أن يوجوسلافيا في مجموعها لم تولد كدولة إلا عام ١٩١٨ بموجب معاهدة فرساى التى قننت تجمع كل هذه الأشتات فى دولة واحدة ، ذهلت أن تجد هذه الدولة الملفقة التى كانت مقسمة بين تركيا واليونان والنمسا والمجر تسعى نحو وجود سياسى واحد ونحو هدف قومى واحد . وفى اعتقادى أنها لم تنجح فى تحقيق هذه الوحدة السياسية إلا بفضل اعترافها بالشخصيات القومية المختلفة وبالثقافات القومية المختلفة التى يتألف منها الاتحاد . فلو أن الكروات حاولوا طمس ثقافة الصرب أو أن الصرب حاولوا طمس ثقافة المقدونيين . . إلخ . لتمزقت يوجوسلافيا وتفسخت قبلما تقوم لها قائمة .

ولأن يوجوسلافيا دولة جديدة فعاصمتها بلجراد عاصمة جديدة أيضاً . . واسم يوجوسلافيا اسم حديث لا معنى له إلا « بلاد السلاف الجنوبيين » تمييزاً لهم من سلاف الشمال ممن تجدهم فى روسيا وغيرها ، فالعنصر الغالب فى يوجوسلافيا إذن هو الجنس السلافى ، ومن هنا كان اليوجوسلاف بوجه عام ثقال العظام كالروس ولكن بيئتهم الجبلية جعلتهم أكثر خشونة وغلظة وأقل وسامة وأطول ألواحاً من الروس ومن كافة السلافيين فى تشيكوسلوفاكيا وغيرها . وقلما تجد بينهم رجلا أو امرأة يتميز بالدقة أو الرشاقة فى التكوين الجسمانى ، ولكن الجميلات من نسائهم جمعن بين الجمال والجسم الرياضى الذى لم تتلفه المدنية بعد . وإحساسى أن تكوينهم الجسمانى الجبلى ينعكس أيضاً فى سلوكهم وسيرهم وحركتهم بوجه عام .

أما بلجراد نفسها ، فرغم أنها عاصمة جديدة ، صغيرة التعداد نسبيا (نحو مليون نسمة) ، فيقال لك إنها مدينة عمرها ألفا عام أو يزيد ، ومعناها «المدينة» [جراد] البيضاء [بيو] أو إن شئت أن تقربها للعربية فهي « المدينة البلقاء » والأبيض والأبلق شيء واحد . وعرفت من آثار بلجراد أن أساس هذه المدينة وضع في القرن الرابع ق.م. أيام فتح قبائل الكلت لهذه المنطقة من البلقان وكان اسمها يومئذ سنجدن ، أي قلعة السنج ، كما أن لندن معناها قلعة اللون ، فكلمة « دون » تعني قلعة أو حصناً في لغة قبائل الكلت ، فهي إذن بدأت كتحصينات حربية ، وقد أدرك الترك قيمتها العسكرية فيما بعد وأنشأوا فيها تحصينات تعرف حتى الآن باسم كلاميجدان ، وهي كلمة تركية يقول من رأيتهم من المصريين أنها تحريف لعبارة « قلعة الميدان » العربية أما مرافقي اليوجوسلافي فيصر على أن الكلمة تركية صميمة معناها الحرفي « معسكر القتال » أو كما نقول نحن « ميدان القتال » ، والله أعلم . وعلى كل فإخواننا المصريون قد تعودوا منذ سنوات قريبة أن يروا العرب ولغتهم وراء كل أكمة وخلف كل شجرة من بلاد الصنوبر إلى بلاد البنجوين . وقد حدثتني السيدة المشرفة على مهرجان دوبروفنيك ، قالت إن شاباً مصرياً فسر لها أصل اسم دوبروفنيك بأنه مادامت « دوبرو » في اللغة اليوجوسلافية معناها « الغابات » وما دام العرب قد عرفوا « البندقية » فاسم دوبروفنيك إذن مأخوذ من العربية ، ومعناها إذن « بندقية الغابات » [بدلا من مدينة البندقية البحرية] ، فضحكت وقلت لها : ربما ،

ولكن إذا كان هذا اشتقاق اسم بلدتك ، فالرومان المتأخرون أو الايطاليون الأوائل لم يكونوا بحاجة إلى العرب ليعلموهم أن بلدتهم فينيسيا كان اسمها فنديكيا ، فقدكان هذا اسمها اللاتينى قبل أن يخرج العرب إلى الأمصار برًّا وبحراً . وعلى كل فلا داعى للخجل ، فهذه الفهلوة المصرية قد لمست نظيراً لها فى الفهلوة اليوجوسلافية .

كنت قد طلبت لقاء أديبهم الكبير ايفو اندريتش وسواه من الأدباء المعروفين ، فوجدته فى مصحة ووجدت أكثرهم فى الأرياف وعلى الشواطئ وفى خارج البلاد . قال محدثى — وهو المقابل اليوجوسلافى للدكتور مجدى وهبة فى إدارة العلاقات الثقافية الخارجية — إن إيفو اندريتش يسبب لنا حرجاً شديداً . فمنذ أن ماتت زوجته منذ سنوات وهو فى حالة كآبة مستمرة ، وقد زهد فى الكتابة والحياة ، يدخل المصحات بمعدل مرتين سنويًّا وتأتينا الدعوات له من اليابان أو السويد أو غيرهما ، فيجيب بأنه قبلها ، وحين يحين موعد رحلته نبحث عنه فى كل مكان فنجده معتكفا فى مصحة عازفاً عن لقاء الناس . لقد قال لى مرة إنه منذ وفاة زوجته لا يعرف لماذا يعيش . لقد كف عن الكتابة تماماً . أجبت : لقد لاحظت عليه شيئاً من ذلك . فقد عرفته فى القاهرة أيام أن استقبله الدكتور ثروت عكاشة ، ثم تركنا فجأة وطار إلى يوجوسلافيا . قال إنه مريض ، ولكن يبدو أن نوبة الكآبة أدركته .

وركزت على دراسة حالة المسرح فى يوجوسلافيا لعلى أجد فى تجربتهم المسرحية شيئاً يمكن أن ننتفع منه فى مصر ، فتعرفت على المخرج

الناقد الموهوب تشيريلوف وفى أكثر من لقاء حصلت منه على صورة دقيقة للحياة الفنية فى يوجوسلافيا .

عرفت منه أن فى يوجوسلافيا نحو خمسين مسرحاً محترفاً ، كلها تابعة للدولة ، وليس لديهم مسرح خاص واحد ، وكل هذه المسارح معانة من الدولة ولكن المهيمن على المسارح فى يوجوسلافيا ليس وزارة الثقافة وإنما المجالس البلدية فى كل جمهورية من جمهوريات يوجوسلافيا الفيدرالية الشعبية . أما فى بلجراد نفسها ففيها سبعة مسارح هى :

١ ـ المسرح القومى وعمره ١٠٠ عام ، وهو ليس مختصاً بالدراما وحدها وإنما يضم فرقة للتمثيل المسرحى وفرقة للأوبرا وفرقة للباليه ، وله حالياً مرسحان ، أو خشبتان ، ويبنى له الآن مرسح ثالث ، وهو يقدم سنويا نحو سبع مسرحيات جديدة وثلاث أوبرات جديدة بالإضافة إلى الإعادات [الريبراتور] ، أما فرقته المسرحية فأعضاؤها نحو خمسين ممثلا وممثلة .

٢ ـ مسرح الدراما اليوجوسلافية ، وقد تأسس فى ١٩٤٨ وله خشبتان فى بلجراد ، مرسح يتسع لسبعمائة متفرج ومرسح يتسع لأربعمائة ، وفرقته المسرحية تضم ٧٢ ممثلا وممثلة يقدمون على الخشبتين بين ١٠ مسرحيات و ١٢ مسرحية جديدة سنوياً .

٣ ـ المسرح الحديث أو المعاصر وله خشبتان ، وهو يقدم الأوبريتات والكوميديا الموسيقية كما يقدم العروض الدرامية ، وحصيلته السنوية من ١٠ إلى ١٢ عرضاً جديداً على الخشبتين وبه نحو ١٠٠ فنان وفنانة منهم ٧٠ للتمثيل المسرحى و ٣٠ للغناء .

٤ ـ مسرح الأتلييه ٢١٢ وقد أنشىء عام ١٩٥٦ ويضم ٢٢ ممثلا وممثلة وله خشبتان الكبرى سعتها ٤٠٠ متفرج والأخرى صغيرة كمسرح الجيب .

٥ ـ مسرح الأطفال [إتليية بوشكوبوسا] .

٦ ـ المسرح الشعرى وهو مخصص للدراما الشعرية والقراءات .

٧ ـ مسرح الدراما القومية وهو مخصص لعرض إنتاج الأدباء اليوجوسلافيين وتنمية المواهب الجديدة .

أما بالنسبة لتكاليف إنتاج المسرحيات فقد عرفت من المخرج الناقد الشاعر تشيرياوف [وهو أيضاً مدير مسرح اتلييه ٢١٢] ان متوسط الحد الأقصى وتكاليف أكبر عرض عرفه المسرح اليوجوسلافى هى ٣٠٠ ألف دينار يوجوسلافى أى ما يساوى نحو عشرة آلاف جنيه مصرى خلاف مرتبات الممثلين والإدارة ، وإن إنتاج مسرحية من مسرحيات شكسبير يكلف ما بين ٧٠٠٠ و ١٠,٠٠٠ جنيه خارج مرتبات الممثلين والإدارة (أى بين ٢٠٠ و ٣٠٠ ألف دينار) ، وأن متوسط الحد الأدنى لتكاليف المسرحيات البسيطة هو ٥٠ ألف دينار أى نحو ١٧٠٠ جنيه . أما المسرحيات العادية فينفق عليها نحو ٥٠٠٠ جنيه (١٥٠ ألف دينار) خلاف مرتبات الممثلين والإدارة . وقدذكر لى تشيرياوف أن « فى انتظار جودو» وما هو فى حكمها قد كلفتهم ١٠٠ ألف دينار (أى نحو ٣٣٠٠ جنيه) .

كل هذا النشاط المسرحى يشرف عليه فى بلجراد هيئة تسمى « مجلس

الشئون الثقافية » . وكل المسارح يعينها المجلس البلدى باستثناء المسرح القومى الذى يعينه مجلس بلدية بلجراد كما تعينه جمهورية الصرب .

أما الاعانة التى تتلقاها المسارح فى يوجوسلافيا فليست رقماً أصم كل سنة كميزانية الإنتاج والخدمات المسرحية فى هيئة المسرح عندنا ولكنها مرتبطة بحجم جمهور المسرح الذى يدخل طرفاً فى تحديد الإعانة. فالمجلس البلدى يدفع لكل مسرح إعانة مساوية لدخله من شباك التذاكر طوال العام ، فإذا كان متوسط ثمن التذكرة المباعة فعلا ١٠ دنانير وعدد رواد المسرح ١٠٠ ألف شخص دفعت البلدية إعانة قدرها مليون دينار وتشجيعاً للتأليف المسرحى القومى ترفع الإعانة بنسبة ٥٠ ٪ بالنسبة لعرض أعمال المؤلفين اليوجوسلافيين ، كما تدفع البلدية إعانة ابتدائية إضافية قدرها ٥٠٠٠ دينار (نحو ١٧٠ جنيها) عن كل مسرحية جديدة تخرج لمؤلف يوجوسلافى بشرط أن يستمر عرضها عشر حفلات ، وهو مبلغ رمزى ، ولكنهم يعتبرونه حافزاً لإنتاج المؤلفات المسرحية القومية إلى جانب الخمسين فى المائة الإضافية التى تدفع فوق الإعانة المساوية لحصيلة شباك التذاكر . ولكن لكى لا تتسابق الفرق فى بلجراد على استرضاء الجمهور بعرض المسرحيات الرخيصة طمعاً فى شباك تذاكر ضخم وإعانة حكومية ضخمة ، يخصص المجلس البلدى سنويا إعانة قدرها مليون دينار (نحو ٣٣ ألف جنيه) بصفة جوائز لأحسن أعمال مسرحية تعرض من حيث القيمة الفنية خلال العام بناء على قرار هيئة تحكيم بصرف النظر عن عدد الرواد لكل مسرحية ، وهذا المبلغ قد يعطى

كجائزة واحدة أو جائزتين أو ثلاث جوائز وقد يصل العدد إلى عشر جوائز .

أما حق المؤلف المسرحى فمحدد على الوجه التالى : ١٠ آلاف دينار (نحو ٣٣٠ جنيها) مكافأة يضاف إليها ١٢٪ من حصيلة شباك التذاكر عن كل حفلة يعرض فيها أعماله سواء فى موسمه الأول أو فى الإعادات .

والدولة تنتظر مقابل هذه الإعانات من كل مسرح انتاجاً كمياً متوسطه خمس إلى ست مسرحيات جديدة كل عام بالاضافة إلى ما بين ١٥ إلى ٢٠ إعادة من مسرحيات الريبوتوار . والمقصود بالمسرحيات الجديدة لا المسرحيات الحديثة التأليف ولكن المسرحيات التى لم يسبق تقديمها على هذا المسرح بالذات ولو كانت من اليونان أو من شكسبير أو راسين أو من المحدثين .

والممثلون يتقاضون فى يوجوسلافيا بوجه عام نفس المرتبات التى يتقاضاها المخرجون ويعاملون نفس المعاملة المالية من جميع الوجوه ، إلا فى جمهورية سلوفينيا ، وهى أرقى جمهوريات يوجوسلافيا من الناحية الفنية والحضارية ، فإن مرتبات الممثلين فيها تقل عن مرتبات المخرجين بنسبة ٢٠ ٪ ، والمخرج الضيف يتقاضى فى يوجوسلافيا ما بين ٥٠٠٠,٠٠٠,١٠ دينار على كل مسرحية يخرجها بحسب مكانته أى ما بين نحو ١٧٠ جنيها و ٣٣٠ جنيها ، وجدول المرتبات محدد كالآتى : ١٠٠٠ دينار شهرياً للفنان المبتدئ (ممثلا كان أو مخرجاً) أى نحو ٣٣ جنيها و ٢٠٠٠ دينار (٦٦ جنيها) للفنان المتوسط و ٣٠٠٠ دينار (١٠٠ جنيه) للفنان الكبير وهذه المرتبات تعادل على وجه التقريب ما يتقاضاه أساتذة الجامعات

فى يوجوسلافيا ، ولكن للفنانين عادة دخل إضافى من التليفزيون يعادل ضعف دخلهم من عملهم الأصلى ، وقد يصل إلى ثلاثة أمثاله . وجدول مرتبات فنانى التليفزيون مطابق لجدول مرتبات فنانى المسرح . أما المخرج السينمائى فيتقاضى ١٠٠ ألف دينار عن كل فيلم يخرجه (نحو ٣٣٠٠ جنيه) تدخل فيها مكافأة الحوار .

ومقابل المرتب الذى يتقاضاه يشترط على المخرج أن يخرج مسرحيتين سنويًّا فى مسرحه على وجه الإلزام ويجوز له أن يتجاوز هذا النصاب بالإخراج للمسارح الأخرى أو فى مسرحه بمكافأة مستقلة .

وميزانية المسرح القومى ٤ ملايين دينار سنويًّا أى نحو ١٣٣ ألف جنيه تمثل إيرادات الشباك منها ٢٠ ٪ وتمثل إعانة البلدية منها ٨٠ ٪ أما مسرح الاتلييه ٢١٢ فميزانيته السنوية مليون دينار فقط (نحو ٣٣ ألف جنيه) ٣٠ ٪ منها من إيراد الشباك و ٧٠ ٪ من إعانة المجلس البلدى ، هذا بالرغم من أن المسرح القومى به ١١٠٠ كرسى بينما مسرح الاتلييه به ٤٠٠ كرسى (متوسط المسارح الأخرى نحو ٥٠٠ كرسى) . .

وهذه الإعانة التى تصل إلى ٨٠ ٪ من ميزانية بعض المسارح ناتجة من أن مرتبات الفنانين والاداريين والفنيين والإضاءة والصيانة إلخ مع نفقات الإنتاج المسرحى تساوى أربعة أمثال دخل الشباك . ولكن تشير ياوف أوضح لى أنه بوجه عام تغطى الإعانة المرتبات ويغطى إيراد الشباك نفقات الإنتاج . وميزانية كل مسرح تنفق بنسبة ١ للفنانين : ٢ لغير الفنانين (الاداريين والفنيين الخ . .) وهذا فى رأيه هو العرف

المستقر فى أوربا كلها منذ مائة عام فى مسارح الريبرتوار ، أما فى مسارح البولفار (التجارية) فالفنانون ليسوا موظفين ولكن يعملون بالقطعة . .
وكل زيادة فى حصيلة الشباك فى المسارح اليوجوسلافية تئول للمسرح ويمكن إنفاقها فى نهاية كل عام ، إما على الفنانين كحوافز و إما على مزيد من الإنتاج المسرحى بحسب ما يقرره مجلس إدارة المسرح . أما متوسط ثمن التذكرة فهو ١٠ دنانير (نحو ٣٣ قرشا) . وأرخص تذكرة ثمنها ديناران (سبعة قروش) وأغلى تذكرة ثمنها ٢٥ ديناراً (٨٥ قرشاً) بلا ضريبة ملاه .

ولكل مسرح فى بلجراد مجموعة من المخرجين مرتبطين به يتراوح عددها بين ٢ و ٤ مخرجين ، وكل مسرح له استقلاله الذاتى ويديره مجلس إدارة وعلى رأسه مدير المسرح ، وهذا المدير قد يكون فناناً أو إدارياً أوسياسيًّا ، بحسب ما يقرره مجلس التعيينات ، والأغلب فى يوجوسلافيا أن مديرى المسارح من الأدباء ، ولا سيما فى المسرح القومى الذى بلغت نسبة مديريه من كتاب المسرح أو النقاد خلال مائة عام ٩٠ ٪ ؛ أما مجلس إدارة المسرح فيتكون ثلثاه من رجال الفن والإدارة التابعين للمسرح وثلثه من ممثلى البلدية دافعة الإعانة ، ولكل مسرح مستشار أدبى ، أما وظيفة المدير فهى بالاعلان ، وهى لمدة ثلاث سنوات .

ونسبة المترجمات إلى المؤلفات فى مسارح بلجراد هى ٥٠ ٪ للمترجمات و ٥٠ ٪ للمؤلفات ، وهو عرف مستقر دون أن يكون عليه نص . أما المؤلفات فتحصل المسارح عليها إما بالتكليف المباشر وإما بفحص المؤلفات المعروضة عليها ، وهى عادة تعرض عند اختيارها على الخشبة

التجريبية الصغيرة قبل أن تعرض على المسرح الكبير . والمسرح القومى يتبع نفس المنهج . ولكن تشيرياوف لم يخف عنى امتعاضه من مستوى التأليف المسرحى القومى فى بلاده .

أما الجهة المنوطة . راقبة المسارح المعانة من حيث سلامة الإنفاق فهى البلدية . ويمكن للبلدية أن تتدخل لإيقاف عرض مسرحية إذا ألبت المسرحية إحدى قوميات يوجوسلافيا على قومياتها الأخرى أو إذا هاجمت دولة صديقة . وفيما عدا هذا فليس هناك رقابة على المسرح وإيقاف المسرحيات لا يكون إلا بحكم محكمة ، ولم يحدث أبداً أن صادرت المحاكم مسرحية ما ، ولكن حدث منذ ١٨ سنة أن أوقفت مسرحية «مرقص اللصوص » لجان أنوى بقرار وزارى بحجة الانحلال أيام الاستالينية ثم لم تتكرر هذه السابقة . ومع ذلك فقد أوقفت مسرحية واحدة أيام استحكام الخلاف بين تيتو وستالين فى ١٩٤٨ وهى مسرحية « عندما يزهر القرع » لأنها عرضت بالبوليس اليوجوسلافى واتهمته بالنازية لاعتقاله عدداً من الشيوعيين الستالينيين فى يوجوسلافيا . . والذى أوقف المسرحية هو إدارة المسرح الذى كان يعرضها ، أوقفتها بسبب الحملة التى شنتها الصحافة عليها ، أما الحكومة فلم تتدخل .

هذه صورة المسرح اليوجوسلافى كما استخلصتها من حديث الناقد المخرج تشيرياوف ، وقد أوردتها بتفاصيلها عسى أن ينتفع بها المسئولون ورجال المسرح عندنا . وأهم الحقائق فى هذه الصورة بالنسبة لوزارة الثقافة ووزارة الخزانة معاً هى أن الدولة فى يوجوسلافيا تعين المسارح

بنسبة ٨٠ ٪ من ميزانيتها ، وأن مرتبات الفنانين تمثل ٥٠ ٪ من مرتبات الإداريين والفنيين وعمال المسرح ، وأن إعانة الدولة للمسارح مربوطة بعدد روادها . وقد توخيت أثناء إقامتى فى روسيا وفى ألمانيا الشرقية أن أجرى دراسة مشابهة لحالة المسرح من الناحية التنظيمية هنا وهنالك، فربما ساعدتنا هذه الدراسة المقارنة على إعادة تنظيم حياتنا المسرحية داخل البناء الاشتراكى .



الفصل الثانى

التجربة اليوجوسلافية

سلبيات وإيجابيات

دخلت يوجوسلافيا وخرجت منها دون أن أحس أنى فى بلد اشتراكى ، فالاشتراكية تقترن عادة فى أذهان الناس بالبيروقراطية والإحساس بالحكومة (التى يسمونها خطأ بالدولة) فى كل خطوة يخطوها الإنسان ، وبكثرة القيود والممنوعات واللوائح والقوانين ، وبالعين المراقبة التى تتجول فى محفظتك لتعرف كم دولاراً تحمل وفى عقلك لتعرف فيم تفكر وكيف تحس ، وبكثرة الشعارات والكليشيهات فى الكلام وفى وحدة الملصقات من صور الزعماء والتوجيهات العامة . فلما نزلت يوجوسلافيا لم أحس بشىء من هذا بل أحسست على نقيض ذلك بأنى فى مجتمع مفتوح لا يكاد يختلف كثيراً عما ألفته فى بعض بلاد الغرب التى زرتها . ومع ذلك فيوجوسلافيا بلد اشتراكى أو شبه اشتراكى ، فيه كل المصانع والمتاجر والفنادق والعمائر والشركات وكافة وسائل الإنتاج والخدمات الكبيرة مؤممة ، والملكية الزراعية فيه محددة بحدود ومقيدة بقيود (بحد أقصى نحو ٢٠ فدانا للفرد الواحد) . وانتهيت إلى أن يوجوسلافيا بلد شبه اشتراكى بعد أن عرفت أن اقتصادها

اقتصاد مختلط فيه مكان للقطاع الخاص والنشاط الفردى ، فنى استطاعتك أن تملك مصنعاً أو متجراً أو عمارة أو فندقاً أو مشروعاً مادمت تديره بنفسك ولا تستخدم فيه أكثر من كذا عامل وتنفذ أحكام القانون والضمان الاجتماعى بشأنهم .

والزائر لا يجد من يتفحصه من رأسه إلى أخمص قدميه و يتمعن فى أوراقه أكثر من اللازم أو يسأله لماذا جئت وأين تقيم ومتى تمضى . وربما لم يجد الزائر كثيراً من أصول الاتيكيت وآداب السلوك التى تثقف بها الناس فى حضارة الغرب عبر مئات من السنين ، ولكنه يجد ما يطلبه أو يحتاج إليه منفذاً بلا تراخ ، فى بداوة ولكن بلا تراخ ، فى بساطة وبلا احتفال ولكن بلا تراخ ، فكل الناس تعمل بجد من السابعة صباحاً إلى الثالثة بعد الظهر (منها ساعة للغداء) رغم أنهم جميعاً موظفون فى القطاع العام . وحين يصبح الجرسون أو عامل المصعد أو موظف الشركة ق.ع . يجب أن تتوجس خوفاً من آثار الاشتراكية . ولكن لا . فى يوجوسلافيا كل مافى الدولاب يتحرك بلا تراخ . التليفونات تعمل بدقة . التلغرافات ، المواصلات ، الطائرات ، البنوك ، الحنفيات ، الكهرباء ، المطاعم ، المتاجر ، الشوارع ، تعمل بدقة رغم أنها ق.ع . وبكرامة أيضاً . لا أحد ينتظر البقشيش . إن جدت به فكلمة شكر وإن لم تجد فلا أحد ينتظر منك شيئاً . وأهم من هذا وذاك فأنت لا تحس بوجود « الحكومة » فى أية خطوة تخطوها . عشرة أيام لم أسمع فيها كلمة « بعدين » أو « غدا » أو « عند الأفندى الثانى » أو « المختص غير موجود »

رغم أنها كانت من أيام يوليوفى قيظ دونه قيظ القاهرة ، كل يؤدى عمله وكأنه رئيس نفسه . لا أحد يعطل عملا بحجة الرجوع إلى الرؤساء ، رغم أنهم لا شك يرجعون ، ولكن مكالمة تليفونية تكفى لحل الإشكال فى دقيقة . لقد نجحت الاشتراكية فى يوجوسلافيا لأنك لا تحس بوجودها وهذا ما يسمونه التسيير الذاتى .

ومع ذلك فربما كانت هذه نظرة من الخارج ، فإذا اقتربت من الصورة قليلا بدأت تتكشف لك عورات كتلك التى تركتها فى مصر . ذهبت لأشترى بعض قطع غيار سيارة فباع لى المحل جزءاً منها بعد حديث طويل متقطع بينه وبين مترجمى لم أفهم منه حرفاً ، ولكنى أحسست من لغة النظرات ومن تغيير درجات الصوت وكأنى أشترى ممنوعات أو مهربات . ثم أحالنا الرجل إلى الأجانس الرئيسى الذى يستورد قطع غيار أوبل لحساب الدولة فوجدت الطوابير التى تركتها فى مصر والباعة ، يقولون للزبائن « مافيش » « مش موجود » « بعد شهرين » . وقالت نظرات البائع لنا « مش موجود » قبل أن يفتح أحد فمه ، فلما فتح صاحبى فمه جاءه الجواب « مش موجود » . وأحسست أنى فى مصر . فحيث يتجاور القطاع الخاص مع القطاع العام تتسرب السلع من العام إلى الخاص وتباع بسعر السوق السوداء ، وتتكون بصورة آلية عصابات من الموظفين العموميين ، إداريين وفنيين ، للاتجار فى سلع القطاع العام أو الارتشاء فيها والسمسرة عليها مع التجار . وتصورت هذا المرض ضاربًا فى كل السلع الاستهلاكية المستوردة وفى كل السلع ذات الندرة ،

ربما كان هذا ثمن « تبسيط » الاشتراكية ، ثمن إلغاء البيروقراطية وحضور الدولة المستمر : نهب القطاع الخاص للقطاع العام وخلق طبقة من السماسرة بدرجة مدير عام ، وبدخل صاحب كازينو فى شارع الهرم . شيئان أحلاهما مر . فما العمل ؟ يبدو أن طريق الاشتراكية طويل كطريق الديمقراطية . وكما انتظرت إنجلترا أو فرنسا مئات السنين قبل أن تتبلور فيهما الأخلاق الديمقراطية وبعض المبادئ العامة التى ذهبت مذهب المقدسات ، يجب أن تنتظر بعض البلاد قرناً كاملا قبل أن يتبلور فيها الإنسان الاشتراكى .

وفى يوجوسلافيا حركة قومية لجمع الدولار والعملات الصعبة بوجه عام ، تتجلى فى انفتاح البلاد للسياح والخدمات السياحية التى بلغ حجم إيراداتها فى العام الماضى (١٩٦٩) ٣٢٠ مليون دولار وارتفاع حجم الصادرات إلى نحو ٥ر١ بليون (ألف مليون) دولار (أى ثلاثة أمثال قيمة صادرات مصر) ، منها ٨٢٪ من المنتجات الصناعية و ١٨٪ من المنتجات الزراعية . ومع ذلك فهذه الأرقام ليست شيئاً مذكوراً فى التجارة العالمية لأن صادرات يوجوسلافيا لا تمثل أكثر من ١٪ من التجارة العالمية . وقد كانت تجارة يوجوسلافيا الخارجية بعد الحرب مباشرة تقوم أساساً (بنسبة ٨٠٪) على اتفاقيات الدفع بالمقايضة مع دول الكتلة الشرقية ولكنها منذ ١٩٤٨ أى منذ اختلفت مع الاتحاد السوفييتى أخذت نحو التصدير بالعملات الحرة حتى استردت استقلالها الاقتصادى عن الكتلة الشرقية ، وقد سمعت أنها عدلت منذ يوليو الماضى عن التعامل — على الأقل فى بعض

القطاعات — بالجنيه الحسابي وهو التعبير المصرفي لنظام المقايضة وقررت ألا تتعامل إلا بالعملات الحرة . وما تعجز يوجوسلافيا عن تحصيله من الدولارات عن طريق التصدير تحاول أن تستكمله عن طريق الخدمات السياحية . فحامل الدولار هناك ملك .

ويكفى أن تذكر أن إيرادات السياحة من العملة الأجنبية تعادل نحو ربع أو خمس إيرادات يوجوسلافيا من صادراتها لتعرف مكانة السياحة فى تلك البلاد . وفى يوجوسلافيا الآن نحو نصف مليون سرير لا ستقبال السياح فى الفنادق والبنسيونات والبيوت الخاصة ، وبها مطاعم يمكن أن تطعم مليونًا ونصف مليون شخص فى وقت واحد . وفى كل مكان محلات تجارية مخصصة للبيع بالعملات الحرة بأسعار مغرية لا صطياد الدولارات من السياح ، وعلى ساحل الأدرياتيك مستعمرات عراة ، قيل إنها لتنشيط السياحة ! (لا شك قد كتب عليها : ممنوع اللمس !) . وقد كان من نتائج ذلك كله أن مركز الدينار اليوجوسلافى قد قوى حتى كاد أن يصبح فى ثبات العملات الحرة .

وحين جاء وقت الرحيل إلى دوبروفنيك للاشتراك فى مهرجانها الحادى والعشرين تصفحت الكتالوج فوجدتهم يقدمون باليوجوسلافية مسرحيات « يوليوس قيصر » لشكسبير و « أوديب ملكاً » لسوفوكليس و « طرطوف » لموليير وثلاث مسرحيات يوجوسلافية هى « العشاق » لمؤلف مجهول و « العم ماروبا » لدرجيتش و « البخيل » لدرجيتش كذلك و « ثلاثية دوبروفنيك » لفوينوفيتش ، وهى أسماء لا تعنى شيئاً للقارئ

العربي لأننا لا نعرف شيئاً عن الأدب اليوجوسلافى . أما فى باب الموسيقى والغناء والباليه فقد كان البرنامج أكثر خصوبة فقد كانوا يقدمون : « صلاة المساء للقديسة العذراء » لمونتفيردى ، وكوكتيل من سكارلاتى وبيتهوفن و بروكوفييف وليست و « جان دارك على المحرقة » لهونيجر وأوبرا « فيدليو » لبيتهوفن و « بحيرة البجع » لتشايكوفسكى و « الخليقة » لهايدن و « المسيح » لهاندل و « روميو وجولييت » لبرليوز وكوكتيلات من باخ وفيفالدى وبريتن وفورشاك وروسينى وشوبرت وشتراوس . . إلخ . الخ . ثم جملة فرق للرقص الشعبي اليوجوسلافى .

وفى مطار دوبرفنيك تكررت نفس المهزلة التى جرت فى مطار بلجراد أكد لى مرافقى فى بلجراد أنى بمجرد نزولى من الطائرة فى دوبرفنيك سأجد فيها مرافقاً آخر فى انتظارى يلازمنى خلال المهرجان . ولم أجد أحداً فى المطار .

وفكرت فى العودة من حيث جئت ولكنى ضغطت على نفسى وقررت أن أعتمد على نفسى ولو بلغة الإشارة . وبعد أن بلغت المدينة نزلت فى فندق بشارع الماريشال تيتو ثم اتجهت إلى مكتب المهرجان . قالت لى إحدى المنظمات معتذرة : « لقد انتظرتك ساعتين هذا الصباح فى المطار . يبدو أن خطأ ما حدث » . فلم أعلق . وحين خرجت مع مرافقى لأتعرف على المدينة قال المرافق معتذراً : « قيل لنا إنك ستصل بطائرة بعد الظهر ولهذا لم أنتظرك فى المطار » .

ولم أعلق ، ولكنى تحققت من أن هؤلاء القوم يحلون الأخطاء بالفهلوة

بدلا من المواجهة – شيء مألوف لنا فى مصر – وهو أمر يندر أن تجده فى إنجلترا أو فرنسا أو أمريكا، حتى بين طبقات أقل استنارة وأقل شأناً، قلت لمسئول يوجوسلافى : يبدو أنكم لستم خيراً منا فى الفوضى وقلة التنظيم . فأجاب : ربما، ولكنى أعتقد أن هذه الفوضى مقصودة ، ومقصود كل ما صادفت من متاعب وكذلك اوكاندات الدرجة الثانية التى حجزوها لك واختفاء المرافقين أكثر اليوم بحجة المشغولية . لقد كانت تعليمات إدارة المهرجان أن تستقبل كما يستقبل ايفواندريتش فى مصر . هذه الفوضى رتبها مدير يهودى يوجوسلافى فى العلاقات الثقافية اسمه اوتودينتش للإساءة بين البلدين . لقد فعل نفس الشيء مع الفنان سيف وانلى حين نزل يوجوسلافيا ، وهو يرتب كل شيء من خلال الغير فلا تستطيع أن تؤاخذه شخصيا . حتى عدم ترتيب لقاءات بينك وبين كبار الكتاب مقصود ومدروس ، فقد كان كثيرون منهم على بعد خطوتين منك فى بلجراد وفى دوبروفنياك . حتى مستوى المرافقين : كان ينبغى أن يخصصوا لصحبتك أحد الأدباء المعروفين لا مجرد موظفين .

فليكن . هذه إذن دوبروفنياك عروس الأدرياتياك الثانية بعد فينسيا ، وأجمل بلد فى يوجوسلافيا . وأخذ مرافقى الشاب يشرح لى تاريخ المدينة . قلت : أعرفه . لقد كان اسمها راجوزا أيام اليونان والرومان . قرأت عنها فى كتاب جيبون عن « تصدع الإمبراطورية الرومانية وانهيارها » فقد زارها الإمبراطور القاسى المتعالى دقلديانوس ، الذى تنازل عن عرشه فى أوج مجده ، ثم حكمتها بيزنطة ، وفى العصور الوسطى حكمتها البندقية

م المجر ،وأخيراً حكمها الباب العالى حتى ١٨٠٨ حين استولى عليها نابليون وضمها إلى الليريا ، وبعد سقوط نابليون فى ١٨١٤ آلت هذه المدينة التاريخية إلى حكم الإمبراطورية النمسوية طوال القرن التاسع عشر وبعض القرن العشرين حتى ولدت جمهورية يوجوسلافيا . وقد كانت دوبروفنيك أو راجوزا القديمة طوال العصور الوسطى « جمهورية » أو مدينة دولة على غرار المدن التجارية الشهيرة فى ذلك الزمان كالبندقية وفلورنسا وفيرارا وفيرونا ، واحتفظت بكيانها الجمهورى سواء فى عهود استقلالها أو تبعيتها . ولكن دوبروفنيك كانت أكثر من جمهورية أو دويلة تجارية ، فهى موقع حربى خطير ، أو مجموعة من الحصون والاستحكامات البحرية أقيمت تحت جبل محصن على مساحة لا تتجاوز خمسة كيلومترات مربعة . والمدينة ذاتها بنيت داخل هذه الاستحكامات والحصون .

وحيث مر دقلديانوس ذو المذابح الكثيرة ، العبد الذى أصبح إمبراطوراً للرومان ونقل عاصمة إمبراطوريتهم إلى المشرق ، وقفت ساهماً أستعرض ما قرأته فى جيبون عن هذه الشخصية الملغزة فى تاريخ الرومان وهو الذى روى عنه الرواة أنه استعلى ليبهر وأنه كان أول من استحدث فى بلاط الرومان فخامة ملوك الشرق ، فاشتهر بطيالسه الموشاة بالذهب والفضة وبنعاله المرصعة بكريم الجواهر ، وكان المثول بين يديه يزداد مشقة مع الأيام ، بعد أن ملأ بلاطه بالحجاب وبطقوس البروتوكول وملأ شعاب قصره بالحرس الإمبراطورى ومقاصير حريمه بالخصيان

الرابضين كالفهود ، فإن مثل بين يديه واحد من رعيته مهما علا قدره ألزم بالسجود أمام حضرته وكأنه فى حضرة إله . ثم ترك دقلديانوس كل ذلك المجد العظيم باختياره واعتزل العرش والملأ وهو فى التاسعة والخمسين من عمره بعد أن جلس إحدى وعشرين سنة ، فلم يعرف له التاريخ صنوا غير الإمبراطور شرلكان . وكان فى معتكفه يتأمل جرائمه العديدة ويردد نادماً أو شبه نادم : « ما أكثر ما يحدث أن يلتقى أربعة أو خمسة وزراء فى المصلحة فيتفقوا على خداع مليكهم ! فلأنه يعيش فى عزلة عن البشر بحكم هيبته الرفيعة ، تراهم يخفون عنه الحقيقة ، فهو لا يرى إلا بعيونهم ولا يسمع إلا أضاليلهم . ولذا فهو يمنح أسمى الوظائف لأهل الرذيلة والضعف ، وهو ينكل بأشرف رعاياه وأعظمهم استحقاقاً . وهكذا يتردى أكرم الملوك وأرجحهم عقلا بسبب فساد بلاطهم وأشعبية حاشيتهم » .

وسألت صاحبى عمن زار دوبروفنيك من الأدباء والفنانين فى عصرها الحديث ، أى منذ بدأ مهرجانها السنوى فى ١٩٥٠ ، فأجهد ذاكرته كثيراً ولم يذكر لى إلا هربرت فون كارايان وباربيرولى وماريو روسى وإيزاك شتيرن ثم كتيبة لا بأس بها من فنانى الصف الثانى . أما الفرق الموسيقية العالمية فلم يذكر لى منها إلا أوركسترا برلين السيمفونى وفيلهارمونية موسكو . ولم أكن أسأل صاحبى ومنظمى المهرجان هذه الأسئلة اعتباطاً ، فقد لاحظت رغم النشاط الفنى والأدبى الشديد كل ليلة أن مئات الآلاف من الزوار الوافدين من أطراف الأرض المتجولين نهاراً وليلا فى أردية المصطافين

قد أعطوا للمكان شخصية المصيف وطبعوا كل شيء بطابع السياح . لقد أحسست فى لحظات أن كل هذا « التياترو » المنصوب وسط الآثار باسم مهرجان الفنون ليس إلا وسيلة لتنشيط السياحة ، وهو طبعاً وسيلة نبيلة لغرض مشروع ، مثل حكاية مهرجان بعلبك ، وتمنيت أن يكون للإسكندرية والأقصر ، مثل هذا المهرجان السنوى صيفاً وشتاء . غير أن نوعية ضيوف المهرجان والمشاركين فيه يجب أن تعد رأيا فيه وحكما عليه من الفنانين والأدباء . بقعة من أجمل ما سوت يد الطبيعة كان يمكن أن تكون عكاظ العالم، ومع ذلك تحولت إلى كان أو نيس أو ميامى فاوريدا .

وعرضاً عرفت أن حدثاً جللا جرى فى دوبروفنيك . قالوا لى إن أول اجتماع عقده أدباء العالم لمناهضة النازية عقده نادى القلم الدولى فى دوبروفنيك عام ١٩٣٤ ، وكان ه. ج. ويلز بين الأدباء المشتركين . قالوها باستخفاف وكأنها لا تعنى شيئاً ، أو كأن النازية التى حصدت فى بلادهم مليون قتيل غدت فى أرض تيتو المناضل العظيم شيئاً من أشياء الماضى البعيد لم تبق منه حتى الذكريات . وأنا ممن يعتقدون أن النازية لم تمت ولن تموت حثيثاً ، لأن لها أرواحا سبعاً وأقنعة سبعة ولذا ينبغى أن نضع ورودا لا تذبل على كل شاهد لضحاياها أينما نزفت دماؤهم عبرة وادكاراً .

قلت : ألديكم سجل أو محاضر أو ثبت من أى نوع كان يدون



هذا الحادث الخطير ؟ قالوا : لا شيء لدينا . قلت : من حضر هذا المؤتمر وماذا قالوا ؟ هل مشى هنا أراجون أو توماس مان أو شباب الأدب الإنجليزى الحديث فى الثلاثينيات ، أودن وسبندر وكريستوفر ايشروود ، وكل من زأر بصوت راعد فى وجه البربرية النازية قبل أن تكون النازية شيئاً مذكور ؟ قالوا لا علم لنا بشىء من هذا . مدينة كان على صدرها وسام شرف عظيم فخلعته وألقت به فى سلال المهملات . قلت وأنى لى أن أجمع هذه الوثائق المنسية ؟ قال مرافقى : أستاذى الذى علمنى الأدب المقارن فى جامعة زغرب ، واسمه هرجيشيتش ، كان حاضراً فى المؤتمر وربما أعطاك بعض الخيوط . وطلبنا هرجيشيتش العجوز فى زغرب بالتليفون وكلمته وكأنى أكلم شبحاً من وراء القرون . ووعدنى الرجل أن يرسل لى على عنوانى « بالأهرام » خطاباً بذكرياته عن كل ما كان . ولا زلت أنتظر الخطاب .

وأخذت أتردد كل مساء على حفلات المهرجان ، وكان درساً لى أن أراقب المايسترو اليوجوسلافى الكبير لافروفون ماشاشيتش وهو يجرى حتى الثانية صباحاً تدريبات أوبرا « فيديليو » لبيتهوفن فى حيوية ابن الثلاثين رغم أنه قارب السبعين . وكان بلا جدوى أن أشهد المسرحيات باليوجوسلافية لجهلى باللغة فاكتفيت « بطرطوف » موليير . وأنصت لقراءات بالألمانية من أدب بريخت فى الدعوة للسلام قدمتها هيلين فايجل ، أرملة بريخت ، واثنان من ممثلى مسرح « البرلينر انسامبل » ، وتواعدت معها على لقاء فى برلين ، وركزت على عروض الرقص الفولكورى

اليوجوسلافى الذى قدمته فرقة « تانتز » . وكنت قد رأيتها فى نيويورك ثم فى القاهرة من بعد فوجدت أنها لم تضف جديداً .

وحين التقيت بتوماليوف مدير فرقة «تانتز» للرقص الشعبى اليوجوسلافى — وهى تقابل فرقة رضا عندنا — وجدتها مناسبة لأن أناقشه فى المبادئ التى تقوم عليها حركة الفولكلور فى يوجوسلافيا ولا سيما أنه من كبار المنظمين والمستغلين لهذه الحركة فى بلاده وخارج بلاده . فقد سبق أن شاهدت عروض فرقة « تانتز » مرتين ، مرة فى نيويورك سنة ١٩٥٥ أو ١٩٥٦ لا أذكر بالتحديد فى قاعة كارنيجى الشهيرة التى كان الأمريكيون لا يعطونها عادة إلا للحفلات « الكلاسيك » ثم تنازلوا وأعطوها للمطربة الفرنسية الكبيرة إيديت بياف ثم لفرقة « تانتز » هذه . وكان للفرقة دوى شديد . ثم مرة منذ سنتين فى أوبرا القاهرة ، وكان انطباعى واحداً فى الحالين : إن هذا اللون من الفن الشعبى سوف يدخل حتما فى طريق مسدود لأنه محدود فى تقاليده . محدود فى إمكانياته الفنية ، مالم يتم التلاحم الحقيقى بين العبقرية الفردية وروح الجماعة . ولا أستبعد أن بعض الروس يتوهمون أن هذا حدث بالفعل فى بلادهم : ولكنى بعد أن رأيت عروض فرقة موسييف للرقص الشعبى خرجت بنفس الانطباع ، وتيقنت من أن حركة الرقص الفلكورى فى العالم ، أى تحويل التعبير التلقائى الجماعى عن النفس إلى فن موضوعى يعرض على الغير ، لا يزال وليداً يحبو ، وبالذات لأنه وليد يحبو فهو عالى الصراخ والضجيج .

وعرفت من توما ليوف أن الرقص الفولكلورى اليوجسلافى بدأ كحركة استعراضية منظمة فى ١٩٤٥ بعد الحرب مباشرة كاتجاه لإحياء التاريخ والجغرافيا عند السلافيين الجنوبيين . وخرج منه كوكتيل من القومية التى تتمثل فى تمجيد الروح السلافية الجنوبية ومن الاشتراكية التى تتمثل فى تمجيد التعبير الشعبى الجماعى فى فن الرقص . وقد كان هناك بعض الحتمية فى هذه الحركة لأن يوجوسلافيا كما اعترف ليوف بلد صغير حديث لا يملك تراثاً كلاسيكيًّا كبيراً يمكن استلهامه . ولذلك كان استلهام الفنون الشعبية هو البديل الطبيعى لا ستلهام التراث . ونظراً لتعدد القوميات داخل يوجوسلافيا لم يكن بد من أن تحتفى حركة الرقص الشعبى بالرقص الشعبى فى مختلف القوميات اليوجوسلافية . وقد كان السؤال الطبيعى فى هذا المجال : ألا يؤدى التعدد فى التعبير الفنى الإقليمى كتعدد اللغات والثقافات . إلى إيذاء القومية اليوجوسلافية ، لأنه يؤكد الفوارق فى الثقافة والتعبير الفنى بين المقدونيين مثلا والصرب والكروات إلخ . . ولكن توما ليوف أجاب على هذا بقوله : إن الشخصية السلافية تجمعنا جميعاً واختلاف الإيقاع لا يضر بل ينفع لأنه يزيد معرفة المقدونى بالصربى والكرواتى بأبناء البوسنة والهرسك ويزيد احترام هذه الثقافات بعضها للبعض الآخر . إنما الضرر فى اضطهاد إحدى الثقافات القومية لغيرها من الثقافات القومية . قلت : المشكلة عندى هى أن الكلاسيكية قد تكون مرضاً طبقيًّا والفولكلور قد يكون مرضاً قوميًّا ، فتمجيد التراث قد يقترن أحياناً بتمجيد « الصفوة » القادرة عليه المنتجة والمستهلكة له ،

وتمجيد « روح الجماعة » قد يؤدى إلى تقديس الجنس فى ذاته وتأليه قدراته الفطرية بغض النظر عن مستواه الحضارى . واعترف ليوف بذلك ، ولكن حجته كانت أن الكلاسيكية تقتل التلقائية والحساسية الطبيعية وتنتهى بفقدان الشخصية باسم العالمية وباسم الحفاظ على تراث الإنسانية . وهو يعترف حقًا بأن التعبير الشعبى خليط من النبل ومن الانحطاط ومن الحكمة الفطرية ومن الجهالات الفطرية ومن التعبير العميق ومن السفاسف والسخافات ، ولكن الأمل عنده هو فى العبقرية الفردية عند الكوريوجراف (مصمم الرقص ومبدعه) أو عند الموسيقار الذى يستلهم الوجدان الشعبى ويصفى تبره من ترابه ويصوغ منه فنًا عظيماً ، فسقراط يونانى ولكن ليس كل اليونان سقراطاً . ونبهت توماليوف أنه بهذا الكلام يعود إلى المأزق الذى حاول أن يخرج منه . فإن الاعتماد على عبقرية المبدع الفرد سوف تخرج الفولكلور عن فولكلوريته وتذيب روح الجماعة فى روح الفرد وتسعى بنا إلى كلاسيكية جديدة هى فى حقيقتها من صنع الصفوة لا من صنع الشعب . واعترف ليوف بذلك ولكنه أجاب : الأمل إذن هو أن يصبح الشعب نفسه موضوعاً لعبقرية المبدع الفرد ، وأن يصبح الشعب بطل هذه الكلاسيكية الجديدة بدلا من الأبطال الأفراد .

كان كل هذا الكلام كلاماً جميلا فى حدود المناقشة النظرية ، ولكن ملاحظتى عليه فى التطبيق هى أنه رغم مرور ٣٥ سنة على هذه الاندفاعة نحو تمجيد الرقص الفولكلورى وتحويله إلى فن استهلاكى بعد أن

كان مجرد فن تعبيرى ، فإن الرقص الفولكاورى قد تجمد ولم يتجدد سواء فى يوجوسلافيا أو فى غيرها من البلاد لأن شيئاً ما فى روح الجماعة قد هزم المبدع الفرد ، فلعبة السيف المقدونية لا تزال بعد ثلاثين عاماً هى لعبة السيف المقدونية وطقوس الفرح الجماعى فى احتفالات الحصاد أو فى احتفالات الزواج لم تتغير على المسرح كثيراً رغم مرور السنين لأنها لم تتغير فى الحياة ، وكل ماحدث هو أن الرقص الفولكاورى اليوجوسلافى قد غدا سلعة سياحية عظيمة تصدرها يوجوسلافيا إلى عواصم العالم فى أزيائه الوطنية أو تستقدم العالم لرؤيته فى دوبروفنيك ، وحيث السياحة يوضع الفن فى خدمة الدولار .

أربعة أيام قضيتها فى دوبروفنيك، أخذت فيها شيئاً من جمال الفن وشيئاً من جمال الطبيعة، وعدت أدراجى إلى بلجراد لأتأهب لرحلتى الروسية .



الفصل الثالث

مأساة يوجوسلافية

وملهاة روسية

حدثني سفيرنا في بلجراد ، يحيي عبد القادر ، قال : « لا تحكم على اليوجوسلافيين بما تراه في بلجراد وحدها ، فأكثر السكان هنا من الصرب ، ولكل قومية يوجوسلافية مستواها الحضاري الذي يميزها عن غيرها ، فأرقى اليوجوسلاف هم أهل سلوفينيا في الشمال ، ويليهم في الرقي أهل كرواتيا ويليهم أهل صربيا . . إلخ ، ومن أكثرهم تخلفا أهل البوسنة والهرسك ومقدونيا والجبل الأسود . وربما كان الألبان في المؤخرة . قاعدة عامة تحكم التقدم والتخلف بين قوميات يوجوسلافيا : المناطق التي حكمتها الإمبراطورية النمسوية أو المجر هي المناطق المتقدمة ، والمناطق التي حكمتها الإمبراطورية العثمانية هي المناطق المتخلفة ، وكلما كانت التبعية للترك أقوى وأطول كان التخلف أعمق وأوضح » .

وبعد العشاء انصرفت أفكر في تاريخ هذا الشعب الغريب ، سلاف الجنوب ، الذي فقد استقلاله وسقطت كل معاقله في يد الترك قبل

عام ١٤٠٠ ولم يجمع أشتاته الممزقة ويسترد وحدته إلا منذ ١٩١٨ .

وكلما استفسرت أو تطلعت فى وجوه الناس وتأملت حديثهم وسلوكهم تأكدت من معنى واحد وهو أن جذوة الوطنية ظلت متقدة فيهم تحت الرماد طوال هذه المأساة التى استغرقت خمسة قرون . وحين جاءتنى ملحمتهم الوطنية واسمها « ماركو » ، وهى موال قصصى نظمه شاعر مجهول فى نحو منتصف القرن الرابع عشر ، وترجمته لى بالإنجليزية الشاعرة الكرواتية فيسنا كريبيو تيتش ، أحسست بروح الشعب اليوجوسلافى تتجول حزينة وقوية من وراء القرون ، على لسان المنشد ذى الربابة يتجول بين القرى فى الجبال والوديان يذكر بنى قومه بقصة ضياعهم العظيم بعد مجدهم العظيم .

فقد كانت لهم دولة كبرى قبل أن يجئ الترك ، دولة تضم أكثر البلقان ، تساليا وابيروس وألبانيا ومقدونيا والصرب والبوسنة . وكان لهم إمبراطور عظيم حكيم اسمه دوشان ، كان قيصر زمانه ومشرع عصره وأوانه . فلما توفى الملك دوشان لم يكن ولده الأمير الشاب أوروش قد بلغ الثامنة عشرة بعد . وتنازع إخوته الثلاثة فيمن يخلفه فى عرشه ، فطعنوا فى نسب الأمير الصغير أوروش ، وادعى كلٌّ الحق لنفسه :

أربع خيام التقت

على سهل كوسوفو الجميل

بجوار كنيسة سانودريا البيضاء :

فى الخيمة الأولى كان الملك فوكاشين

وفى الخيمة الثانية كان السلطان أوجليشا

وفى الخيمة الثالثة كان الدوق جويكو

أما الرابعة فكانت خيمة الأمير الصغير اوروش .

أربعة ملوك اقتتلوا على المملكة كل يريد الفتك بأخيه

بخنجر ذهبى يطعنه .

لا يعرفون من صاحب الصولجان .

كان الأمير الصغير يسمع ويتعجب لأنه ولى العهد الشرعى . وفى الخفاء أوفد كل رسوله الخاص إلى مدينة بريزرين . حيث يقيم البطريق ، ليفتى لهم من منهم صاحب الصولجان . وكان البطريق شيخاً صالحاً عارفاً بالأنساب وبكتب القدماء ، وبلغ الرسل الأربعة المدينة فى الصباح . ووجدوا البطريق يقيم القداس فى الكنيسة ، فلم يترجلوا بل اقتحموا بخيلهم حرم الكنيسة وضربوا البطريق بالسياط وأمروه أن يصحبهم إلى كوسوفو ليحسم الأمر وفقاً لوصية الملك الراحل دوشان ، وجرت دموع البطريق على خديه واستمهلهم حتى يفرغ من واجبه نحو ربه . وحين فرغ من الصلاة تقدم نحوهم قائلا إنه لم يسأل الملك دوشان وهو يناوله الأسرار المقدسة على فراش الموت لمن يكون الملك من بعده ، ولكن سأله ماذا كانت ذنوبه ومعاصيه عند الله . وأوفدهم البطريق إلى مدينة برياوب حيث قلعة الأمير البطل ماركو ذى البأس العظيم ، تابع الملك الأمين الذى لا يقول إلا الحق ولا يخاف إلا الله ،

رغم أنه ابن أحد الملوك المتنازعين ، وهو الملك فوكاشين ليدعوه إلى كوسوفو فيحسم الأمر بين الملوك الأربعة . ويتجه الرسل الأربعة إلى مدينة برياوب ويعرفون الأمير ماركو بمسعاهم ، وحين يطلع الأمير ماركو أمه الجليلة يفروسيا على ماجرى وما يجرى تهيب الأم الجليلة بولدها قائلة :

أى ماركو ، ياولد أمك الوحيد !
إياك أن تجعل جرحى لعنة عليك
ولكن يابنى لا تنطق بكلمة ضلال
لاتستمع لحق الأبوة ولا لحق العمومة
بل لصوت العدل ، عدل الله رب الحق .
إياك يا ولدى أن تفقد روحك
فالخير أن يفقد المرء رأسه من أن يجر على روحه الخطيئة .

ويخرج الأمير ماركو على صهوة جواده إلى كوسوفو حاملا كتاب أنساب الملوك وحين يقترب من الخيام الأربع يراه أبوه الملك فوكاشين ، فيتهلل الأب فرحاً حاسباً أن ولده قد جاء لينحاز له ويسلمه تاج المملكة . ولكن الأمير ماركو يتخطى خيمة أبيه دون أن يلتفت إليه . وحين يمر ماركو على عميه ، يحاول كل منهما إفساد ضميره ، ولكن ماركو يزور عنهما حتى يبلغ خيمة الأمير الصغير أوروش ولى العهد ابن الملك الراحل دوشان ويقضى اليوم فى خيمته . وفى اليوم التالى — يوم التحكيم — يجتمع الأمراء والنبلاء والفرسان ويتوجهون للصلاة فى الكنيسة ثم يخرجون المأدبة العظيمة ويشربون البراندى فى انتظار القرار الأخير . ويقف

ماركو بينهم خطيباً وفى يده كتاب الأنساب ، ويؤنب أباه وعميه على جشعهم العظيم ، فلكل منهم ولايته وهو يطمع فى ما فى يده الغير . ويلقى عليهم لعنته أن تصير ديارهم خراباً يباباً جزاء لهم على جشعهم ، ويعلن أن التاج تاج الأمير أوروش ، بحق النسب المقدس .

وعندما سمع ذلك الملك فوكاشين
هب واقفاً على قدميه
واستل خنجره الذهبى
ليطعن ولده ماركو حتى الموت
وجرى ماركو ليتحاشى أباه
لأنه لا يحق يا رفيقى
أن يقتتل ابن مع أبيه

واندفع ماركو إلى الكنيسة وأبوه يطارده شاهراً خنجره. وسمع ماركو نداء من الكنيسة يقول : « ادخل الحرم أيها الأمير ماركو ! لسوف تهلك اليوم ، تهلك بيد أبيك ، تهلك فى سبيل العدل ، عدل رب الحق » وانفتحت أبواب الكنيسة ، ودخل ماركو ، وانغلقت من ورائه الأبواب . وهجم الملك فوكاشين على الباب وطعنه بخنجره ، فإذا دماء انهمرت من الواحه مدراراً . وأدرك الأب أنه قتل ولده ، فذهب ينوح فى ندم ، ولكن صوتاً جاءه من الداخل يقول : « اسمع أيها الملك فوكاشين! أنت ما قتلت ولدك ولكنك قتلت ملاك الله ! »

وهكذا حلت اللعنة على هذه المملكة العظيمة فصارت خراباً يباباً

غزتها جحافل الترك فى كل مكان وأشاعت فيها النار والدمار . وفى ١٣٨٩ على سهول كوسوفو سقط زهرة فرسان الصرب ونبلائها ، سقطوا عن بكرة أبيهم . وفى هذه المعركة الفاصلة سقط أيضاً السلطان مراد الأول ، وكان أوروش آخر ملوك الصرب الذين فقدوا استقلالهم أكثر من خمسة قرون جزاء لهم على انقسامهم وتمزقهم .

وهكذا كانت مأساة أمة محاربة محبة للحرية كما دونتها أشعار الشعراء المجهولين . قصة اختلط فيها الرمز بالحقيقة والخيال بالتاريخ ، وعبر خمسة قرون غناها الشعراء الجوالون البسطاء على أنغام الربابة فأذكوا بها حب الوطن فى قلوب الصربيين . والدرس الذى تعلمه جميع اليوجوسلاف هو أن التفرق لا جزاء له إلا العبودية والضياع

والآن ننتقل من المأساة اليوجوسلافية إلى الملهاة الروسية .

* * *

قبل أن أبدأ رحلتى الروسية بأسبوعين أو ثلاثة أبرق الرفيق كوميسار وف الملحق الثقافى للسفارة السوفيتية بالقاهرة إلى وزارة الخارجية بموسكو يطلب لى تأشيرة دخول للاتحاد السوفيتى راجيا إرسال الإذن بالتأشيرة إلى السفارة السوفيتية بالقاهرة حتى ١٥ يوليو أو إرساله إلى السفارة السوفييتية ببلجراد فى الأيام العشرة التالية وفقاً لبرنامج رحلتى .

ولم يرد الإذن بالتأشيرة الروسية حتى تاريخ سفرى من القاهرة . وما إن نزلت بلجراد حتى اتصلت بالسفارة السوفييتية هناك لأستفسر

عن التأشيرة فعرفت أنها لم ترد بعد . وتعرفت على الرفيق أناتولى ستبانيوك قنصل روسيا فى بلجراد ، فوجدته رجلا ربعة ذكيا مرحاً متدفقا لبقا يشبه فى خلقته وفى طباعه الروائى الإنجليزى الكبير لورانس داريل صاحب « رباعية الإسكندرية » فكأنهما توأمان. وسخا ستيبانيوك فى الترحيب بى وكأنه يرحب بجريدة « الأهرام » نفسها وأعجب ما فى الأمر أنى وجدت نفسى بعد دقيقتين أحادثه وكأنى أعرفه من عشر سنوات ، واستوقف انتباهى أنه ، رغم عمله فى بلجراد ورغم أنه لم يقم فى القاهرة ، كان يعرف مصر معرفة خبير . . لم يكن يتحدث عن هرم خوفو أو متاحف مصر أو خان الخليلى أو الموقف المصرى — الإسرائيلى أو أى شىء يمكن أن يعرفه المرء من الكتب أو من الصحف الأجنبية ، ولكن كان يحدثنى عن الاتحاد الاشتراكى ، ويذكر أسماء شخصيات فى المناصب العامة وما جرى عليها من تغييرات . قال ستيبانيوك لا شك أن التأشيرة ستأتى غداً .

ولم تأت التأشيرة غداً . . قال ستيبانيوك : إذن ستأتى غداً بغير شك سأستعجلها بتلغراف لوزارة الخارجية . . ولم تأت التأشيرة بعد غد . قلت لاستيبانيوك : سأسافر إلى دوبروفنيك وسأتصل بك من هناك بعد أيام . وبعد أربعة أيام اتصلت من دوبروفنيك بالسفارة الروسية فى بلجراد . وعرفت من استيبانيوك أن التأشيرة لم تصل بعد . وبدأت أتخوف ، وقررت أن أقطع إقامتى فى دوبروفنيك وأعود فوراً إلى بلجراد لمواجهة الموقف الجديد . لقد استنفدت زيارتى اليوجوسلافية أغراضها أو أوشكت ،

وبعد ستة أيام أحسست بأنى لن أحصل بسهولة من يوجوسلافيا أكثر كثيراً مما حصلت وأن كل بقاء فيها أطول من الأيام العشرة المقررة سوف يكون مضيعة للوقت .

وفى اليوم السابع اتصلت بالسفارة الروسية من جديد . لا خبر عن التأشيرة .. قلت للقنصل : اسمع ياصديقى الطيب . أنا لم آت إلى أوربا لأصيف ، وإنما جئت فى عمل « للأهرام » ولمدة شهر فقط . جئت لأجمع مادة لقرائى . وإذا لم أستطع جمعها من روسيا فسأبحث عن هذه المادة فى غيرها من البلاد . إذا لم تصل التأشيرة غداً صباحاً فسأغير وجهتى وأسافر إلى إيطاليا وفرنسا وإنجلترا بدلا من روسيا . فمن غير المعقول أن أقطع رحلتى أو أن أقول لقرائى بعد شهر : آسف ، أنا لم أر شيئاً فى رحلتى هذه المرة لأنى كنت أنتظر التأشيرة الروسية فى صالون فندق سلافيا .

وبدا الحرج الشديد على أناتولى ستيبانيوك . وعاد يؤكد لى أن التأشيرة ستصل لا محالة . وأبدى معى استغرابه من تأخر التأشيرة ثلاثة أسابيع رغم تكرر البرقيات من القاهرة وبلجراد ، وأضاف : لابد أنهم يعدون العدة لاستقبالك رسمياً فى اتحاد الكتاب وأن هذا سبب التأخير .. قلت : أنا لا أريد أن أستقبل رسمياً فى اتحاد الكتاب . أنا لست مدعواً من أحد ولن أنزل ضيفاً على أحد . إن « الأهرام » أعطانى من الدولارات ما يكفى لإقامتى فى موسكو ولننجراد وأعطانى أيضاً تذاكر الطيارة . افترض يا أخى أنى سائح . هل روسيا مفتوحة أو مغلقة فى وجه السياح ؟

قال استيبانيوك : مفتوحه طبعا . لو أنك قلت ذلك منذ البداية لأعطيتك التأشيرة فى عشر دقائق ، قلت : ولماذا لا تعطينى إياها الآن . قال : يجب أن تحجز غرفة فى لوكاندة أولا . وبعد هذا لن تكون هناك عقبات ، قلت : غدا صباحاً ، إذا لم تصل التأشيرة ، فسأجرى هذه الترتيبات . قال : اتفقنا .

وفى اليوم التالى (الثامن) اتصلت بالسفارة الروسية . لا خبر عن التأشيرة وخرجت لفورى إلى مكتب السياحة اليوجوسلافى المركزى الذى يرتب مثل هذه الأمور . وحجزت غرفة فى أحد فنادق الدرجة الأولى . دفعت الدولارات المطلوبة . وأعطونى إيصالا . سألت : وما اسم الفندق ؟ قالوا لا نعرف بعد : ربما روسيا أو مينسك أو المتروبول أو أوكرايينا أو لننجراد سكايا . عندما تنزل فى مطار موسكو تقدم هذا الإيصال إلى مكتب السياحة السوفييتى ، واسمه أنتوريست ، وهذا المكتب هو الذى يجد لك المكان الخالى فى الفنادق . إنه الهيئة السياحية التابعة للدولة وهو الذى يحدد لكل سائح الفندق الذى سيستقبله بحسب الغرف الشاغرة .

وذهبت فرحاً إلى القنصل الروسى . وقلت : هات التأشيرة . هذا هو الإيصال الذى طلبته وهو يثبت أنى حجزت مكاناً فى أحد فنادق موسكو فأخذ استيبانيوك منى الايصال وأخذ يتمعنه ، ثم رفع سماعة التليفون وطلب مكتب السياحة اليوجوسلافى المركزى . وبعد مناقشة دامت دقائق لم أفهم منها حرفاً التفت إلىّ وقال : متأسف ، ولكن لا بد من انتظار الرد من هيئة السياحة بموسكو (الانتوريست) على برقية هيئة السياحة المركزية .

(سنتر وتوريست) ببلجراد ، رداً يفيد أنهم وجدوا لك غرفة خالية فى أحد فنادق موسكو . لن تنتظر أكثر من ٢٤ أو ٤٨ ساعة .

وخرجت آسفاً . وقد عقدت العزم على العدول عن رحلتى الروسية . وقصدت إلى هيئة السياحة اليوجوسلافية لألغى الحجز وأسترد دولاراتى . وكانوا كراماً . فأخذوا إيصالهم وسلمونى الدولارات فى ثلاث دقائق . وحين سألتهم كم من الوقت يستغرق الرد عادة على برقيات الحجز ، أجابوا : أنت وحظك من ٢٤ ساعة إلى ثلاثة أسابيع .

وخرجت على عجل إلى السفارة الإيطالية فحصلت منها على تأشيرة دخول إيطالية فى خمس دقائق . ثم توجهت إلى السفارة البريطانية ، وفى خمس دقائق أخذت التأشيرة البريطانية وقد اهتم القنصل البريطانى فى بلجراد أن يستقبلنى ويلغو معى نحو نصف ساعة مرحباً ، وعرفت منه أنه كان أحد الضباط الذين نزلوا بور سعيد أيام العدوان الثلاثى فى سنة ١٩٥٦ . قال : فى الواقع أنا مدين بحياتى لنائب محافظ بورسعيد ، فقد وقعت فى يد الجماهير وكادت أن تفتك بى . ولولا نائب المحافظ لكنت الآن فى خبر كان . ألكم تمنيت أن أشكره على هذا الصنيع . وجرنا هذا إلى الكلام فى السياسة المصرية الإنجليزية وكان يرى أن إنجلترا حاولت أن تفعل بعض الخير فى مصر . قلت : نحن المصريين كان يسوءنا فى إنجلترا ، وهى بلد الديمقراطية ، أنها كانت دائماً تعرقل نمو الديمقراطية المصرية بانحيازها الدائم إلى الملك والباشوات والحكومات الدكتاتورية ، بحجة أن الديمقراطية الإنجليزية غير قابلة للتصدير .

قال القنصل البريطاني : هذه سنة الحياة وهذه مسئولية كل بلد ناشيء تحرر حديثاً . إنه شيء كالأمومة . إن المرأة حين تنجب طفلها الأول تجد نفسها في مواجهة هذا الوليد بغير عون ولا تلقين إلا ما توحي به غريزتها وما تتعلمه بالممارسة . تجربة شاقة أن يعلم الإنسان نفسه ولكن لا مفر منها . ووجدت نوعاً من الحكمة في ذلك على إطلاقه . ولكني عدت فذكرته بأن الاستعمار كالغول المتربص ليلتهم كل وليد . أجاب القنصل الحكيم : وهذا أيضاً جزء من التجربة . أن تلهم فطرة الأمومة الأم أن تحمى أولادها من الغيلان . ثم عرجت على السفارة الفرنسية وحصلت على التأشيرة الفرنسية في خمس دقائق .

وبعد أن فرغت من جمع التأشيرات الغربية على جواز سفري قصدت إلى شركة الطيران العربية المتحدة . وأعانني مديرها الاستاذ مصطفى عبد الله على استبدال تذاكر سفري الروسية إلى روما ولندن وباريس ثم أبرقت إلى الأستاذ هيكل عن طريق ا. ش . ا لأبلغه بتغيير برنامج رحلتي وأبرقت إلى معارفي في غرب أوربا بقدومي . وهكذا انتهى كل شيء في يوم واحد . انهارت أحلامي الروسية وأنا موزع بين الأسف والامتعاض والتوجس والحزن على فرصة العمر

ولكن بقيت في ضميري بعض الألغاز التي حرت في فهمها . فنحن والروس أصدقاء تربطنا اليوم آصرة كفاح عظيم ، ولم أفهم أن يختار الروس هذا الوقت بالذات ليؤجلوا تأشيرتي . وكنت أعرف عدداً لا يحصى من زملائي في القلم ومن رجالات مصر ومن غيرهم يتجولون كل

يوم بين القاهرة وموسكو وكأنهم يتنقلون بين القاهرة والاسكندرية . فلماذا أنا بالذات يحال بينى وبين هذه التجربة الكبرى . ثم إنى أقرأ كل يوم أن الاتحاد السوفيتى منذ انقشاع الاستالينية قد فتح حدوده لكل الزائرين حتى من بلاد أعدائه .

وزاد من حيرتى أنى شخصيًّا ، ولنتكلم بصراحة ، بغض النظر عن معتقداتى الشخصية ، لاقيت فى بلادى وفى غير بلادى فى مراحل عديدة ومتعاقبة ، على امتداد عشرين عاماً ، عنتاً شديداً كلفنى آنا لقمة عيشى وآنا حريتى وأمنى ، بل وما هو أخطر من هذا غير طريقى فى الحياة وحولنى من أستاذ يعيش بين «أطلال» سبنسر ويتجول فى «فردوس» ميلتون المفقود ويستمع مع شلى إلى زمزمة الرياح الغربية ويسكن عاجى الأبراج مع فرسان كيتس وسيدة شالوت إلى أديب صحفى يضيع وقته ووقت قرائه على أشياء علم الله أن أكثرها هباء وزبد يذهب جفاء . كل هذا حدث لى لاعتقاد الكثيرين أنى شيوعى خطير وهو شرف لا أدعيه وتهمة لا أنكرها . ولا شك أن الروس كغيرهم قد سمعوا بذلك . ولم يبق أمامى إلا أن أتصور أن لى ملفًّا سيئاً عند هؤلاء القوم جعلهم يترددون طويلا أمام اسمى لا يعرفون أيبتسمون أم يتجهمون .

وعلى كل فقد بقى اللغز عندى بغير حل ، ولا يزال . وكان مصدر راحة لى أن أستعرض تجاربى وتجارب الغير المسلية وغير المسلية مع حفاظ الحدود فى كل بلاد العالم . ذكرت ماحدث لصديقى الدكتور على الجريتلى حين نزل مطار نيويورك لأول مرة عام ١٩٤٦ فى طريقه إلى مؤتمر

بريتون وودز ، فقد استوقفه ضابط الجوازات وسأله هذا السؤال الغريب :
« هل جئت إلى أمريكا لاغتيال رئيس الولايات المتحدة الأمريكية ؟ »
(وكانوا قبل ذلك بشهرين قد عثروا على قنبلة فى البيت الأبيض دسها
شاب من كوستاريكا) . وذكرت ما قاله لى ضابط الجوازات فى ميناء
نيويورك عندما وطئت أرض أمريكا لأول مرة عام ١٩٥١ فى طريقى
إلى جامعة بريستون ، قال وهو يتفحص جواز سفرى « عملك محاضر فى
جامعة القاهرة . هل جئت لتحاضر فى الشيوعية بجامعة برنستون ؟ »
دعابات ثقيلة أكرم منها المنع الشامل ، فالخير أن يرد الضيف كريماً
من أن يلقاك رب الدار فى جهامة واسترابة .

ثم حدثت مفاجأة . فى الساعة السابعة من صباح اليوم التالى ،
فوجئت بدق شديد متوالى الضربات على باب غرفتى بفندق سلافيا ،
فهرعت وكنت لا أزال فى بيجامتى ، إلى الباب لأعرف من الطارق
وما الخبر . وإذا بى وجها لوجه أمام قنصل روسيا فى بلجراد . وصاح
أناتولى ستيبانيوك عبر الباب قائلا فى بشر عظيم : « يادكتور عوض .
لقد وصلت تأشيرتك » . قلت : أولا تفضل ثم قل لى ما الخبر . ودخل
استيبانيوك الحجرة قائلا : « ناولنى جواز سفرك . جاءتنا من موسكو
أمس مساء برقية تقول إن اتحاد الكتاب فى انتظارك . هات الباسبور
لأعطيك الفيزا ثم اتبعنى إلى السفارة . » قلت فى ارتباك : « ولكنى غيرت
كل شىء ، غيرت التذاكر وحصلت أمس على التأشيرات لروما ولندن
وباريس . . بل وأبرقت لرئيس تحرير الأهرام بأنى غيرت خط سيرى

وفتح الباب القنصلي وأدخلني ثم أغلقه. وجلست أمامه أرقبه وهو يتم
— إن هذا غير ممكن، فلنترك رحلتي الروسية إلى فرصة أخرى» قال وقد
بدا عليه حزن شديد: «لا. لا. سوف يحزنون في اتحاد الكتاب إذا لم
تزر الاتحاد السوفييتي. إنهم أعدوا كل شيء لكي تزور ما تريد،
لا بد أنها كانت غلطة من موظف صغير في وزارة الخارجية أو في اتحاد
الكتاب أهمل البرقيات أو لم يقدر من تكون. إنني أعتذر بحرارة.»

وكان استيبانيوك طبعاً يعتذر «للأهرام» لا لي. فهو صحفي قديم
ويعرف معنى «الأهرام» ولعلنا عندما التقينا لم يكن سمع باسمي. ولكن
صفتي كمحرر أدبي لجريدة «الأهرام» كانت مصدر حفاوته وارتباكاته السابقة.

وكان لا بد من اتخاذ قرار فوري. وحسبتها بسرعة البرق: إن رفضي
دخول الاتحاد السوفييتي بعد أن جاءتني التأشيرة سوف يؤول على أنه موقف،
وأنا جئت لأتعلم لا لأتخذ مواقف. ثم إني لست وحدي في هذا، فهناك
أيضاً جريدتي.

وسلمته جواز سفري في استسلام. وهرول به إلى السفارة الروسية التي
كانت على مسيرة خمس دقائق. وفي دقيقتين كنت في بدلتي. وفي
لحظة صبيانية أصبت برعب شديد على جواز سفري أن يحدث له شيء،
فأنت خارج بلادك بلا جواز سفر رجل فقد دليل وجوده. وبلغت
السفارة فوجدتها لا تزال مغلقة. لقد كانت الساعة السابعة والربع.
ودرت حول السور فرأيت من خلال زجاج النافذة صاحبي أناتولي
ستيبانوك مكباً على مكتبه. ونقرت له زجاج النافذة، فرآني ونهض

الاجراءات مع زملائه وصوت الآلة الكاتبة يدق عنيفاً أعنف من التيكرز وسألني أين تريد أن تذهب ؟ قلت : موسكو ولننجراد . فقط ؟ نعم ، فقط . وكتبت الآلة : موسكو ولننجراد . كم تحب أن تبقى قلت : أسبوعين . قال : فقط ؟ نعم ، فقط . هذا قليل . خذ شهراً . وكتبت الآلة شهراً . ثم بعض التوقيعات و بعض الأختام ، وانتهى كل شيء .

ولم يتركني أناتولي : اتصل أولا بشركة الطيران الروسية وحجز لي مكاناً في طائرة الغد ثم قال : هيا إلى شركة الطيران العربية المتحدة نبدل تذاكر السفر . وكانت هذه أشق مرحلة في الموضوع . بالأمس فقط أزعجتهم لتغيير تذاكري إلى الغرب وهأنذا أزعجهم اليوم من جديد لتغييرها إلى الشرق . وفي الشركة شرحت لهم الموضوع . وأدرك الرجل الذكي مصطفى عبد الله دقة الموقف فأولى الأمر عنايته الشخصية . ولم يتركني أناتولي استيبانيوك إلا وأنا على جناح الطائر الروسي الميمون ، وكأني وديعة يخاف أن تضيع في الطريق .

ولم أنس قبل سفري أن أبرق لجريدتي بالعدول عن العدول .



الفصل الرابع

موسكو

مدينة القباب والأخلاق الفاضلة

عندما نزلت مطار موسكو كانت معنوياتي مرتفعة إلى درجة التمام، كنت أولا فرحاً بتحقيق حلمي الكبير . وهو زيارة الاتحاد السوفييتي . وكانت تجربتي اليوجوسلافية المرهقة ثانيا قد أعدتني نفسيًّا لقبول أي شيء يأتيني به القدر بصدر واسع . وكان اليوم عصر السبت ، وهو يقابل عصر الخميس عندنا ، أي بداية عطلة نهاية الأسبوع ، ولم أكن أعرف إن كان اتحاد الكتاب السوفييت قد تسلم برقية القنصل الروسي في بلجراد بموعد وصولي أم لا . ولم يعد يخيفني ألا أجد من ينتظرني في مطار أو أن أجد نفسي وسط قوم أكلمهم بمفردات عالمية تكملها لغة الإشارة . بعد عشرة أيام من الإقامة بين سلاف الجنوب كنت على تمام الأهبة لمواجهة سلاف الشمال .

وفي مطار موسكو ركبت تاكسي ، وقلت : « هوتيل » .

ونزلت في فندق مينسك . لامكان.. وبحثت لي الموظفة عن مكان في الفنادق الأخرى.. لامكان في فندق روسيا . لامكان في متروبول .

لا مكان فى أوكراينا . لا مكان فى الناشيونال . قلت ضاحكاً : يبدو أنى سأنام فى الشارع . قالت السيدة ضاحكة : هذا ممنوع فى الاتحاد السوفييتى . قلت ضاحكاً : إذن سأنام فى قسم البوليس . قالت : لا أظن أننا سنتركك تنام فى قسم البوليس . واختفت دقيقتين ثم عادت وقالت : حجرتك رقمها ١٠١٥ ، وسيقرضك الفندق ٢٥ روبل لتحاسب التاكسى حتى تبدل دولاراتك غدا من البنك . وحمل السائق الصبور أمتعتى داخل الفندق وهو لا يكف عن الابتسام ، وكأنه شريك فى هذه اللعبة المسلية .

وهكذا تجاوزنا الأزمة بالابتسام . وكان كل شىء فى موسكو يشع بالدفء ، دفء القلوب ، من المطار إلى حجرتى . من موظف الجمرك إلى عامل المصعد . فمن لم يبتسم لك بشفتيه ابتسم بعينيه . ولم أضيع وقتا . استبدلت ملابسى ونزلت أتجول فى شارع جوركى ، وسرت أتسكع من ميدان مايا كوفسكى إلى ميدان بوشكين ومن ميدان بوشكين إلى الميدان الأحمر وقبابه الذهبية فى ظلال الكرملين . وشارع جوركى الفسيح مشرق بالنهار حتى بعد الغروب . وذهبت أتمعن تماثيل موسكو العظيمة الواقفة فى قوة وشموخ من قوة الإنسان وشموخه ، لا تأله فيها ولا تعاظم كذلك الواقف هامه فى السحاب فى ميدان الطرف الأغر بلندن ، ولا صقل ولا جمال ولا واقعية كتلك الواقفة فى متناول الكف فى ميادين مدينة النور ، وإنما اعتزاز من عزة الإنسان الذى يحمل على كاهليه عبء مصير الإنسان . وعلى تمثال بوشكين قرأت

أشعاره على قاعدته تقول :

« لسوف يسمعون بي في كل أركان روسيا العظيمة ولسوف يلهج كل لسان :

أنا سليل السلاف الطموح سليل الفين والتونج المتبربرين حتى الآن سليل الكالميك ، أصحاب السهوب » .

« ولسوف يحبني قومي طويلا لأن قيثارتي هزت جميل المشاعر ، ولأني أنشدت للحرية الأناشيد في زمني العاتي ، وناديت بالرحمة على المقهورين » .

فأجد أن بوشكين قال شيئاً أكثر من قول المتنبي : « إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشداً » وأكثر مما قال هوارس في قصيدته الشهيرة : « لقد بنيت أثراً أكثر شموخاً من الهرم . . إلخ » لأن بوشكين لم يذكر نفسه فحسب وإنما ذكر حرية الأحرار وشقاء العبيد .

ثم أعود القهقرى من ميدان بوشكين إلى ميدان ما ياكوفسكي فأقرأ شعره يقول على قاعدة تمثاله :

« وأغنى اوطنى وجمهوريتى ، فغنائى لربيع الإنسانية يولد من الكدح والقتال » .

فأقول هذه رؤيا شاعر عاصر صراع البلاشفة العظيم وحلم بالعالم الجديد الموعود يخرج من العالم القديم الشقي كما تخرج تباشير الربيع من أحشاء الشتاء الحزين . والشوارع كلها فسيحة جداً كأنك في روما منتظمة تماماً ، كأنك في نيويورك كلها عمارات رازحة شهباء بنوافذها

الصغيرة الكثيرة وكأنها ألواح حجرية جسيمة مقلمة تملأ وجه السماء، فللمدينة طابع خاص وشخصية خاصة ، والمدينة حديثة التخطيط رغم أن عمرها من العصور الوسطى . ولا مكان فيها للفيلا أو للبيت الصغير لأنه لا مكان فيها لفرد مستقل عن الجماعة يبنى لنفسه بيتاً مستقلا عن الجماعة . وكنت من قبل أتوهم موسكو فى خيالى مدينة قاسية عابسة مظلمة كلها قباب كقباب الكرملين تراكمت عليها الغيوم الثقيلة المطيرة السوداء ، فإذا هى مدينة عصرية سمحة ودودتحب الزائرين وتعطيهم ما عندها بقلب سخى . قالوا تلك صورة موسكو ، بقيت لك مما قرأت من روايات دوستويفسكى أو نوادر عن إيفان الرهيب . أما موسكو الجديدة فهى بنت المجتمع الاشتراكى . وأحببت هذه المدينة منذ اليوم الأول رغم أنها لم تكن « جميلة » كروما أو باريس .

ثم بدأت أستكشف أشياء عن مدينتى . عضنى الجوع نحو العاشرة مساء فخرجت أبحث عن زاد فوجدت الشوارع مقفرة أو شبه مقفرة . قالوا لى فى الفندق إذا لم تسرع فسوف تنام على الطوى ، لأن كل المطاعم تطفىء أنوارها وتغلق أبوابها فى الحادية عشرة . قلت : ألا تسهرون فى موسكو ؟ فضحكوا ضحكة فيها تغامز وقالوا : كل السياح يسألون هذا السؤال . تقصد هل لدينا كاباريهات ؟عندنا نكتة تقول : استوقف سائح رجلا من موسكو وسأله : أين أقرب كاباريه ، فأجابه الرجل : فى هلسنكى . (وهلسنكى هذه عاصمة فنلندا !) ها ! ها ! ولكن هيا عجل . ستجد مطعماً قرب الميدان الأحمر . ومشيت نحو ربع ساعة

لا عمل لى إلا قراءة اللافتات التى لم أفهم منها شيئاً ، لأنها مكتوبة بالأبجدية السيريلية وليس بالأبجدية اللاتينية . وأخيراً قرأت لافتة تقول : PECTOPAH (الروس ينطقونها « رستوان » ويكتبونها « بكتوباه » بأبجديتهم) . وصعدت فى عمارة جسيمة وفى القاعة العظيمة وجدت نحو خمسمائة طاعم يأكلون ومغنية تغنى على نغمات أوركسترا رقصات أمريكية كلها شبيهة بالتويست ، وما هى بالتويست ، والراقصون كلهم من الروس ، كانت المغنية « تجود » التويست الأمريكى بمقاطع أوبرالية ثم تعود إلى الإيقاع السريع المنتظم ! وكان لهذا وقع غريب فى نفسى أحسست بأن الروس يريدون أن ينفتحوا للجاز الغربى ، ولكن منهج حياتهم الاجتماعية وبيئتهم النفسية الخاصة وربما طول عزلتهم لا تمكنهم من التعبير عن مشاعرهم بلغة الجاز .

وهكذا اكتشفت منذ ليلتى الأولى فى موسكو أن حياة الليل لا وجود لها فى موسكو ، وقس على ذلك بقية مدن الاتحاد السوفييتى . وليس فى موسكو كلها إلا بار واحد صغير بجوار الميدان الأحمر أعد للأمريكان وأضرابهم من السياح ، يسهر حتى الخامسة صباحاً ، وليس فيه طعام ولا موسيقى وإنما فيه الشراب حتى الصباح ولا تقبل فيه عملة إلا الدولار ، وبهذا يضمنون عدم تردد الروس عليه . ولعلها مجاملة من الحكومة الروسية لرجال الأعمال الأجانب الذين اعتادوا فى بلادهم السهر خارج بيوتهم .

أما الروس فيشربون فى بيوتهم ، ويندر أن ترى روسياً خارج داره بعد منتصف الليل ، فإذا رئى روسى يترنح من الشراب فى الطريق العام اعتبروا

عمله هذا مجلبة للعار على المجتمع الشيوعى . وفضحوه . وذكروا لى أن أستاذاً فى جامعة موسكو ضبط فى حالة سكر بين ، فبعد إجراء اللازم نحوه فى قسم البوليس (الدوش وغسيل الأمعاء) . التقطوا صورته وعلقوها فى الاوتوبيسات بأمر الحزب لينعظ الكافة بفضيحته . وفى موسكو الأوتوبيسات بلا كمسارية ، وكل راكب يقطع تذكرته بنفسه بعد الركوب ، فإن ضبطوا راكباً بالمخالفة صوروه وعلقوا صوره فى كل وسائل المواصلات وعلى الجدران . وهكذا يفعلون مع كل الجرائم الصغيرة التى لا يعاقب عليها القانون ، أو الانحرافات الخلقية التى ينفع فيها الردع الاجتماعى ولا تدخل تحت طائلة قانون العقوبات . كطالب يسرق أشياء زملائه أو عامل يهمل فى عمله وغير ذلك ، ومعنى هذا أن الحزب يقوم بدور « المطوعين » ، بطريقة أقل إيذاء لشخص الإنسان ، ولكن أكثر خدشا لكرامته . وهذا عندهم وسيلة ناجحة لتربية « الضمير » الاجتماعى ، وفى الغرب يسمون هذا « الخوف » الاجتماعى ولا يعلقون فى الأماكن العامة إلا صور عتاة المجرمين المطلوب القبض عليهم . وسواء سميت هذا تربية للضمير أو تربية للخوف فقد رأيت النتيجة ملموسة خلال أسبوعين من إقامتى فى أكبر مدينتين فى الاتحاد السوفييتى : موسكو ولننجراد . كل الناس تقريباً فى بيوتهم قبل منتصف الليل . لا سكارى فى الطريق العام إلا مانادر . كل الناس كمسارية نفسها فى وسائل النقل الخ . .

وأنا من المدرسة التى لا ترادف الضمير بالخوف ، بل أعتقد أن الضمير لا يصبح ضميراً حقًّا إلا إذا صفى من كل شائبة من شوائب

الخوف كحال القادر على الظلم ثم لا يظلم أو القادر على السرقة أو الزنا أو أى خطأ كان ثم لا يسرق ولا يزنى ولا يخطئ . أما الإرهاب الخلقى فلا يثمر الضمير و إنما يثمر العقد النفسية وقد جربه البيوريتان وجماعات الميثوديست فى الغرب من غلاة التطهر الدينى . فكان القس حين يجتمع برعيته فى الكنيسة يوم الأحد يزأر وسط المصلين : « وأنت يامسز كذا ماذا كنت تفعلين فى حديقة جارك فلان بعد منتصف الليل » فترتجف المرأة المسكينة تحت النظرات النارية المسددة إليها من كل جانب وتنهار وتنتحب وتعترف بذنبها أو « تنقد ذاتها » كما يقولون بلغة اليوم . ومع ذلك فقد انتابنى إحساس واضح بأن هذا ليس بالضبط ما يجرى فى الاتحاد السوفييتى . انتابنى الإحساس بأنى أقيم فى مجتمع « باتريستى » أو « أبوى » كبير لا يقوم على إرهاب السلطة للشعب ، ولكن يقوم على علاقة تشبه وصاية الأب أو الأم على الأبناء القصر

فكما تقول الأم لولدها : الساعة الآن التاسعة ، اشرب لبنك ونم فينصاع الولد لنصائحها بشعور غير شعور الخوف من الزجر أو بشعور مضاف إلى شعور الخوف من الزجر ، وهو شعور مزيج من الحب والولاء والثقة فى حكمة الأم وحرصها عليه ، وكما يقول الأب لابنه : لا تذهب هذا المساء إلى السينما أو إياك أن تعاكس بنت الجيران فينصاع الابن لوصاياه ، كذلك أحسست بأن استجابة الناس لتوجيهات أولى الأمر منهم شبيهة بطاعة البنين للآباء ، أساسها ليس مجرد الخوف من التأديب ولكن عواطف عديدة مركبة مضافة إلى ذلك . وربما كان

هذا مصدر خطأ الغرب فى فهم منابع السلوك الاجتماعى الروسى والطريقة الروسية فى التماسك الاجتماعى والسياسى بل ومنهج الروس فى التفكير الاجتماعى . فالغرب يعزو كل ما يراه من طاعة وانصياع وتماثل أو « كونفورمية » فى الفكر الروسى والسلوك الروسى إلى مجرد عامل الخوف من السلطة ، والأرجح عندى أن الشعور بأبوة السلطة هو الأساس الأقوى ، حتى فى عهد الإرهاب الاستالينى . ومن الآباء من يربط أولاده فى عمود السرير ولا يتركهم إلا بعد أن تتحطم العصا على ظهورهم بدافع الأبوة و بقصد التنشئة الصالحة .

والذى هدانى إلى هذا التفكير هو ما لاحظته فى مناقشاتى مع عشرات من الروس الذين التقيت بهم ، من أنه لا أثر للتزمت الأخلاقى بالمعنى الفكتورى أو البيوريتانى عندهم ، ولا أثر لتأصيل الفضيلة فى الدين ، فالماركسية قد جعلتهم علمانيين مائة فى المائة وصفتهم من الإيمان بالغيبيات التقليدية . فاستقامتهم إذن ليس منبعها نوازع الدين أو أوامره أو نواهيه ، وهم قد تخففوا فى نظرتهم للجنس أو الشهوات عامة من فكرة « المحرمات »! أو فكرة « الخطيئة » التى تغرسها المسيحية وكل أديان التوحيد فى نفوس المؤمنين . والماركسية ذاتها ليس فيها مجموعة من القوانين الأخلاقية يمكن أن تحل محل الأخلاق الدينية . فالذى ظهر محل الأخلاق الدينية فى روسيا بعد « الهوجة » الشيوعية الأولى هو لائحة غير مكتوبة بالحقوق والواجبات الاجتماعية التى ترسبت فى وجدان الروس فاتخذت قوة القوانين الأخلاقية . وقد كان لستالين رغم

عيوبه الكثيرة فضل كبير فى إقامة مجتمعه على الأخلاق الجديدة ، وأساسها تقديس العمل وتقديس الوطن وتقديس المجتمع .

ولم أجد أحداً يتململ من نظام « بيتلك . . بيتلك » قبل الساعة العاشرة . بل على العكس من ذلك كنت أجد دفاعاً منطقيًّا هادئاً من كل من حدثتهم فى هذا الموضوع . والمنطق بسيط وواضح : من يسهر فى الليل يتراخى فى النهار . ونحن نريد أن نكون مجتمعاً منتجاً ، ولذا فنحن لا نسهر فى الليل . كان هذا الكلام يقال لى فأجده مقنعاً وغير مقنع ، وكنت أجده يذكر بنصائح الآباء للأبناء . ولكنى كنت أتساءل : وما بال شعوب الغرب تسهر فى الليل وتعمل فى النهار ؟ بيكاديللى ومونمارتر شعلة من ضياء فى الثانية صباحاً ورغم ذلك لا أحسب الإنجليز أو الفرنسيين أقل إنتاجاً من الروس . ووجدت تفسيراً آخر : حياة الليل معناها حياة المتعة ، وحياة المتعة مهما كانت بريئة معناها الإنفاق عن سعة . وفتح عيون الناس على المتعة يدفعهم إلى البحث عن الدخل الواسع بالمشروع وبغير المشروع أو يدفعهم إلى القلق والسخط إذا لم يجدوا إليه سبيلا . فليغلق إذن هذا الباب بإلغاء حياة الليل . وهذه هى الفضائل الاقتصادية . ليس فيها جديد ، فهى الفضائل الممارسة فى كل أسرة من الأسر البورجوازية الصغيرة التى تندد بكل متعة تبدد دخل الأسرة المتقشفة على الاستهلاك بدل الاستثمار . وقد كانت هذه هى الفضائل اللازمة للشعب الروسى الجاهل الفقير المستعبد تحت القيصرية اللاهية السفيهة لكى يتحول إلى شعب متعلم يعيش حياة مستورة

محررة من ذل الفقراء وخنوع الجياع .

وكان على أن أواجه يومى التالى (الأحد) فى موسكو وحيداً قبل أن أتمكن من الاتصال باتحاد الكتاب فى يوم الاثنين ليرسلوا إلى مترجماً أو مرافقاً ، وما أدراك ما يوم الأحد فى بلاد لا تعرف لغتها ولا أسماء معالمها . وتنبأت بأحد مقفر ضائع أقضيه وحدى فى غرفتى لا أرى شيئاً ، فإن خرجت فلخطوات حتى لا أتوه . ولكن حظى كان خيراً مما توقعت .

دق جرس تليفونى وبدأ هذا الحوار الغريب . امرأة تقول بالروسية أى كلام ، افتراضاً « خراشو خراشو خراشو » . وأجبت بالفرنسية أنا كذا واسمى كذا وصفتى كذا . أتفهمين الفرنسية ؟ .. أجابت بفرنسية متعثرة : « قليلا . . أنا أسأل عن صديقتى . سونيا » قلت : « آسف ياسيدتى لا بد أنها رحلت قبل مجيئى » ، قالت : « خسارة . كنا اتفقنا مع صديقتى اوس أن نخرج بالأطفال للجنائن » . ثم ضحكت . قلت : « آسف ياسيدتى ، ولكن صاحبتك غير موجودة » ثم لمع فى عقلى خاطر عملى غريب . مادامت هناك سيدة تريد أن تتسكع يوم الأحد فلماذا لا تتسكع معى فى المتاحف بدلا من الجنائن . قلت : « اسمعى . مادمت تريدين النزهة فأنا غريب هنا وأريد أن أزور المتاحف ولا أجد من يساعدنى على لغتكم . فهل تستطيعين مساعدتى ؟ » وضحكت ضحكة طويلة كأنما كلامى دغدغها . قالت : « توريست ؟ » (أى سائح) ؟ ولم أجد داعيا لتفسير الأمور فقلت : « نعم سائح مصرى » وعادت إلى ضحكتها فقد كان الموقف مسليا . قالت : « كم عمرك ؟ » قلت : « ٥٦ » . قالت :

« هل أنت أبيض أو أسود ؟ » وبدأت أتوجس . قلت : « متوسط » . قالت : « هل أنت طويل أو قصير ؟ » وضحكنا معاً . وقلت : « متوسط » قالت : « آتى مع صديقتى لوس والأطفال » . قلت : « عظيم . متى ؟ » أجابت : « الساعة الواحدة . أنا إسمى أوبجا » . قلت : « تعالى فى الواحدة واطلبينى من صالون الهوتيل بالتليفون أنزل فوراً » . قالت : « كلا ، سننتظرك خارج اللوكاندة » قلت : « كما تريدين . ولكنى لا أعرف شكلك » فضحكت وقالت ، « أنا ألبس باوزة زرقاء . وستعرفنى بالأطفال » قلت : «اتفقنا». وانتهت هذه المكالمة الغريبة . وخف إلىّ صباح الأحد الكاتب رومانسييف الموظف باتحاد الكتاب . قصصت عليه قصة أوبجا وحديثها التليفونى . فضحك وقال : « بداية لا بأس بها . » ويبدو أن ذهنه انصرف إلى أشياء أخرى وهو معذور فى ذلك . قلت : « هيا بنا ننتظر خارج الفندق فالساعة الآن الواحدة إلا دقيقتين » .

وخرجنا ووجدنا سيدتين متوسطتين فى الجمال فى نحو الخامسة والثلاثين . ومعهما ثلاث بنات بين السابعة والعاشرة وعرفت أوبجا من بلوزتها الزرقاء . وتعارفنا فى لحظة .

ودعوت الجميع للغداء معى فى مطعم فندق منسك ، قبل أن نبدأ التجوال . وعرفت أن أوبجا مهندسة بناء سفن وأن صاحبتها خبيرة اقتصاد وكان حديثنا بثلاث لغات : مع رومانسييف بالإنجليزية ومع السيدتين بالفرنسية . وكانت تتخلله مناقشات طويلة باللغة الروسية بين أوبجا



وروماتسييف . ثم لاحظت الارتباك على وجه أولجا فسألت رومانسييف : « عم تتحدثان ؟ » قال : « كانت تعتذر لى عن تعارفكما الغريب بأنها حين عرفت أنك سائح غريب ظنت أنها تقدم خدمة وطنية بمساعدتك » . وضحكت فى استياء لأنى لم أستسغ هذا النوع من الكلام . ولا أعرف إن كان رومانسييف قد أحرجها بقلة ذوق فعاتبها على هذا الأسلوب فى التعارف بالغرباء أم أنها أحست بالحرج من وجوده فذهبت تعتذر من تلقاء نفسها بعد أن أدركت صفتى وعرفت أنه مندوب اتحاد الكتاب . والأمر سيان فى الحالين ، وهو وضع امرأة تخجل من سوء تصرفها وتقدم تفسيراً عنه للغرباء ، وكأنها مسئولة أمام رومانسييف ، وكأنه يمثل المجتمع ويشير إليها بأصبع الاتهام رغم أنه لا تربطها به حتى أوهى الروابط . ثم هذا التبجح فى « خدمة الوطن » كأنما مجرد الاستطلاع الإنسانى العادى الذى يدفع الناس للتعرف بالناس أو البر بالغرباء فى حد ذاته جريمة . لو أن هذا جرى فى إنجلترا أو فرنسا أو إيطاليا لما اجترأ أحد على التطفل على السلوك الشخصى لأحد ، ولما أحس أحد بأن فى مثل هذا الموقف ما يستوجب الاعتذار .

وأنا أذكر هذا الحادث التافه لأبين مبلغ سطوة « الضمير » الاجتماعى فى روسيا السوفييتية . كل يتصرف وكأن ألف عين تراقبه حتى فى أخص خصوصياته . أقول الضمير الاجتماعى لا الضمير الأخلاقى ، فحيث لا تزمت ولا إحساس بالخطيئة نحن خارج نطاق الأخلاق . أذكره لأبين للناس أن المجتمع الروسى السوفييتى مجتمع فضيلة ومكارم

أخلاق على عكس ما كان يشيع عنه أعداؤه المضللون .

وصحبتنى أولجا ومجموعتها إلى متحف قصر الأمير يوسوبوف خارج موسكو وسط غابة ارخانجلسكويا .

دخلت متحفاً صغيراً ثم غابة كبيرة تبلغ نحو عشرين فداناً . وقبل أن أدخل المتحف وجدت نفسى ألبس فوق حذائى كبقية الداخلين أخفافاً من كاوتشوك ، فأحسست برهبة المصلى يخلع نعله قبل الصلاة . وكان المقصود حماية باركيه القصر من آلاف بل ملايين الأقدام ، وربما منع التزييق والكركبة ليتأمل الناس فى صمت وجلال . ووجدت نفسى بين كنوز من أروع نفائس أوربا فى التصوير والنحت ومن كل مدارس الفن ، جمعها هذا الأمير الخطير الذى اشتهر اسمه فى التاريخ بأنه قاتل راسبوتين الجبار . كان يوسوبوف من أوسع أرستقراطيي روسيا ثراء أيام القيصرية وكانت له ضياع لا حصر لها : خمسة قصور أو ستة مبثوثة فى أرجاء روسيا ، فاستولى عليها البلاشفة ، وحولوها إلى متاحف ومرافق عامة : نهب الفلاحين ليجمع كنوز الفن على تقاليد الأرستقراطية الأصيلة فظلم بلاده وخدمها فى آن واحد .

ولم أر أولجا بعد ذلك المساء . قالت : غدا يتسلمنى اتحاد الكتاب . شكراً من القلب ووداعاً .

أربعة عشر يوماً قضيتها فى روسيا بين موسكو ولننجراد وبعض الريف . لم أر فيها متعطلا متسكعاً أو شحاذا أو رجلا أو امرأة فى أسمال أو بغيًّا تنساب بين مصابيح الشارع . ولا شك أن هناك نماذج

من هؤلاء وأولئك ولكنها نادرة لا تراها إلا العين المترصدة ولم أر إلا مخموراً واحداً رغم شهرة الروس فى قربعة الفودكا . أربعة عشر يوماً قضيتها فى روسيا ونظمت فيها مئات المواعيد للقاءاتى وتحركاتى فلم يحدث قط أن اختلت المواعيد واو دقيقة واحدة . يقولون فى الثامنة أو العاشرة فيتم المطلوب فى الثامنة أو العاشرة . ولم أر إلا (ميني جيب) واحدة ولم أر شابا واحداً من طراز الهيبيز . ولم أر رجلا واحداً أنيقاً أو امرأة واحدة أنيقة ، ولكنى رأيت ملايين الناس ، حتى الخدم وأفقر الفقراء فى ملابس سوية نظيفة وسط لا رثاثة فيها ولا هندام .



الفصل الخامس

رحلة فى عقل ساشاسخاروف

جاءنى رجل وقال بالفرنسية : « اسمى تشيزنوكوف من اتحاد الكتاب القسم الإفريقى ، جئت فى الموعد المحدد لأصطحبك إلى الاتحاد لتلتقى بالمسئولين وترسم معهم برنامج زيارتك للاتحاد السوفييتى . لقد كنت المترجم المعين لمرافقة الدكتور محمد مندور منذ أكثر من عشر سنوات . كنت أحب أن أكون مرافقك ولكنهم عينوا لك مرافقاً آخر . ومع ذلك فربما جئت لمساعدتك فى بعض المراحل . سيخصصون لك سيارة لانتقالاتك أو ما يقوم مقامها » .

وكان ذكر الدكتور مندور كافيا لإزالة الحواجز بينى وبينه . وفى الطريق طفقنا نتبادل الذكريات عن الدكتور مندور ، وخيل إلىّ أن تشيزنوكوف خير من يكتب فصلا اسمه « محمد مندور فى الاتحاد السوفييتى » تنشره مجلة « الشرق » التى رأس تحريرها زمنا وفاء لذكراه ثم اكتشفت أن تشيزنوكوف يعرف كل أدبائنا الذين زاروا الاتحاد السوفييتى معرفة شخصية وقرأت فى عينيه المداعبتين أن له آراء فيهم وإن لم يفصح لى بشىء منها .

وبلغنا اتحاد الكتاب. قال: هذا القصر كان قصر الكونت سواوجوب فصادرته الدولة فى ثورة ١٩١٧. أتذكر شخصية الكونت روستوف فى «الحرب والسلام» لتولستوى؟ قلت: نعم؟ قال: سواوجوب هو النموذج الحى الذى بنى عليه تولستوى شخصية الكونت روستوف. نحن لن نذهب إلى القصر ولكن إلى هذا الجناح. وأشار إلى مبنى قمىء يشبه جزءاً من كلية الفنون التطبيقية عندنا إلى اليسار: «هنا إدارة العلاقات الثقافية الخارجية. ستقابل رئيسها الرفيق كوسوروكوف، والرفيق تكاتشيف رئيس القسم الأفروأسيوى فيها. هذا المبنى كان اسطبلات القصر».

وسألت تشيزنوكوف: «هل المستشرقة يلينا ستيفانوفنا تعمل معكم؟ أنا أحب أن أقابلها فقد تعرفت بها فى القاهرة وأحب أن أراها». قال: «لا أظن أنك تستطيع أن تراها. فأمها مريضة فى المستشفى وهى تلازمها ثم إنها فى أجازة. وقفزت إلى ذاكرتى كلمات كنت قد سمعتها فى القاهرة منذ سنة، إن ستيفانوفا مغضوب عليها من اتحاد الكتاب. وتأملت كلمات تشيزنوكوف فوجدتها غير مقنعة فكلنا لنا أقارب فى المستشفيات ولكننا لا نلازمهم ٢٤ ساعة فى اليوم.. أعدت فى إصرار: «أرجو أن أراها، فأنا فى حياتى التقيت بعشرات المستشرقين، ولكنى لم اجد منهم من يتقن لغتنا الدارجة بلهجتها غير يلينا ستيفانوفا وصديقى الإنجليزى دنيس جونسون ديفيز، وصديقى الهولندى يان بروخمان الأستاذ بجامعة لايدن». قال: سنرى.

والتقيت بالمسئولين فى اتحاد الكتاب وتداولنا فى برنامج زيارتى

وكانت المشكلة أننا فى عز الصيف وأكثر الكتاب خارج موسكو . هكذا قالوا . طلبت مقابلة الشاعر يوفتيشنكو والشاعرة بيلا أحمدو لينا وغيرهما فقالوا هم جميعاً فى المصايف أو الأرياف . قلت : مستحيل أن تقتصر زيارتى على مقابلة المبانى والآثار والأحجار . أنا أريد أن ألتقى بالبشر . قالوا : هل لك اهتمامات خاصة ؟ قلت . أريد أن أدرس حالة المسرح الروسى . وبالذات من الناحية التنظيمية كذلك أريد أن ألتقى ببعض خبراء التعليم لأعرف شيئاً عن التعليم فى بلادكم ، وأن ألتقى ببعض الشبان : وببعض المهتمين بالدراسات الشرقية . قالوا : سنرتب لك لقاء مع بعض أساتذة معهد الماركسية اللينينية ومع بعض الشبان من محررى مجلة « يوناست » (الشباب) ومع الرفيق جروموف المختص فى المسرح . ونقترح أيضاً أن تزور عزبة تولستوى فى ياسنيا بوليانا قبل سفرك إلى لينينجراد ، وأن تحاضرنا فى اتحاد الكتاب عن الأدب المصرى الحديث . . قلت : كل هذا جميل ولكن . . أين الأدباء ؟ قالوا : سنحاول . وأحسست أن زيارتى ستكون على غير ما كنت أرجو .

وتذكرت يابينا ستيفانوفا ، وطلبت مقابلتها ، فأعادوا على نفس الكلام الذى سمعته من تشيزوكوف . وانتابنى شىء من الضيق . قلت : « لست أفهم ، هل المريضة فى المستشفى أمها أم هى ؟ » . قلتها بطريقة تعنى : أننا نقرأ عنكم أنكم تضعون بعض الأدباء المغضوب عليهم فى المستشفيات على طريقة الروائيين دانييل وسنيافسكى . وأضفت : « أنا

أفهم أن تقول هى إنها لا تستطيع مقابلتى أما أن يقول هذا غيرها فغير مفهوم . أعطونى رقم تليفونها » . ولم تحدث كلماتى أى أثر فقد كانت الوجوه كالأقنعة . وكرروا فى هدوء نفس العبارات **الأولى** ، ونسوا رقم التليفون .

وقبل أن أنصرف عرفونى بشاب ضئيل الجسم طولا وعرضاً ممتقع الوجه خال من الوسامة فى الثانية والعشرين من عمره ، وقالوا : هذا ساشا . . ساشا سخاروف . سيكون مترجمك أثناء إقامتك ، وهو يعرف الإنجليزية قلت : تشرفنا وشكراً ، وخرجت أتوكأ على مرافقى .

فيما بعد عرفت أن «ساشا» هو اسم التدليل الروسى لاسم الكساندر وان « سخاروف » معناها « السكرى » أو أى شىء متصل بالسكر . وبعد ذلك اكتشفت أن ساشا هذا من أثمن الأشياء التى عرفتها فى الاتحاد السوفييتى ، فقد كان فتى شديد الذكاء يفهم ما يلقى إليه من كلام مهما كان مغلفاً . وكان يتقن الإنجليزية إتقان مختص قليل الأخطاء رغم أنه كان فى السنة النهائية بقسم اللغة الإنجليزية بجامعة موسكو ، وكان يعرف عن الأدب ما يكفى ، ثم اختار أن يتخصص فى فرع من اللغويات الإنجليزية حديث جدا غايته تركيز اللغة فى بوتقة بحيث تصلح لتغذية العقول الأليكترونية بالمعلومات . وكان يعرف الكثير عن بلاده وعن العالم الخارجى ويتمتع بدرجة عالية من الفضول العقلى ومن ملكة النقد والتحليل . وكان تحت مظهره الهادىء يحمل شحنة عاطفية ضخمة نجح فى اخفائها تحت سطح من الدعابة والتظاهر بالاستخفاف ، كما نجح

فى إخفاء إرادته الحديدية وقدرته على تحمل الشقاء بنفس المنهج .

ومنذ تعارفنا فى اليوم الأول سرى بيننا سيال كهربائى غريب كذلك السيال الذى يسرى بين الآباء والأبناء ، وتمنيت أن يكون لى ولد مثله فأنا أعيش من غير ولد وكأنى أوليس يبحث عن تليماك . عرفت منه مصادفة أنه ابن زنا ، لا ترتعب ، فى الاتحاد السوفييتى تفقد هذه العبارة مدلولها البشع عندنا . ولم يكن هناك أى أثر من آثار الخجل الاجتماعى فى كلامه .

قلت : كيف أتيح لك أن تتقن الإنجليزية المثقفة على هذا الوجه . هل هذا مستواكم فى الجامعة ؟ قال ببساطة : أمى التى ربتنى بمفردها كانت مدرسة لغة إنجليزية وقد علمتنى الإنجليزية منذ أن كنت صبيًّا ، لقد ماتت فى العام الماضى وأنا أحياناً أفتقدها . قالها ساهماً ففهمت أن أغواره تقول : وأنا أفتقدها طول الوقت ، ثم أضاف : لقد كانت امرأة مجاهدة مثابرة . وحسبت أنى بإزاء قصة كلاسيكية لولد نشأ يتيماً ، فسألته هل مات أبوك وأنت صغير ؟ أجاب : كلا . أبى لا يزال حيًّا . وهو متزوج وله أولاد . قلت : طلاق ؟ عفوا ، أنا لا أريد أن أتطفل .. أجاب بهدوء : لا . أبى ترك أمى ، وهى حامل بى . أراد أن يتزوجها بعد أن حملت ولكنها طردته . كانت تحبه ولكنها أحست أنه لم يكن يحبها ، ولهذا رفضت أن تتزوج لمجرد استيفاء الشكل أو من باب قبول الاحسان ، ثم تعيش بعد ذلك معذبة مع زوج لا يحبها . وتذكرت أنى التقيت منذ ثلاثين عاماً بامرأة أخرى من هذا الطراز هى شخصية استر ووترز فى

رواية جورج مور التى تحمل هذا الاسم . فقد فعلت إستر بصاحبها المتلاف ولم عين ما فعلته أم ساشا بالرفيق سخاروف ، ولكن استر كانت من البيوريتان ، من الأخوات البلموس ، ونحن هنا فى عالم الاشتراكية العلمية . يالنا من القلب الإنسانى ومن الشخصية الإنسانية ! هذه آلام ساشا الدفينة التى كان يخفيها تحت دعاباته العقلية الحادثة . وكان مفتاح شخصيته الانطوائية : أى شىء إلا أن يظهر ضعفك أمام الناس . ومادمنا فى موسكو فلنبدأ ببداية كل الأشياء : بناء على طلبى بدأنا البرنامج بزيارة ضريح لينين فى سفح قصر الكرملين . جاءنى ساشا فى الثامنة وأفطرنا معاً ثم ركبنا إلى الميدان الأحمر . وكان أمامنا طابور من البشر أزواجاً أزواجا طوله نحو كيلومتر (أحياناً يبلغ الطابور ثلاثة كيلومترات) والطابور يتحرك فى بطء بطىء كأنما يسير فى موكب جنائزى . وأبرز ساشا أوراقاً للحراس عند مدخل الميدان الأحمر فتركونا ندخل متجاوزين دورنا فى الطابور ومن باب اللياقة اندمجنا فى الطابور مرة أخرى على مبعدة مائتى متر من الضريح حتى لا نمتهن هذا الراقد المسجى فنؤم مثواه كما يؤم السياح برج إيفيل. وكان واضحاً أن آلاف الحجاج وأغلبهم من الروس ، يأتون من أطراف الاتحاد السوفييتى ليؤدوا فريضة الذكرى لهذا الرجل العظيم . وكان على الوجوه خشوع . حتى بلغنا مدخل الضريح برخامه الأسود والأحمر ونفذنا بين الحارسين المتواجهين فى المدخل كأنهما تمثالان لجنديين من الشمع لا يختلج لهما رمش ولا يتحرك إنسان عين . . ونزلنا الدرج فقادنا إلى ممر تحت الأرض

غير عميق ، ثم أفضى بنا الممر إلى المرقد الأكبر حيث تابوت من زجاج رقد فى داخله جثمان فلاديمير ايليتش لينين المحنط فى كامل ثيابه وقد أضاء محياه نور خفى دائم ، فبدا على غير ما تبدو مومياواتنا السوداء ، أبيض لامعاً مشرباً بالحمرة بأحماض غير أحماض الفراعنة ، وعلى شفتيه ابتسامة الغبطة تحس ولا تحس ؛ وطوفنا بالجثمان مرة واحدة حتى قادنا الطواف إلى دهليز مقابل انتهى بنا إلى الدرج الذى أفضى بنا إلى الخلاء من جديد عند سفح الكرملين حيث وجدنا أنفسنا نمر بين مائة قبر كلها رخام أسود وكلها على مستوى سطح الأرض يحفها عشب دائم الخضرة وكلها منقوشة بأسماء زعماء الثورة البلشفية . وفى المقدمة نحو عشرة تماثيل نصفية لزعماء وقواد لا يكفى لتخليدهم رخام القبور ميزت بينهم كالينين . وفوروشيلوف وفيشنسكى وستالين وجاجارين . وبطول جدار الكرملين مائة لوحة رخامية مثبتة نقشت عليها أسماء أبطال الثورة البلشفية ومن وراء هذه الألواح وضع رماد أجداثهم . وقرأت بينهم اسم كروبسكايا زوجة لينين . وكانت هذه كعبة الشيوعيين .

وأنا لا أعرف إن كان الروس يصلون أم لا يصلون ، ولكن الجو الدينى قد نشر على المكان ظلالة من الرهبوت . وآلاف الحجيج يأتون كل صباح إلى مقام لينين وكأنه مزار ولى عظيم من أولياء الله الصالحين فى بلاد الكاثوليك أو المسلمين أو أقباط مرقس الرسول . ولا تحس بأن الدولة تعبىء أحداً للمزار ولا تحس بأن الحزب يجيش الجماعات لأداء الطقوس ، ولا تحس بأن ناظر مدرسة كذا الثانوية يقود أبناءه فى رحلة

استطلاع أو لتقديم الفروض . إنما كل من هناك ساع بقدميه وباختياره مستجيب لنداء داخلي كالهاتف الديني ، وتميز بينهم الفلاحين الذين نزلوا المدينة لأول مرة ، كما نفعل نحن بالسيدة زينب وسيدنا الحسين . لقد انتصرت الميتافيزيقا في أرض اللاميتافيزيقا ، ولم أجد لهذه الظاهرة تفسيراً إلا أن الشعب الروسي الذي اشتهر بعبادة قديسيه قد حافظ على العبادة وغير أسماء القديسين . وفي الشوارع والميادين والعمائر العامة والخاصة صور لينين بكل حجم وبغير عدد ، أيقونات عصرية مبثوثة في كل مكان . إن للماركسية ملامح « الدين » الجديد . ومع ذلك فقد أكبرت هذا الشعب الوفي لذكرى منتشله من قاع الجحيم — هكذا استقر في روع الروس من أبسط البسطاء إلى أعقد المثقفين أن لينين هو أبوهم جسداً وروحاً . وكانت هناك فتاة تكفكف دمعها كمن فقد أباه الليلة البارحة . فما أعظم الولاء لذكرى مصلح عظيم .

وكنت كلما ناقشت ساشا في موضوع ، ذكر لي آية من لينين . نتكلم عن الاستعمار والصهيونية أو عن الحرب والسلام أو عن الكولخوز والسوفخوز أو عن الحب أو عن التكنولوجيا أو عن التعليم أو عن المساكن أو عن الفنون أو عن الملوخية أو عن المهلبية فيبدأ ساشا كلامه بقوله : « لينين قال . . . » وأحياناً يذكر ماركس ، فالحقيقة الكبرى في الاتحاد السوفييتي هي لينين قبل ماركس ، أو قل لينين للشعب وماركس للمثقفين ، رغم أنهم رسميا يعترفون في كل مكان بأن ماركس هو مؤسس الشيوعية العظيم ، ومقابل كل صورة رأيتها لكارل ماركس رأيت عشرا

للينين. أما انجلز فنادراً ما ورد ذكره أمامى . ولم يكن ساشا وحده فى ذلك ، فقد كان كل من قابلت يتحدث على هذا النحو ويعنعن فى كلامه عن ماركس وعن لينين ، وكنت أقبل هذا من الآخرين لأنى كنت أناقشهم ساعة أو ساعتين أو ثلاثا فى اليوم، أما من ساشا الذى كان يلازمنى كظلى ، فبعد فترة أصبحت أجد هذه الطريقة مستفزة ، وبعد أربعة أيام لم أعد أحتمل فقلت لساشا : « ساشا يا بنى ، اسمع جيداً . أنا قرأت كل ماركس وكل انجلز ونصف لينين قبل أن تولد أنت بعشر سنوات . وأنا الآن لا أناقش لينين ولكن أناقش ساشا ساخاروف . أنت طبعاً تريد أن تقنعنى لا أن تثبت لى أنك تلميذ نجيب أجاد حفظ دروسه الماركسية ، فإذا أردت أن تتبنى رأيا للينين فهذا من حقك . ولكن أرجو أن تعبر عنه بلغتك الخاصة وأن تنسبه لنفسك وكأنك صاحبه لأنك مقتنع به . صدقنى أن نسبة أى رأى للينين لن يزيده عندى قوة أكثر من نسبته لساشا لأنى أناقش ساشا ولا أناقش لينين» . ثم أردت إيلامه قليلا حتى لا ينسى فى المستقبل ، وكنت طبعاً أعرف أن تفكيره مصفى من الغيبيات بسبب إيمانه بالمادية الجدلية . قلت : « أنا لا أعرف كيف أصور لك وقع كلامك فى نفس سامعك . أنت طبعاً غير مؤمن بالمسيحية ، وهذا من حقك ، فتصور أنك تناقش رجلا مؤمنا بها إيمانك بالماركسية ، وكلما جادلته فى شىء أجابك : قال بطرس الرسول أو قال بولس الرسول : هى مقدسات عنده ولكنها لا تعنى شيئاً بالنسبة لك . فماذا يكون وقع كلامه فى نفسك ؟ ألا ترى أنكم بهذه الطريقة تحولون الماركسية إلى دين ؟ إذا

أردت أن تناقش ، فناقش بالمنطق وفى حدود الواقع المعروف . »

وأحس ساشا بالخجل ولم يعد بعد ذلك إلى العنعنة .

وكان ساشا يجيئني كل يوم في الثامنة صباحاً ولا يتركني حتى يطمئن إلى أني دخلت سريري نحو العاشرة مساء . ولا أظن أنه كان مكافأ بذلك من اتحاد الكتاب ، فيوم العمل عندهم سبع ساعات . ولكن يبدو أنه انجذب نحوي بقوة كما انجذبت نحوه بقوة ، فأصبح لا يستغني عن صحبتي كما أصبحت لا أستغني عن صحبته . وكنت أحياناً أحب أن أخلو إلى نفسي وأن أسترد حريتي ولو لساعات قليلة فلا أستطيع التخلص منه دون جرح لشعوره . وكنت أحياناً أتميز غيظاً وأكاد أحس أنه معين لرصد تحركاتي ومعرفة كل مقابلاتي وقراءة كل أفكاري . وكان الفتى حساساً يشعر بالحرج من هذه الملازمة فيتطوع بقوله : « إذا أردت أن تنفرد بنفسك انصرفت وعدت إليك غداً » ؛ ولكنه كان يقولها بطريقة تعني : « أرجوك ألا تأمرني بالانصراف لأني أحب البقاء معك » . فأجيب صادقاً : « لا . ابق معي ياساشا . فماذا أفعل بحريتي مادمت لا أفهم لغة بلادكم ؟ أنت على الأقل تمثل صلتي بالعالم الخارجي ، ثم إن صحبتك ممتعة ونافعة معاً » . لقد أصبحت كالطفل ، أخاف أن أترك وحدي .

ثم قلت لساشا : الوقت يمضي ، وبعد خمسة أيام نسافر إلى لينينجراد أرجو أن تبلغ اتحاد الكتاب شيئين . أولا أني مهتم اهتماماً خاصاً بمقابلة

يلينا ستيفانوفا ، وأنى أصر على مقابلة عدد من الأدباء الروس قبل عودتى إلى مصر . أنا لا أريد أن أحرجهم فأطلب مقابلة الروائى سولجنيتسين الذى سمعت أن إقامته محددة فى بيته الريفى ولا مقابلة دانييل وسنيافسكى وهما فى « المستشفى » كما يقولون ، ولكن اعطهم هذه القائمة غير يفتوشنكو وبيلا أحمد ولينا ونجيبيين الذين يقابلون كل الناس : أريد أن أقابل أندريا فوشنسنسكى وجريجورى بكلانوف وجريباتشوف وكوتشيتوف وكو جيفنيكوف ثم طبعاً صديقى الطيب سوفرونوف رئيس تحرير مجلة « أوجانيوك » . إن أكثر هؤلاء من الأدباء المحافظين المتمشين مع « الخط » ولا أظن أن هناك ضيراً فى ترتيب لقاءات معهم .

وكنت أسمع عن حال الأدب الروسى الراهن أنها حال لا تسر وأتتبع ما يجرى فى مجلاتهم الأدبية من تقلبات ، فربما كانت الصراعات داخل المجلات الأدبية السوفييتية هى المؤشر الحقيقى لاتجاهات الأدب الروسى الحديث . وقد كانت مجلة « نووى مير » Nowe Meer « العالم الجديد » ، التى صدرت قبيل الحرب العالمية الثانية هى محور الحياة الثقافية فى الاتحاد السوفيتى ، وكانت أكثر تقدمية وتفتحاً وإيماناً برسالة الثقافة من كل المجلات الأدبية الأخرى . وكان يتبادل رياسة تحريرها الروائى الكبير كونستنتين سيمونوف Simonov والشاعر الكبير تفاردوفسكى Tvardo wski ، وهو شاعر محافظ ملتهب الوطنية ملتزم بالخط الماركسى الحزبى ، اشتهر قبل الحرب وعمره الآن نحو الستين ، وقد حارب فى الجبهة وله قصائد مأثورة فى الوطنية كتبها أيام الحرب ، ورواية

اسمها فاسيلى توركين » تصف أمجاد جندى روسى بطل بهذا الاسم ، وهو متفان فى تمجيد الروح الروسية . وكانوا كلما غضبوا على تفاردوفسكى أسندوا رياسة تحرير « نووى مير » إلى سيمونوف .

وفى السنتين الأخيرتين بدأت مجلة « نووى مير » تواجه متاعب حقيقية فاتهمت بالانحراف ولا سيما فيما تنشر من مقالات تحليلية خاصة بتقييم التاريخ ، كما اتهمت بالانحراف لأنها دأبت على نشر القصص المتشائمة ، وقد غضبوا عليه ، وحين أقول غضبوا عليه أقصد غضب عليه القسم الثقافى داخل اللجنة المركزية للحزب الشيوعى الروسى ، وطلبوا إليه الاستقالة لكنه رفض وطلب إليهم أن يقيلوه إذا شاءوا ، فلجئوا إلى ترتيب جديد أكره الشاعر الكبير تفاردوفسكى على الاستقالة ، وهو تغيير مجلس تحرير مجلة « نووى مير » مع إبقائه رئيساً للتحرير احتراماً لمقامه . ولما لم تجد اعتراضاته قدم استقالته ، ومنحوه وساماً رفيعاً من باب التكريم الأدبى ، وهو الآن يعيش معتكفاً فى بيته الريفى مركوناً على الرف . وقد سمعت أنه رجل مغرور يعتبر نفسه الأب الروحى للمثقفين اليساريين الروس .

أما مجلة « الاتحاد السوفييتى » فرئيس تحريرها هو الشاعر جريباتشوف Gribatchov وهو رجل متزمت جامد التفكير يسير على الخط الشيوعى التقليدى الأورثوذكسى الذى لا مجال فيه للاجتهادات الجديدة ، ويقال عنه إنه فى داخل الإطار الشيوعى يمينى متطرف متمسك بالمبادئ الأولى على حرفيتها ، وإنه سفاح أدبى يضرب أصحاب الأفكار الجديدة بقسوة

لا ترحم . ولكنه رغم جموده يتمتع بسمعة الكاتب الشريف الخالى من الانتهازية .

أما مجلة « زناميا » (الراية) فهى مجلة معتدلة اتجاها . وسط بين المحافظين والمجددين من الشيوعيين الروس . ورئيس تحريرها هو كوجيفنيكوف Kozevnikov وقد تخصصت هذه المجلة فى نشر قصص الحرب وأدبها بصفة عامة . وقد تعود الروائى الكبير كونستانتين سيمونوف أن ينشر فيها رواياته .

وأخيراً فهناك مجلة « أكتوبر » التى يرأس تحريرها الروائى كوتشيتوف Kotchetov الذى اشتهر بروايته السياسية التى يندد فيها بالمثقفين الروس ويصورهم فى صورة المعادين للسلطة السوفيتية الموالين للغرب . وعنده أن الشيوعى الروسى المخلص هو « العامل » الذى يرفض الثقافة الغربية . وقد أصدر كوتشيتوف هذا منذ شهور رواية اسمها « عاوز إيه بقى ؟ » يهاجم فيها مجلة « نووى مير » والمثقفين اليساريين فى روسيا ، وبطل هذه الرواية رسم على نموذج الشيوعى الإيطالى فيتوريو سترادا الذى تعلم فى الاتحاد السوفييتى وتزوج من روسية ثم أقام فى روما . ولكنه انحرف بالأفكار الجديدة المشبعة بالتعاطف مع الغرب . أما زوجته الروسية الصميمة فنراها فى هذه الرواية نادمة على زواجها من أجنبى . ونراها تحب رجلا روسيًّا كان يزور روما وتستنجد به لإنقاذها من الجحيم الذى تعيش فيه . فالزوج المثالى عند هذا الروائى هو الرجل الروسى وكوتشيتوف مثل جريباتشوف متخصصان فى تأليب السلطة على المثقفين .

فهناك إذن صراع سافر بين المحافظين والمجددين . أو ما يسمونه اليمين واليسار ، فى المجتمع السوفييتى . وقد اتخذ هذا الصراع تعبيراً عنه فى طلب السلطة داخل الحزب الشيوعى من ناحية وفى الأدب والفكر من ناحية أخرى . وجوهر هذا الصراع ، كما استطعت أن أفهمه هو : إلى أى مدى يجوز أو لا يجوز للحضارة السوفييتية أن تتفتح لحضارة الغرب ؟. المحافظون ينادون بصراع الأضداد وبمزيد من مركزية السلطة والمجددون ينادون بفتح النوافذ والانفتاح لمزيد من الحريات الليبرالية . وقد كان آخر جريح كبير فى هذه المعركة منذ باسترناك صاحب الدكتور « جيفاجو » هو الروائى المعروف سولجنيتسن Solgenitsen الذى نشر فى مجلة « نووى مير » أيام خروشوف وبأمر خاص منه روايته الشهيرة «يوم واحد من حياة إيفان دنيسوفيتش » . وهى تصور قصة فلاح روسى فى معتقلات سيبيريا أيام الحكم الاستالينى . وقد صرح خروشوف بنشرها لإدانتها لعهد ستالين ، وقبل مؤلفها عضواً فى اتحاد الكتاب ، ثم أردف سولجنيتسن هذه الرواية بروايتين أخريين تدخلان فى باب الأدب السرى لأن نشرهما محظور فى الاتحاد السوفييتى : الأولى هى « مستشفى السرطان » ، وهى رواية رمزية تصور الحياة فى جناح السرطان بأحد المستشفيات تصويراً لتجربة شخصية لمجموعة من المثقفين احتجزت فى هذا الجناح لاشتباه إصابتهم بهذا المرض الخبيث . ولكن الرمز فيها شفاف يشير إلى أن حياة الفكر فى الاتحاد السوفييتى تجاب شبهة الإصابة بالسرطان ، وحيث السرطان يكون الاستئصال . أما الرواية الثانية فعنوانها «فى الدائرة الأولى»

وهى مصممة على غرار « جحيم » دانتى حيث طبقات الجحيم مصورة فى صورة الدوائر . والدائرة الأولى عند سولجنيتسن ليست حياة السجون والمعتقلات فى الاتحاد السوفييتى ولكن حياة العلماء وأهل التكنولوجيا الذين يقبلهم الاتحاد السوفييتى للاستفادة منهم . وقد نشرت هذه الرواية بالإنجليزية والفرنسية وغيرهما من لغات أوربا ومنع نشرها فى روسيا وطرد مؤلفها من اتحاد الكتاب ، وبعد أزمة تشيكوسلوفاكيا فاوضوه فى حذف أجزاء منها لنشرها بالروسية ولكنه رفض . وهو يعيش الآن فيما يقال محدد الإقامة فى الريف أو ما يشبه ذلك .

كل هذه المعلومات جمعتها من روسيا نفسها وليس من صحافة الغرب التى أقرأ فيها الكثير . رغم أن ساشا العزيز لم يكن يتركنى إلا سواد الليل . وانتهت أيامى العشرة فى موسكو دون أن ألتقى بشاعر أو ناثر . بيمين أو يسار . فيما خلا صاحبنا الطبيب أناتولى سوفرونوف رئيس تحرير مجلة « أوجانيوك » . الذى سمعت أن له سطوة كبيرة غير رسمية فى اتحاد الكتاب من خلال نفوذه السياسى فى اللجنة المركزية . كما سمعت أنه من أهل الميمنة الذين لا يتركون كل الزهور تتفتح . أرجو ألا أكون قد ظلمت أحداً بسرد ما سمعت من طرف واحد . ولكن ما حيلتى إذا كان اتحاد الكتاب لم يتح لى لقاء أحد ينير لى شعاب الطريق .

لقد كانت مهمتى الشاقة هى : كيف لا تصبح رحلتى الروسية مجرد رحلة فى عقل ساشا سخاروف .


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الباب الثانى

رحلتى الأمريكية



الفصل السادس

أمريكا

كيف تراها ولا تراها

منذ جملة شهور ، تلقيت دعوة من جماعة عربية فى أمريكا ، للمشاركة فى أعمال مؤتمرها السنوى الرابع ، المنعقد بمدينة بوسطون بين ٢٩ و ٣١ أكتوبر سنة ١٩٧١ ، بقراءة ورقة بالإنجليزية فى موضوع « إمكانيات الحوار فى المجتمع العربى المعاصر » . وكانت الجماعة تسمى نفسها : « اتحاد الخريجين العرب الأمريكيين » . أو «الأمريكيين العرب » على الأصح . . فأدركت أنها جماعة من جماعات المهاجرين أو المغتربين العرب . . ولم يكن لقاء المهاجرين أو المغتربين العرب فى أمريكا جديداً علىّ ، فقد عرفت منهم عشرات وعشرات فى أثناء إقامتى فى أمريكا منذ سنوات مديدة . فقبلت الدعوة شاكراً ، لأنها هيأت لى فرصة زيارة أمريكا بعد خمس عشرة سنة كاملة . أى منذ استقالتى من الأمم المتحدة عام ١٩٥٦ .

وكنت قبل سفرى أمنى نفسى بشيئين : أحدهما أن أدرس آخر تطورات الفنون والآداب فى غرب أوربا ، وفى أمريكا بصفة خاصة

وأن تتاح لى دراسة حركات الشباب « على الطبيعة » فى أمريكا ، وهى أكبر مركز للرفض والاحتجاج اللذين اتسمت بهما حركات الشباب فى العالم . . كنت أتمنى أن أدرس مجتمعات الهيبيز عن كثب ، لا دراسة كتب ، ولكن دراسة تجربة .

بل لقد ذهب خيالى إلى أبعد من هذا ، فقد كان ولا يزال رأيى الثابت أننا لن نستطيع أن نرى بصيصاً من القرن الحادى والعشرين الذى نستشرفه إلا إذا استكشفنا حقيقة ما يجرى فى عقول شباب العالم وما يجرى فى قلوبهم اليوم . فالهيبيز ليسوا مجرد حاقة مانسون وقتلة شارون تيت أو متعاطى المخدرات الهائمين بشعورهم الطويلة وملابسهم المرقعة فى فردوس أو جحيم من الفوضى الجنسية ، ولكنهم أيضاً اليسار الجديد المتظاهر بمئات الآلاف ضد حرب فيتنام والتمييز العنصرى . وربما أيضاً كانت بينهم أنماط ثالثة ورابعة لا تحفل بالجنس والمخدرات ولا تحفل بالقضايا السياسية الصارخة ، وإنما تبحث عن خلاصها فى صمت وهدوء لعلها تكتشف لحياتها وللحياة الاجتماعية مغزى مقنعاً ، وقد كان يسيراً على مثلى أن ألتقى ببعض هؤلاء الشباب فى عواصم العالم المختلفة لقاء « الانترفيو » الصحفى ، أطرح عليهم الأسئلة وأستمع لإجاباتهم ، فأخرج بفكرة عن فلسفتهم ومعتقداتهم ومنابع قلقهم وآمالهم فى الحياة . ولكن هذا الأسلوب فى نظرى هو أسوأ سبيل إلى التعرف على الحقيقة ، كما أنه ينطوى على خدش لكرامة الإنسان فيهم ، أن تنظر إلى الإنسان نظرك إلى قرد أو دب أو ببر فى حديقة الحيوان تتأمله فى تعال وانفصال

تام وكأنه « ظاهرة » أو تتجسس على دخيلة نفسه تجسس العدو أو الفضولي . لهذا كنت آمل أن تتيح لى الظروف أن أعتكف فى مستعمرة من مستعمرات الهيبز فى أمريكا وأن أخالطهم أسبوعاً أو أسبوعين مخالطة الإنسان للإنسان عسى أن أفهم بالمشاركة شيئاً عن هذه الدراما العظيمة التى تتخلق درجة درجة فى نهايات القرن العشرين ، واعدة بخير عميم أو بشر مستطير لما سيأتى بعدنا من أجيال .

ولكن أحلامى كلها طارت بعد أن وطئت قدماى أرض باريس فى طريقى إلى أمريكا . فقد اعتكفت نحو أسبوعين فى فندقى بباريس بين أسقام المرض والإكباب على بحث كنت أكتبه بالإنجليزية « لمجلة اليونسكو التاريخية » بناء على طلب اليونسكو عن « غايات القومية العربية وبواعثها » . ولم يخفف عنى أسقام المرض والبحث إلا عطاء سخى من قلب زميلى الشاب مصطفى إبراهيم مصطفى ، الذى كان قبل عامين ناقد الأهرام الفنى ثم تركنا ليتم علومه فى باريس ، فقد ترك كتبه وفراشه فى المدينة الجامعية ولا زمنى فى بنوة حقيقية يسهر الليالى ليوقظنى كل أربع ساعات لأتناول البنسلين . وكنت فى أيام العافية أتجول بين الأشباح والأحياء ، فكنت أتردد على زميلنا الشاب وحيد النقاش الراقد رقدة الموت فى مستشفى كوشان تحت أنبوبة الجلوكوز ، الكل يعلم بموعد تنفيذ حكم الإعدام فيه ويحدثه فى مرح مصطنع عن موعد الشفاء . أما هو فالله وحده يعلم ماذا كان يخفى من هواجس خلف عينيه الزجاجيتين الجميلتين وبشرته الخضراء وثغره الباسم ، يلغو فى هدوء عن أخبار الأدب والأدباء ،

كنت أتردد على معرض الفنانة جاذبية سرى قرب الشانز ياليزيه وأتأمل أساويها الجديد المنقبض حيث تداعت منازلها القديمة وتلاشت ألوانها الساخنة وحلت محلها رموز انكماشية وانزوائية داخل أطر قاتمة وكأنها تعبر عن رغبة فى الانسحاب داخل الرحم . موجة من الكآبة تجتاح فنانينا الكبار كما اجتاحت أدباءنا الكبار . وبرغم قلة روادها بسبب إضراب عمال المترو وشلل المواصلات فى باريس مدة أسبوعين ، فقد استطاعت جاذبية سرى أن تبيع لوحتين أو ثلاثاً .

وكنت أزمع السفر إلى أمريكا بعد أسبوع من وصولى باريس ولكنى أجلت سفرى أسبوعاً آخر حتى أشهد افتتاح معرض «الفن المصرى المعاصر» الذى افتتحه سفيرنا عبد الله العريان فى متحف جاليرا يوم ٢٢ اكتوبر ١٩٧١ ، وحضره دوهاميل وزير الثقافة الفرنسى والوزير جوكس وغيرهما من الرسميين المعنيين برعاية الفنون والآداب . وكان معرضاً يضم نماذج من أعمال خمسين فناناً مصريا فى مقدمتهم رمسيس يونان والجزار (لا أعلم اذا نسوا كمال خليفة مادامو قد تذكروا الموتى) ثم تحية حليم وجاذبية سرى وفؤاد كامل وأنجى أفلاطون وحامد ندا وسيف وانلى وصلاح طاهر وكنعان إلخ . . ومن النحاتين عبد القادر رزق وآدم حنين والسجينى ومحمود موسى وهجرس ومحيى الدين طاهر وصلاح عبد الكريم . ولا أعرف إن كان المعرض قد استقبل من الصحافة الفنية استقبالا حافلا أم لا لأنى طرت إلى أمريكا بعد ثلاثة أيام من افتتاحه ، ولكنى شخصياً برغم سعادتى بأن أرى فن مصر يعرض فى عاصمة العالم الفنية ، لم أسعد بتاتاً

بأن أرى جناحاً من حجرتين فى المعرض يخصص للفنانين المصريين الشبان الذين بدت أكثر لوحاتهم كاجتهادات تلامذة نجباء . ربما كانوا أصحاب مواهب واعدة . ولكنهم حتى الآن مازالوا فى طور التكوين . وقد كنت أوثر أن يقتصر المعرض على أعمال عشرة أو خمسة عشر من كبار فنانينا يمثل كل منهم تمثيلا كافياً بدلا من كل هذا الحشد الغفير من الأسماء بقصد إرضاء كل الناس هنا ، وبهذا اختلط النابغون بالأوساط واختلط الأوساط بالمبتدئين (ليس فى فرنسا نفسها أو إنجلترا أو أية دولة متقدمة خمسون فناناً يستحقون العرض) . وما فى كل يوم يتاح لمصر أن تعرض فى متحف مثل جاليبرا . ومن يذهب إلى سوق الجواهرجية لا يحمل معه كل جواهره من ماسات حقيقية وزجاجية . أما تشجيع الشباب فله وسائل أخرى ، ونحن لانتصور مثلا أن فرنسا تقيم بيننا معرضاً لبيكاسو و براك وجياكومتى ثم تعرض معهم لوحات بعض خريجى كلية الفنون الجميلة بباريس .

بل لقد ساءنى فى هذا المعرض أن أرى عديداً من أردأ أعمال فنانينا المعروفين مثل عمر النجدى ويوسف سيده وخديجة رياض وعفت ناجى ومنير كنعان ورمزى مصطفى ، حتى سيف وانلى لم يكن ممثلا خير تمثيل ، وأنا أعرف لكل من هؤلاء لوحات تفضل ما رأيت فى باريس مائة مرة . وحين سألت قوميسيرة المعرض الفنانة أنجى أفلاطون فى سر هذا الاختيار الردىء أبلغتنى أن المندوبة الفرنسية هى التى قامت بهذا الاختيار عند مجيئها إلى مصر ، فلتسمح لى وزارة الثقافة هنا وهناك أن أقول لهما إن

المندوبة الفرنسية لا شك عاشقة لمصر بدليل أنها كانت فى الاستقبال تلبس قفطاناً تركيا مزركشاً بالقصب مثل شماشرجية الهيلتون وسميراميس ، ولا شك تحمل لنا أطيب النوايا ولكنها لا تفهم كثيراً فى الفن إذا كانت هذه هى اختياراتها . وقد لاحظت أن عقلية سياح خان الخليلى والأوانى المزخرفة هى التى سيطرت على اختيار المعروضات ، وهذا معناه ببساطة أن أوربا تقول لنا : لنا الفن ولكم الزخرفة فابقوا فى مكانكم ولا تحاولوا أشياء لا تتقنوها . نحن نحب فيكم نكهتكم الشرقية المملوكية فلا تفسدوها بالتفلسف أو التحليق أو الغوص إلى الأعماق . أبعدوا عن الفيجوارتيف ، وعن التجريد معاً . ابعدوا عن الألم والفرح والقلق والصفاء والزموا الدندشة بأشكالكم الهندسية المتكررة فى صواوينكم وأباريقكم وصوانيكم ومشكاواتكم وأطلوا على العالم من وراء مشربياتكم ، فجمالكم الحقيقى أنكم لا تصلحون للقرن العشرين .

كلمة للمستقبل . لو أتيح لنا معرض آخر خارج حدود مصر ، فمن واجب وزارة الثقافة أن تستغنى عن خمسمائة جنيه وتدعو لجنة ثلاثية من أكبر نقاد الفن فى العالم تقيم بيننا أسبوعاً لترشد وزارة الثقافة فى عملية الاختيار . ولكى يكون الاختيار ممثلا اوجه مصر الحقيقى ولفن مصر الحقيقى يجب إنشاء سجل فى وزارة الثقافة تدون فيه سيرة كل عمل من أعمال فنانينا الكبار منذ خروجه إلى الحياة تماماً كسجل المواليد ترصد فيه حركة كل لوحة أو تمثال . فأنا أعلم أن خير أعمال فنانينا محجوب فى مجموعات خاصة وموزع بين القاهرة والإسكندرية واستوكهولم وبرلين

وباريس ولندن ونيويورك وغيرها من مدن العالم الكبيرة والصغيرة ، وقد رأيت فى رحلتى الأخيرة فى بروكلين وفى واشنطون لوحات معروفة لرمسيس يونان وفؤاد كامل وتحية حليم وجاذبية سرى بين مقتنيات بعض المصريين المهاجرين ، كما أنى أعلم أن زوارنا الأجانب يشترون أولا بأول صفوة إنتاج فنانينا الكبار ويعودون به إلى بلادهم . وإذا كنا نوثق عقود بيع السيارات فى الشهر العقارى ، فلا أقل من أن نفتح سجلا فى كل قنصلية مصرية توثق فيه كل لوحة مصرية تباع فى الخارج بحيث نعرف أين مستقرها ، ونستعيرها أو نؤجرها للعرض فى المعارض الدولية . بهذا نبرز للعالم أصدق ما لدينا ولا نترك عملية الاختيار للمصادفة العمياء أو للبحث بين نفايات الفن التى لا تجد من يشتريها .

وقد كان العقاب أليماً فى باريس ، ثلاثة أيام ترددت فيها على متحف جاليرا بالساعات الطوال بعد افتتاحه ، فلم أر قدما « تهوب » فى المكان إلا عابراً طارئاً فى الصباح وعابراً طارئاً فى المساء برغم أن مواصلات باريس كانت قد عادت إلى الانتظام ، قال الفنانون المصريون المرافقون للمعرض : نحن حقًّا منحوسون ، فقد جاء معرضنا وقت تتويج بيكاسو فى باريس فلم يلتفت أحد إلينا لأن كل الناس فى معرض بيكاسو . ربما . ولكن الحمد لله أنى لم أسمع أحداً يقول إنها كانت مؤامرة من الصهيونية العالمية .

وفى السابع والعشرين من أكتوبر ١٩٧١ طرت إلى بوسطون فى الولايات المتحدة الأمريكية لأشترك فى مؤتمر الخريجين العرب. وكانت

تنتابني إحساسات متضاربة أكثرها من إحساسات العائد إلى مكان بعد خمسة عشر عاماً . وكان معي في الطائرة الصحفي الفرنسي المعروف اريك رولو الذي كان مدعوًّا مع الاستاذ جاك بيرك للاشتراك في مؤتمر بوسطون . وبعد رحلة سبع ساعات مملة تسلينا فيها بمشاهدة فيلم سخيف على متن الطائرة نزلنا مطار بوسطون . وبدأت أول روائح أمريكا تهب علينا في أرض المطار .

شيء لم نألفه في أوربا . في الجمرك يفتحون الحقائب . وقد كان . وما إن تجاوزنا المنطقة الجمركية وهممنا بالخروج إلى المدينة حتى استوقف مخبران صاحبنا الصحفي المعروف وقاداه للتفتيش الشخصي ! لماذا هو بالذات ؟ لا أدري . كنت معه ولكنهما لم يتعرضا لي . وحرصت على ملازمته في هذه الورطة من باب اللياقة والعجب يملؤني ! ووقفت خارج كابينة التفتيش أرقب ما يجري فوجدت المخبر يتفحص جواز سفره بعناية ثم يساعده على خلع جاكتته ويفتشها بدقة ، ثم على خلع قميصه ، ثم أخذ يتحسس جسمه شبه العاري حتى الوسط ، وأوشك الصحفي أن يخلع بنطلونه ولكن الرجل اكتفى بدس يده في كل جيوب البنطلون ثم مضى يتحسس بدقة فخذيه وساقيه حتى القدمين . وبعد أن فرغ من مراسم التفتيش بدأ استجواباً قصيراً ثم أخلى سبيله .

وفي الطريق أخذتنا الحيرة ، لماذا هو ؟ وعم يبحثون ؟ عن سلاح ؟ هل ظنوه شخصاً آخر يبحثون عنه ؟ وكان رأيي أنهم يبحثون عن مخدرات قلت له : « أعتقد أن لحيتك هي السبب . فأنت برغم هندامك تشبه

جماعة الهبيز ، ونحن الآن فى بلاد الهبيز » . وقد ثبت صدق ظنى . . فما إن نزلنا مدينة بوسطون وأخذنا نسأل الناس تفسيراً لهذا الحادث حتى عرفنا أن ما رأينا شيء مألوف يجرى كل يوم وكل ساعة فى مطارات أمريكا وموانيها ، ولا سيما للقادمين من فرنسا . سواء أكانوا من الفرنسيين أم كانوا من الأمريكيين . إنهم يبحثون عن مخدرات . وقد غدت فرنسا من المراكز الرئيسية لتهريب المخدرات إلى أمريكا . (قبلها بفترة وجيزة ضبطوا دبلوماسيا فرنسيا اتهم بتهريب ما قيمته ١١ مليون دولار من الهيروين فى سيارة فولكسفاجن استوردها من الخارج) . ولا يعفى المرء أن يكون ذا مركز « محترم » فأستاذ الجامعة قابل للتفتيش الشخصى كتلميذ الجامعة وكأى صعلوك « لا يملك فى الحياة إلا شعره » كما تقول أغنية الهبيز المشهورة ، ومع ذلك فالزائر يحس بالمهانة عند التفتيش الشخصى ، فهذا أسوأ استقبال يمكن أن يتعرض له إنسان برئ حالما تطأ قدماه أرض الولايات المتحدة . مشكلة ، لأن الحكومة الأمريكية معذورة أيضاً فى هذه الإجراءات المتعسفة . حين تقيم فى أمريكا قليلا تدرك أن المخدرات قد غدت فيها وباء قومياً لا بد من مكافحته بأى ثمن .

كذلك ما إن تقيم فى أمريكا أياماً حتى تدرك أن فيها وباء آخر هو اختلال الأمن فى المدن الكبرى . كلما سألت أحد معارفى الأمريكيين فى نيويورك عن مكان أقضى فيه السهرة كان الجواب دائماً واحداً : لا تسهر بالليل ، فنيويورك أمست غير آمنة ، كل ليلة عشرات من حوادث

القتل بقصد السرقة تتم والبوليس غير قادر على السيطرة على الموقف . شبان ورجال من المتعطلين أو من مدمني المخدرات يتعرضون بالمسدسات في جماعات صغيرة للمارة في أرقى الشوارع وفي أقذرها طلباً لمحافظهم ، وأدنى مقاومة أو إحساس بالخطر معناها الرصاص . الحكيم من يسلم كل ما في جيبه في إذعان . وأسوأ ما في الأمر أن التحقيقات تثبت أن هذه الاعتداءات لا تنظمها عصابات محترفة كما كان الأمر في العشرينيات والثلاثينيات أيام آل كابوني وجاك ديلنجر وبقية ملوك الإجرام ، وإنما يقوم بها مواطنون عاديون من البيض أو من السود ذاقوا مرارة البطالة المتصلة فأعلنوا الحرب على المجتمع ، أو مواطنون عاديون من المدمنين لم يجدوا إلا السطو سبيلا للحصول على المال . وهناك أيضاً فئة ثالثة من المواطنين العاديين تعلمت الإجرام في مدرسة فييتنام . أما السطو على المنازل فقد غدا في نيويورك خاصة وغيرها من المدن الكبرى ظاهرة مألوفة إلى حد جعل سكان كثير من العمارات ينشئون فيما بينهم جمعيات تعاونية للدفاع عن أنفسهم يأسا من قدرة البوليس على حماية الأرواح والأموال .

وبالطبع لم ألق بالا إلى هذه التحذيرات وإلا بقيت سجين فندق البلتمور طوال الأسبوع الذي قضيته في نيويورك . فخرجت ثلاث مرات بمفردي بعد التاسعة مساء إلى الواحدة صباحاً أتجول في برودواي والشارع ٤٢ وحول تايمز سكوير لأرى أضواء المدينة ، ولأدرس بنفسي ذلك الوباء الثالث الذي سمعت بعد نزولي أمريكا أنه يجتاحها من أقصاها



إلى أقصاها ، ألا وهو أفلام الجنس . ولم يهاجمنى أحد ، ومع ذلك أحسست فعلا بجو الجريمة يتهدد آلاف السابلة فى وضح الليل . وكنت قد قرأت شيئاً لتوفيق الحكيم وهو يصف رحلته فى العام الماضى إلى باريس .. يقول إن مشكلات الجنس تعالج الآن فى الأفلام الأوربية معالجة علمية وإن الجمهور يتتبعها فى احترام تام . أما فى أمريكا فقد رأيت ستة أفلام فى تايمز سكوير ولكنى لم أر فيها مشكلات ولا جنساً ولا علما ، وإنما رأيت مجرد دعارات مقززة لبغايا وصعاليك يؤدون العملية الجنسية أمامك على الشاشة مصورة من جميع الزوايا الممكنة مع الاهتمام الخاص بالسحاق ، ولم يكن بينها إلا فيلم واحد يقترب قليلا مما حدثنا عنه توفيق الحكيم ، وهو تعاون الفن والعلم فى اكتشاف العلل الجنسية ، ومحاولة علاجها . ومع ذلك ، فمن يدقق النظر فيما يشاهد يجد أنه لا فرق بين هذا الفيلم وسواه ، إلا أن كاتب السيناريو له قواد مثقف عرف كيف يضفى على القوادة رداء الثقافة ، فأوهمنا أنه أقام ندوة مع طبيبة فى علم النفس موضوعها العلل الجنسية بين الأزواج وانحرافات الفراش فى عشرة نماذج أو « حالات » من مرضى هذه الطبيبة ، وكان يتتبع هؤلاء الأزواج ويدعوهم إلى الاستوديو لسرد قصص مرضهم وقصص شفائهم بالتفصيل بالصورة أمام الكاميرا فيستجيبون له .

وحاولت أن أستقصى من معارفى الأمريكيين عن أسباب هذه الأزمة التى دخلت فيها السينما الأمريكية ؟ يقولون إن الموجة جاءتهم أولا من السويد والدنمارك ، فكان بعضهم يربطها بالثورة الجنسية أو

حركة التحرر الجنسى التى تجتاح العالم اليوم وتجتاح أمريكا بصفة خاصة وهى وجه من وجوه ثورة الشباب والهبيز والبحث عن أخلاقيات جديدة للجنس غير ما ورثناه عن الآباء والأجداد من معتقلات روحية وجسدية باسم مكارم الأخلاق وسيادة الروح على الجسد . وكان آخرون يربطونها بالتشوهات النفسية الناجمة عن الحروب ولا سيما حرب فيتنام . ولم أجد هذا مقنعاً ولا ذاك مقنعاً . فالهبيز ودعاة التحرر لا يكترثون بأفلام الجنس لأنهم يفضلون ممارسته على الطبيعة كما أن هذه الأفلام لو كانت تعبيراً عن فلسفة تحررية جديدة لكانت إباحيتها أكثر فنًّا من كل هذا . والسويد والدنمارك لم تشتركا فى حرب فيتنام ولا فى أى حرب من الحروب العالمية ، وآخر حرب اشتركت فيها السويد إذا لم تخنى الذاكرة كانت منذ نحو ٢٥٠ سنة فى القرن الثامن عشر ، حقبة خلدها فولتير فى كتابه الخالد « سيرة شارل الثانى عشر » . بل إن هذه الأفلام لم ترق حتى إلى مستوى أمراض الحضارة والترف ، فالرومان والعباسيون عندما أصابتهم أمراض الحضارة لم يعربدوا بهذه الغلظة وإنما عربدوا بتفنن وجمال . وتصورت أن أزمة السينما ربما كانت نابعة من سيطرة التليفزيون الذى فتح فى كل بيت داراً للعرض الخاص وفتت البشر إلى ملايين من الجزر الضئيلة المنفصل بعضها عن البعض الآخر بحيث أصبح من أعسر الأمور تجمعهم فى مسرح أو سينما إلا على شىء خارق فى الإثارة ، ومن هنا لجأت صناعة السينما إلى موجة من أفلام الجنس كما كانت تلجأ فى الماضى إلى أفلام الجريمة وأفلام رعاة البقر لتجتذب

المراهقين والبسطاء . فإن كان الأمر كذلك فلعلها موجة ثم تنحسر ، ولكن الخطر أيضاً ماثل ، وهو أن تمتد هذه الموجة بعد عشر سنوات إلى شاشة التليفزيون حيث تجد تجاوبا أعمق ، لأن الجنس فى صميمه تجربة فردية لاحياء فيها ، بل قد تكون لها قداسة ، بين جدران أربعة. أما عرض قذاراتها على الناس جماعة فى الأسواق ففيه دائما ما يصد البشر الأسوياء . وبالفعل كان أكثر من رأيت حولى فى سينمات الأفلام الجنسية كهولا يبدو عليهم الحرمان وإرهاق المراهقين ، ولم أر من النسوة إلا قليلا ، وندر أن تجد وجها عليه سيماء الفضول العقلى أو رغبة الاستكشاف ، وندر أن تجد رجلا اصطحب زوجه أو صاحبته طلباً للإبرتيف قبل مواجهة الخاوة . إنهم نفس جمهور « السينما الزرقاء » التى كانت تتفشى فى أوربا فى الثلاثينيات قبل الحرب العالمية الثانية .

* * *

هذه هى الأوبئة الثلاثة التى شهدتها فى أمريكا فى زيارتى الأخيرة : انتشار المخدرات ، واختلال الأمن ، والأفلام الجنسية . والصحافة الأمريكية تتحدث عن وباء رابع وشيك الانتشار فى أمريكا هو الأمراض السرية . ولكن الذى يخفف من حدة هذه الأوبئة أن الديمقراطية الأمريكية مجتمع مفتوح لاهمس فيه ولا تكتم ، فكل الناس تتحدث عن هذه القضايا بصراحة والصحافة والإذاعة والتليفزيون وكل منابر الرأى والبحث تخوض فى هذه المشاكل ليل نهار ، وتحاول استقصاء أسبابها ونتائجها ووسائل علاجها . وحيث الرأى الحر مكفول فكل شىء قابل

للتصحيح . فلا حرج عند أحد من اتهام البوليس الأمريكى مثلا بالإهمال أو بالتستر على الجريمة للارتشاء . وهم هناك لا يضيعون وقتهم كثيراً فى التنديد بعيوب المجتمع الأمريكى على أساس مكارم الأخلاق بل يلجأون إلى أساليب البحث العلمى فى استقصاء الأسباب والنتائج ووسائل العلاج . حتى ظاهرة الشذوذ الجنسى التى تفشت مؤخراً فى أمريكا وبعض مجتمعات شمال أوربا وإنجلترا غدوا يخضعونها لدراسة الكيمياء الحيوية بفحص سلوك الهرمونات ونسبها فى أنماط الشذوذ المختلفة . ومن وضع يده على الحقيقة سهل عليه العلاج .

* * *

وحين استفسرت عن مستعمرات الهبيز قال لى أصدقائى الأمريكيون : سنحاول أن نرتب لك الإقامة بينهم أسبوعاً أو نحو ذلك ، ولكننا نطلب بعض الوقت لإجراء هذا الترتيب . أمامك الاختيار بين كومونات نيويورك ، (والكومون عمارة تستأجرها أية جماعة من الهبيز بقصد المعيشة المشتركة ، فلا أحد يمتلك فيها شيئاً حتى علبة سجائره ، وكل عضو فى الجماعة يصب فيها كل مكاسبه ، ويستهلك فيها بحسب حاجته بغير حسيب) ومعسكرات الهواء الطلق ، وهذه أقربها على بعد مئات من الأميال . وهنا تدخل فى الحديث سائق التاكسى الذى كان يتتبع حديثنا ، وكان من الهبيز ويدرس للماجستير فى جامعة كولومبيا : « أنصحك ياسيدى أن تذهب إلى مستعمرات الهواء الطلق ، هؤلاء هم الهبيز الحقيقيون . أما كومونات المدينة فهم الهبيز المزيفون الذين أساءوا إلى سمعة حركة

الشباب ، وهم فى العادة جماعات مغلقة . إنهم يتذرعون بمظهر الهبيز ، فيرسلون شعورهم ويتحدثون عن المجتمع الجديد ويحتجون على القيم السائدة ، ليعيشوا حياة الإباحية والفوضى والكسل وتعاطى المخدرات . أما معسكرات الريف فهى الصحة والإيمان السليم . هناك يعيش الشباب حياة البساطة الأولى ، يزرعون ويقلعون ويربون ويأكلون مما زرعوا وقلعوا وربوا ، ويصنعون ما يتقنون من مصنوعات يدوية ويبيعونها للحصول على لوازمهم . وإذا ذهبت إلى هناك فسيستقبلونك بالترحاب ، ولن ينتظروا منك إلا أن تزرع أو تقلع أو تصنع مثلهم . هؤلاء من حقهم أن يحتجوا على مفاسد المجتمع الرأسمالى لأنهم تجردوا من غريزة الملكية دون أن يكتسبوا مفاسد أخرى . انظر إلىّ مثلا . . أنا واحد من الهبيز ، ولكنى لا أعيش فى كومون » .

وعرفت فى أمريكا أن بعض رجال الدين يسايرون حركة الهيبيز ، ويفتحون لهم الكنائس لإقامة حفلاتهم الراقصة الصاخبة بقصد استدراجهم إلى حظيرة الدين واصطياد أرواحهم بعد أن يثبتوا لهم أن الدين ليس مناهضاً لحركات التجديد مهما كانت ثورية . كذلك عرفت أن البوليس الأمريكى له رجال من الهبيز يطلقون شعورهم ويمشون حفاة فى هلاهيل ، فما إن يقوم الهبيز بمظاهرة حتى يتحولوا إلى رجال أمن ويشاهدوا فى سيارات البوليس .

* * *

وتذكرت جماعات الشباب — فتية وفتيات — الذين رأيتهم جالسين

على الأرصفة حفاة فى ثياب مهلهلة فى ميدان سان مشيل بباريس وفى مختلف أرجاء الحى اللاتينى وسواه ، ثم رأيت أمثالهم على أرصفة جامعة هارفارد ومدينة أوستن حيث جامعة تكساس ، وقد فرشوا مصنوعاتهم على الأرض ليشتريها المارة ، من إشاربات وبولوفرات وشنط ومحافظ جلدية وأحزمة مزركشة وكلها أشياء جميلة . وكنت أحسب أنهم يشترونها جاهزة ليتاجروا فيها . ثم عرفت أنها من صنع أيديهم . . . وهو نوع من الاحتجاج على عصر الآلة وعلى مبدأ التجارة القائم على وجود وسيط بين المنتج والمستهلك . نوع من العودة إلى العصور الوسطى على طريقة وليم موريس ، إلى مجتمع الإنتاج اليدوى ومجتمع المقايضة ، ولكن بغير أشراف ولا إقطاع ولا فرسان ولا كهنوت ، وعندما سمعت كلام سائق التاكسى أدركت أن الأمر أعقد مما كنت أتصور . فاستبعدت فكرة كومون المدينة لأنى لا أتصور نفسى بين جماعة تتعاطى المخدرات ولو من أجل التجربة ، ثم استبعدت فكرة العودة إلى الطبيعة برغم انجذابى إليها ، لأنها ستحتاج إلى شهر كامل . ومن يدرى ؟ فربما ضعت فيها ولم أعد إلى قومى ؟ إن هاتفاً عميقاً يلازمنى منذ سنوات طويلة أن أنسحب نهائيًّا من حياة المجتمع ، ولكنى لم أجد الشجاعة حتى الآن لأجيب نداءه . وقررت أن أبتعد عن مواطن الغواية .

* * *

وهكذا تبخر أحد الأملين الكبيرين اللذين كنت أحلم بهما قبيل نزولى بأرض أمريكا : أن أدرس عن كثب مشكلة الهيبز فى بلاد الهيبز ،

أما الأمل الثانى ، وهو أن أتابع ما يجرى فى المسرح الأمريكى بصفة خاصة وفى الأدب الأمريكى بصفة عامة ، فقد تبخر أيضاً وأنا لا أزال فى مؤتمر بوسطون فى الأيام الثلاثة الأولى من رحلتى الأمريكية .

فقد توالت الأحداث فى سرعة سريعة منذ اليوم . وجدت نفسى بين نحو مائتين من عرب أمريكا أكثرهم يعملون أساتذة فى الجامعات الأمريكية ، وبعضهم لا يحسنون العربية كلاماً لطول هجرتهم إلى الولايات المتحدة أو لأنهم مولودون بها . وقرأت على المؤتمرين كلمتى ، واستمعت إلى كلمة جاك بيرك وإلى كلمة نجم باذرجان الأستاذ بجامعة تكساس وإلى كلمة يروسلاف ستتكيفتيش الأستاذ بجامعة شيكاجو ، وهى كلمات سأعود إليها فيما بعد . كذلك أحاط بى الطلبة المصريون بعد حضور المؤتمر ، وكانوا وافدين من جامعات أمريكية عديدة ، وطلبوا إلىّ أن ألتقى بهم فى جامعاتهم وأنا لا أرفض للطلبة طلباً : عقدة جامعية قديمة ما زالت تلازمنى برغم مرور السنين . وبين الأساتذة والطلبة وجدت نفسى بين يوم وليلة مرتبطاً بجولة محاضرات رهيبة قوامها عشر محاضرات فى عشر جامعات مختلفة خلال عشرين يوماً ، وكانت كلها تدور حول موضوعين رئيسيين هما « التطورات الثقافية فى مصر منذ ١٩٥٢ » و« دور المثقفين فى مصر الحديثة » ، وبين يوم وليلة دقت التليفونات فى عشر جامعات لإعداد الترتيبات اللازمة وبين الجامعة والجامعة ألف كيلومتر . بين يوم وليلة كل شىء تم بالتليفون . وألقيت أولى محاضراتى فى جامعة هارفارد ، ثم طرت إلى جامعة لافال

فى كويبك بكندا . قالوا : فى عودتك من كندا إلى الولايات المتحدة ستمر طبعاً بمطار مونتريال لتغيير الطائرة ، وهناك ستجد زميلا لنا فى انتظارك فى المطار ليسلمك تذاكر رحلتك ، وقد كان . وطرت أولا إلى نيويورك التى اتخذتها قاعدة لى . ومن نيويورك طرت إلى جامعة ميتشجان (آن آربور) ، ومن ميتشجان إلى جامعة شيكاجو ومن شيكاجو إلى جامعة مينسوتا فى منيا بوليس ومن منيا بوليس إلى جامعة وسكونسن ، ومن وسكونسن إلى جامعة بورديو فى لا فاييت انديانا ومن لا فاييت إلى جامعة تكساس فى أوستن ، ومن أوستن إلى واشنطون ومن واشنطون إلى جامعة برنستون ومن برنستون إلى نيويورك حيث ألقيت محاضرتين احداهما فى جامعة كولومبيا والأخرى فى جامعة نيويورك . ولولا أنى فررت من أمريكا فراراً لوجدت نفسى أطوف بعشرين جامعة أخرى . وكانت متعة عظمى أن أجد نفسى ثانية بين أبناء عشيرتى الأولى أساتذة الجامعات وطلابها ، واحتملت مشقة لا يحتملها ابن العشرين : أطير ألف كيلو متر فى الصباح وأحاضر فى المساء وأبيت الليلة فى فندق أو فى المدينة الجامعية لأطير فى اليوم التالى ألف كيلو متر فى الصباح وأحاضر فى المساء ، — وكانت راحتى الوحيدة أن يحل بى يوما سبت وأحد حين لا يعمل الناس — ومع ذلك لم أحس بأدنى إجهاد إلا فى نهاية المطاف . كل شىء مرتب بإحكام كأنك تدور مع عقارب ساعة جسيمة متقنة الصنع لا تخطئ أبداً . الطائرة دائماً تصل فى الموعد المحدد . السيارة دائماً تنتظرك فى المطار . غرفة نومك دائماً محجوزة . محاضرتك دائماً تبدأ

وتنتهى فى الوقت المحدد لها . للغداء وقت محدد ، وللحفلة الاستقبال وقت محدد ، ولم يحدث خلل واحد .

* * *

وانقضى الشهر الذى خصصته لزيارة أمريكا . وهكذا دخلت أمريكا وخرجت منها دون أن أرى شيئاً ، إلا « الدير » فى نيويورك ومعرض ميرو فى منيابوليس . لم أرمسرحية واحدة أو أوبرا واحدة ، وكان الكتاب الوحيد الذى عدت به « قاموس فى لغة البربر » و« أجرومية لغة البربر» ، وهما من تأليف أستاذ مصرى فى جامعة ميتشجان اسمه أرنست عبد المسيح . وبرغم أنى دخلت أمريكا وخرجت منها دون أن أرى شيئا من فنونها وآدابها ، فقد تعلمت أشياء كثيرة غير ما قصدت إليه من رحلتى الأمريكية ، أشياء ربما كانت أهم من الفنون والآداب . فمنذ أن التقيت فى اليوم الأول بجامعة هارفارد بفتاة مصرية تدرس الدكتوراه يتدلى على صدرها « العنخ » أو مفتاح الحياة ، قررت أن أدرس أحوال المصريين المغتربين فى أمريكا . وفى كل مكان نزلت به جمعت باقة من المشكلات والحلول . وفى كل مكان نزلت به لم أكف عن مناقشة الناس فى المسألة المصرية وجميع الا نطباعات عن الرأى العام الأمريكى فيما يسمونه « الحل السلمى » . وقد أتاحت لى تنقلاتى المتواصلة أن ألتقى بمئات الناس من مختلف الطبقات والمستويات والمهن والتخصصات . وفى الحالين وصلت إلى نتائج أجد أن من واجبى أن أعرضها على أبناء وطنى ، ليعرفوا شيئاً عن مآل إخوتهم المهاجرين فى الخارج ، وليعرفوا شيئاً عن رأى رجل الشارع الأمريكى فى محنتنا الوطنية .

الفصل السابع

إمكانيات الحوار فى المجتمع المصرى

ترجمة لنص محاضرتى فى مؤتمر بوسطون

سيدى الرئيس ، سيداتى وسادتى .

إنه لمصدر اعتزاز لى أن أزور الولايات المتحدة الأمريكية بعد غيبة طويلة امتدت خمس عشرة سنة ، لأتحدث إليكم فى موضوع « إمكانيات الحوار الصادق فى المجتمع العربى المعاصر » . ولذا فإنى أقدم الشكر لاتحاد الخريجين الأمريكيين العرب لتفضله بتوفير هذه الفرصة لى ، بدعوتى للتحدث إلى مؤتمره الرابع المنعقد فى بوسطون .

على أنه لم يكن واضحاً تماماً عندى إن كان المراد أن أتحدث عن إمكانيات الحوار بين المجتمع العربى وبقية العالم ، أو أن أتحدث عن إمكانيات الحوار داخل المجتمع العربى نفسه . ولما كنت أنتمى إلى بلد لم يكفّ منذ كارثة ١٩٦٧ عن محاولة فتح باب التفاهم مع العالم الخارجى ، ومع ذلك لا يجد أن كل الأطراف المعنية تفهمه بوضوح تام ، فإنى أسلم بأن جهودنا التى لا تكل لإقامة الحوار مع بقية بلاد العالم ليست وضع شك من أحد . وبناء عليه فإنى سأمضى إلى استقصاء الوجه الآخرمن الموضوع ، ألا وهو طبيعة التفاهم المتبادل ومداه داخل ما يسمى

بالمجتمع العربى نفسه. ولما كنت لا أعرف شيئاً كثيراً عما يجرى داخل البلاد العربية الأخرى ، فإنى سأقصر كلامى على البلد الذى أعرفه أكثر من سواه ، وهو بلدى ، مصر . كذلك فإنى سأحدد نطاق فكرتى عن المعاصرة بحيث تقتصر على أحوال عصرنا منذ ١٩٥٢ ، ولو أنى واثق من أن بعضكم يود منى أن أكون أكثر معاصرة من ذلك .

لو أننا رجعنا إلى السنوات القليلة السابقة لثورة ١٩٥٢ ، وهى آخر أيام القومية المصرية والديمقراطية الليبرالية ، لوجدنا أن الحرب العالمية الثانية تلتها سبع سنوات من الفوضى السياسية والقلاقل والجنوح إلى اللا عقل ، ليس فقط داخل المجتمع المصرى نفسه ، ولكن كذلك بين الدول القديمة والجديدة التى كانت لها من قبل علاقات تقليدية بمصر ، وأهمها بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة الأمريكية . كانت تلك الفترة فترة اللاتفاهم العظيم : فى مصر رفض البريطانيون فى عناد سحب جيش الاحتلال ، برغم أن انتصارهم فى الحرب جعل استمرار الوجود البريطانى فى مصر بغرض الدفاع عن النفس أمراً لا معنى له ، فى حين بلغ الشعور الوطنى المصرى نقطة الانفجار . كذلك بلغت الحزازات الطبقية نقطة الانفجار ، عندما رفضت طبقة الباشوات ، يقودها ملك لا يحس بالمسئولية ، فى عناد ، كل محاولة للتصالح الطبقى عن طريق الإصلاح الزراعى وعن طريق إصدار تشريعات عمالية تكون أقرب إلى العدالة . أما رأس المال الأجنبى فى مصر ، وقد كان خلال مائة عام يحتل مركزاً ممتازاً ، فقد رفض فى عناد أن يتخلى عن هذا المركز الممتاز

وأن يصل إلى اتفاق مع البورجوازية المصرية ومع التكنوقراطية المصرية النامیتین أبداً ، ومع رأس المال الأجنبي ، كان هناك ثلاثة أرباع المليون من الأجانب المحليين الذين تشبثوا فى عناد باعتقادهم فى تفوق أصلهم الأوربى ، وآثروا الخروج من مصر جماعة على أن يستسلموا فى إذعان لمصير المواطن المصرى المتجنس ، وهو مصير غير مريح . ولكى تتم السيطرة على كل هذه التوترات الفظيعة ، أقام الملك فاروق خمس دكتاتوريات : النقراشى وصدقى والنقراشى وعبد الهادى وسرى ، التى توالت فى تعاقب سريع . وقد أضافت الدراما الفلسطينية الإسرائيلية اللمسة الأخيرة فى هذه الصورة حين تطورت فى الخلفية فى سرعة لاهثة . وأخيراً ولد نقيض الموضوع ، وهو الثورة من الموضوع ، وهو العهد البائد . وأخيراً استجدت للبلاد الناطقة بالعربية قضية مشتركة تلتف من حولها ، وأعطى الإحساس بالمصير المشترك معنى ودفعة لفكرة العروبة .

وفى اعتقادى أنه ينبغى النظر إلى حكومة الوفد بين ١٩٥٠ و ١٩٥٢ على أنها آخر محاولة يائسة لإنقاذ العهد البائد الذى كانت دعامتاه القومية المصرية والديمقراطية الليبرالية . وقد أفضى إخفاقها إلى نهاية عصر وبداية عصر آخر . وقد كان ينبغى أن تقوم ثورة ١٩٥٢ فى ٢٦ يناير لا فى ٢٣ يوليو .

كان ما تحتاج إليه مصر هو قيام نظام قوى يضع حداً للفوضى وللقلاقل وللجنوح إلى اللاعقل ، نظام فتى يقدم الحلول لكل هذه

التوترات التى لا سبيل إلى حلها ، نظام يرد لمصر كبرياءها القومى بتخليصها من الاحتلال البريطانى ، نظام يعيد لمصر استقرارها السياسى والاقتصادى بالتعجيل بالتنمية الاقتصادية والاجتماعية وبإقرار التصالح الطبقى عن طريق الإصلاح الزراعى وعن طريق ترقية تشريعات الطبقة العاملة ، نظام يجعل مصر للمصريين بتصفية المصالح الأجنبية و« الاستيطان » الأجنبى فى مصر، وأخيراً نظام يجد حلا مرضياً لعقدة الدراما الفلسطينية الإسرائيلية نصف المرتجلة. وبوجه عام ، حاول نظام جمال عبد الناصر — لو حكمنا عليه داخل سياقه التاريخى وفى نطاق الطبقة الوسطى الصغيرة التى حددت إمكانياته — تقديم حلول ناجحة لكل هذه التوترات التى لا سبيل إلى حلها ؛ ولكنه عندما تقدم لحل المشكلة العربية الإسرائيلية ، كان التحدى أكبر من طاقاته . فقد استبان بعد فوات الأوان أنه كان يتعامل مع مجهولات فى السياسة الدولية لم يكن معداً لها الإعداد الكافى ، ولكنه أيضاً استبان بعد فوات الأوان أيضاً أنه بالرغم من أنه حل تناقضات عديدة داخل المجتمع قد استحدث تناقضات أخرى لم يستطع حلها لا تقل خطورة واستفحالا فى الأبعاد عما حل من تناقضات .

ومن أهم هذه التناقضات التى استحدثتها ثورة ١٩٥٢ اختفاء الحوار داخل المجتمع المصرى . واختفاء الحوار بالقطع ظاهرة تتميز بها كل الثورات لا الثورة المصرية وحدها . فالثورات فى العادة جامحة ومتعصبة وتنظر إلى الأمور من زاوية واحدة ، والحوار ، شأنه شأن الديالكتية ،

منهج فى الحياة . وبوصفه منهجاً فى الحياة فهو لابد أن يتبع نظاماً وأن يقوم له وجود مؤسس يضمن التأمل والتخاطب والتسامح . والثورات الكبرى فى تاريخ البشرية ، كالمسيحية والإسلام والثورة الفرنسية والثورة الروسية ، كانت كذلك جامحة ومتعصبة وتنظر إلى الأمور من زاوية واحدة ، ولكنها قامت لتغير أفكار الناس ومعتقداتهم وقيمهم الأساسية ، ولتغير أساليبهم فى الحياة . ولهذا فإن تطرفها مغتفر بسبب عظمة رؤيتها . أما الثورة المصرية فهى برغم إقفالها باب الحوار المثمر قد اختارت لأسباب عملية أن تترك بدون إجابة كافة المسائل التى كانت تمزق المجتمع المصرى . فهى قد تركت معلقاً بدون إجابة ، ذلك الموضوع التقليدى ، موضوع « صراع القدماء والمحدثين » بأن تركت القديم والجديد يعيشان ويتعايشان ، ولم تعن إلا بإقامة توازن حرج كثيراً ما قام على الاعتماد على القديم لاستحداث الجديد ، خشية أن يكون الجديد أكثر جدة مما يسوغ لها . كذلك تركت الثورة المصرية معلقاً بدون إجابة موضوع الثيوقراطية والعلمانية كأساس للدولة فى مصر . وبينما نجد أن ثورة ١٩٥٢ ، قد قبلت من جميع الوجوه وبجميع المعانى ، بلا تحفظ وفى غير إبهام ، الفكرة التقليدية والتطبيق التقليدى لنظرية الدولة فى مصر منذ محمد على بوصفها قائمة على دعائم مدنية وعلمانية ، فإنها بالرغم من ذلك سمحت للفكر الثيوقراطى أن يتغلغل فى عقول الملايين من المواطنين بإتاحة المنابر الحرة لذلك النمط من واعظ القرية المتخلف من العصور الوسطى ، وبنشر التعاليم البيوريتانية من خلال برامج التعليم ومن خلال أجهزة

الإعلام الجماهيرى . فعندما نسمع نداء « الله أكبر » يتجاوب فى مدينة الألف مئذنة نحسب أن القاهرة غارقة فى حلم من التقوى الشاملة لايزال يحلق فوق رؤوس الناس منذ عهد الخلفاء الراشدين ، فى حين أن مشهد المينى جيب والشورت الساخن فى شوارع القاهرة يردنا إلى حقائق الحياة المألوفة فى أية عاصمة عصرية من عواصم البحر المتوسط . وبالمثل فإن ثورة ١٩٥٢ تركت معلقاً بدون إجابة موضوع تعريف القومية العربية برغم أن طوفان العروبة كان فى بعض لحظات شديد التلاطم إلى حد كان ينبغى معه التوصل إلى تعريف ما للقومية العربية يعطى هذه الحركة منطقاً متماسكاً ومقبولا . وهكذا تركت القومية العربية والوحدة العربية للتأرجح بشدة من شخص لآخر ومن حزب لحزب ، ومن أمة لأمة ، بحيث اشتمل مدلولها على أى شئ من العنصرية السافرة إلى الجامعة الإسلامية ، إلى التأليه الرومانتيكى للثقافة المشتركة ، إلى مجرد التضامن الخالى من الرومانتيكية فى سبيل المصلحة المشتركة . حتى الموقف الرسمى من هذا الموضوع قد تأرجح بشدة بين ثلاثة اتجاهات كانت تسمى يوماً ما بوحدة الهدف ووحدة العمل ووحدة الصف . هذا نفسه ينطبق على الفكرة الاشتراكية نظرياً وفى التطبيق . فإن ثورة ١٩٥٢ تركت معلقاً بغير إجابة موضوع شكل الاشتراكية المصرية ومحتواها ، أو على الأصح مبدأ تأميم وسائل الإنتاج ، الذى فهمه البعض على أنه رأسمالية الدولة ، فى حين تمنى له غيرهم أن يتطور إلى ملكية الشعب لفوائض القيمة ملكية حقيقية ، وعلى حين أراد له فريق ثالث أن يطابق الفكرة الدينية عن

ملكوت المؤمنين على الأرض ».

كل هذه الأفكار المتناقضة سمحت لها الثورة أن تتعايش تعايشاً سلمياً في السنوات العشرين الماضية ، ومضت الثورة تشق طريقها بمنهج التجربة والخطأ ، رافضة أن تلتزم بنظرية محددة . فبدت وكأنها تطبق نوعاً من الحياد الإيجابي على كل هذه النظريات . وبالمثل سمحت الثورة لكل هذه النظريات المتضاربة أن تعيش بشرط ألا تحاول أن تجسد نفسها في سياسيات وبرامج تطبيقية ، أو حتى أن تكتسب من القوة الذاتية ما يجعلها تشكل ضغطاً على الدولة . بعبارة أخرى احتملت هذه النظريات في ساحة ما بقيت نظريات . فلم يكن يسمح بالاستقطاب ولم يكن « التجمع » الايديولوجي موضع رضاً ، وقد حلت صيغة الاتحاد القومي أولا ثم الاتحاد الاشتراكي ثانياً ، بوصفه « تحالفاً » بين الطبقات . مشكلة الصراع الطبقي والتناحر الحزبي . غير أن الإصرار على رفض مبدأ قيام الاتحاد القومي، أو الاتحاد الاشتراكي بوظيفة الحزب في دولة تقوم على مبدأ الحزب الواحد قد جعل التنظيم السياسي أيضاً عاجزاً أمام الدولة .

كل ذلك قلل من إمكانيات الحوار في المجتمع المصري . وقد استندت نظرية الدولة على أن الحوار هو بداية التشاتم ، وأن التشاتم هو بداية الحرب الداخلية والفرقة اللتين ما جاءت ثورة ١٩٥٢ إلا لتتجنبهما . وقد بنت قيادة الثورة شرعيتها على مبدأ واحد ، وهو أنها لا تمثل طبقة واحدة ، ولا تمثل مجموعة واحدة من المصالح ، ولا تمثل مجموعة واحدة من الأفراد ، وإنما تمثل الأمة كلها . ومن أجل ذلك كان لزاماً عليها أن تكون

فوق الطبقات وفوق مجموعات المصالح . إلخ .. ولهذا كان لكل مواطن الحق فى أن يعبر عن نفسه بالمونولوج الصغير المتصل بشخصه ، وأن يعرب عن معتقداته ، وعن شكواه ، وعن احتياجاته داخل الإطار العام للأشياء ، وكانت القيادة الملهمة تصغى باهتمام إلى صوت « الشعب » . وفى هذه النظرة التوحيدية للدولة تصبح إرادة « الشعب » هى مجموع إرادات الأفراد . فكل فرد يقف وحده مع الدولة أو عليها .

وقد مكن هذا النقص فى النظرية ثورة ١٩٥٢ إلى حد كبير من أن تتجنب الوقوع فى صدامات دموية مع أعدائها ، وهو ما تميزت به الثورات الأخرى إلى حد كبير . فكثيراً ما يكون طغيان الإيمان بعقيدة أو بأسطورة إنسانية أو اجتماعية هو المحرك إلى العنف وسفك الدماء . غير أن هذا النقص نفسه فى النظرية ، وهذه الرغبة فى التوفيق بين النقائض وتركيبها بقصد تجنب الصدامات ، هما اللذان أفضيا إلى عجز الثورة المصرية عن أن تهىء للشعب المصرى فلسفة ثورية متجانسة وأسلوباً ثورياً متجانساً فى الحياة . فهى قد تركت المصريين يؤمنون بما يريدون الإيمان به بشرط ألا يعتدوا على الخطوط العريضة التى أرستها الثورة . وعلى الأقل حتى دستور ١٩٧١ كان يمكن للمواطن المصرى أن يكون ماركسياً أو أخاً مسلماً بشرط ألا ينتمى إلى جماعة منظمة ، وبشرط أن يتعاون مع النظام . وقد تركت ثورة ١٩٥٢ أكثر الأشياء للطبيعة ، واعتمدت فقط على قوانين التحول الاقتصادى الصارمة . صحيح أن الناس فقدوا عقلياً العمل بمبدأ « دعه يفكر » حين فقدوا اقتصادياً العمل بمبدأ « دعه يعمل »

لكن صحيح أيضاً أن الفلاح المصرى الذى مسه الإصلاح الزراعى والعامل المصرى الذى مسه التصنيع لا يملكان أية عقيدة ثورية متميزة ، أو أى أسلوب ثورى متميز فى الحياة . وصحيح أيضاً أن مئات الآلاف من النساء المصريات قد تحررن فى عهد الثورة « بقوة الواقع » بسبب تعليم المرأة وتشغيل المرأة ، ولكنهن لم يتحررن بعد « بقوة القانون » : بل لم ينلن أدنى اعتراف بالمساواة فى مجتمع قائم على سيادة الذكور ، برغم أن الميثاق والدستور معاً قد حرصا على إعطاء المرأة المصرية وضع المواطنة الكاملة .

وقد قامت نظرية الوحدة الوطنية على أساس من نظرية الوحدة الاجتماعية ، وهى ما يسمى أحياناً « بتذويب التناقض بين الطبقات » . وقد قللت هذه من إمكانية الحوار الصادق فى المجتمع المصرى ، ثقافياً كان أو غير ذلك . وكان شعار المرحلة هو الاكتفاء الذاتى ، والاكتفاء الذاتى بنص تعريفه هو نفى لفلسفة الحياة القائمة على « الأخذ والعطاء » فهو على أحسن الاحتمالات يفترض القدرة على أن نعطى من دون أن نأخذ ، على أن نؤثر من دون أن نتأثر ، على أن نصدر من دون أن نستورد . كما أنه كان يرضى كبرياءنا القومى على المستوى المادى أننا كنا نعتقد أن مصر ، التى ظلت آلاف السنين بلداً زراعياً تضرب به الأمثال فى اعتماده على الزراعة ، قد أصبحت منذ ١٩٥٢ بلداً كامل التصنيع « ينتج كل شىء من الإبرة إلى الصاروخ » كذلك كان يرضى كبرياءنا القومى على المستوى الثقافى أن نعتقد أن الثقافة العربية كانت مكتفية

بذاتها ، على الأقل منذ ظهور الإسلام وسيادة العرب فى العصر الذهبى . ولم يكن مجرد افتراض ضمنى وإنما كان موضع تأكيد صريح أن الثقافة العربية كانت تجسد كل ما يستحق الاهتمام من القيم الميتافيزيقية والإنسانية والاجتماعية ومن التقاليد ومن المؤسسات المدنية بوصف أن هذه جميعاً نابعة من مبادئ الدين . وقد كانت هناك حقاً مظاهر فساد وانحراف عن الطريق القويم بعد أن استسلم العرب للغزاة الأجانب وتعرض الدين للزندقات اللعينة الوافدة من مصادر أجنبية . وقد كان الحل هو أن نطهّر قيمنا الميتافيزيقية والإنسانية والاجتماعية وأن نطهر تقاليدنا ومؤسساتنا الاجتماعية بالرفض الأعظم لكل ثقافة « مستوردة » وأن نبعث الثقافة الدينية الأصيلة الموروثة عن العصر الذهبى فى التاريخ العربى . ولما كان الناطقون بالعربية يختلفون فى تحديد أى عصر من العصور كان العصر الذهبى فى التاريخ العربى ، أهو عصر الرسول والخلفاء الراشدين أم عصر بنى أمية أم عصر العباسيين ، فقد اختلفوا أيضاً حول تحديد شكل هذا البعث العظيم وماهيته .

أما البيوريتان فقد آمنوا بحكومة ثيوقراطية تقوم على البيعة وتؤسس على تفويض السلطة لا على التمثيل النيابى ، كما آمنوا بمجتمع طبقى وبنظام يقوم على تقديس الملكية الخاصة « وبالإحسان » كأداة للعدل الاجتماعى ، وبكافة الفضائل الاقتصادية التقليدية التى تشجب فلسفة اللذة بكل درجاتها ، من عبادة الجمال السافرة إلى تذوق الفنون الجميلة ، بوصفها من عمل الشيطان ، وهؤلاء آمنوا « بالأطفال والمطبخ والمعبد » — كما كان الألمان

يقولون كوظيفة للمرأة ، و بفصل الجنسين ، و بوضع حدود لتعليم المرأة . وعندما واجهوا الاشتراكية المخففة التى نص عليها ميثاق عبد الناصر فى ١٩٦٢ هاجموها بوصفها زندقة . (وقد كان مما يثير الرثاء أن نرى بعض الماركسيين المصريين ودعاة الاشتراكية العربية ، رغبة منهم فى تسكين غضب البيوريتان يحتجون بأن الدين هو الينبوع الذى نبعت منه الاشتراكية ، ولكى يثبتوا حجتهم ، كانوا يقتطفون بعض الآيات المقدسة من القرآن مما يندد بغطرسة الأغنياء ويحض على الرحمة بالفقراء ، أو يستشهدون بأبى ذر الغفارى ، وهو فارس من دعاة المساواة عاش فى عصر الرسول وكان يطالب بالعدل الاقتصادى فى صدر الإسلام) .

ومع ذلك لم يكن هؤلاء المتطرفون ، برغم نشاطهم الجم ونبرتهم العالية ، يمثلون القسم الأكبر من الرأى العام حول الاشتراكية العربية والثقافة العربية . فهم لم ينجحوا إلا فى خلق جو جعل القيادة السياسية نفسها والصحافة وغيرها من وسائل الإعلام تقف موقف المعتذر عن تحديد الملكية الزراعية وعن تأميم وسائل الإنتاج الضخم . وكان الدفاع دائماً ما يقوم على أن هذه الإصلاحات لها سوابق فى تاريخنا المجيد وليست مجرد مستوردات من الفلسفات الأجنبية والتطبيقات الأجنبية ، بل على العكس من ذلك ، كان يقال فى تأكيد إن الاشتراكية العربية إضافة إيجابية للنظرية الاقتصادية والسياسية المستوحاة مائة فى المائة من الظروف والأحوال العربية . وكانت هناك درجة من الصدق فى هذا الاعتراف !
وقد قاتل الماركسيون المصريون وخسروا معركة باسلة حين حاولوا أن

يثبتوا أن الاشتراكية هى الاشتراكية فى كل مكان ، وأنه ليس ثمة شئ اسمه الاشتراكية العربية أو الاشتراكية اليوجوسلافية أو الاشتراكية الروسية ، وإنما هناك فقط « طريق » عربى أو يوجوسلافى أو روسى إلى الاشتراكية . والأرجح أن هذه المعركة الأيديولوجية التى دارت خلال سنتين أو ثلاث بعد إعلان الميثاق ، أى بين ١٩٦٢ و١٩٦٥ ، كانت أكثر تفلسفاً مما يسوغ فهمه للرجل العادى الذى لم يحتجز فى عقله من كل هذه الضوضاء إلا فكرة واحدة أساسية تتسق مع مبدأ الاكتفاء الذاتى الذى جاءت به الثورة فى مجموعه . هى أن العربى الصالح والمسلم الصالح لا يجوز له أن « يستورد » بضائعه أو ثقافته أو مبادئه الاقتصادية والسياسية . وإنما عليه أن يصنعها بنفسه وفقاً لظروفه واحتياجاته وغاياته . حتى ولو كانت النتيجة شيئاً يختلف تماماً عن التعريفات والمفهومات المتعارف عليها . هذ المبدأ نفسه ينطبق على الديمقراطية فى النظرية وفى التطبيق وعلى النظريات الثقافية والسوسيولوجية كافة .

وهذا الاتجاه فى حد ذاته كان يمكن أن يكون أساساً براجماتياً صحياً للفكر النظرى وللتطبيق العملى لولا أن تأليه الذات القومية وتقديس الثقافة القومية والتجربة القومية والأسلوب القومى فى الحياة قد أفضيا إلى أننا فرضنا العزلة على أنفسنا بأنفسنا وإلى أننا عجزنا عن التفاهم مع بقية بلاد العالم . وقد كانت هذه هى محنة مصر الحقيقية قبل ١٩٦٧ : إنها كانت تحيا فى حالة مونولوج متصل ، عاجزة عن الإرسال عاجزة

عن الاستقبال . وقد تغير هذا الاتجاه تغيراً ملموساً منذ كارثة حرب يونيو .

وقد أدى الاعتقاد فى أن الثقافة العربية مكتفية بذاتها إلى توقف التواصل مع الثقافات الأخرى ، ولا سيما الثقافة الغربية التى كانت تقليدياً خلال القرنين الماضيين مفاعلا جوهرياً فى نهضة البلاد الناطقة بالعربية ، ففى مصر خلال عشر سنوات كانت دراسة اللغات الأجنبية ينظر إليها رسمياً وشعبياً على أنها من البقايا الكريهة المتخلفة من العهد البائد الذى اشتهر باعتماده المشين على الدول الإمبريالية والاستعمارية ، ولا سيما بريطانيا وفرنسا . وفى برامج التعليم اختصر تعليم الإنجليزية اختصاراً مخلاً ، وغدت اللغة الإنجليزية مادة اختيارية يجوز للطالب أن ينجح فيها أو يرسب . بعد أن كانت اللغة الأجنبية الأولى الإجبارية طوال السنوات الخمس فى التعليم الثانوى . أما اللغة الفرنسية فقد ألغيت تماماً أو أوشكت . وكانت نتيجة ذلك أن أجيالا وأجيالا من الشباب كانت تلتحق بالجامعات المصرية بدون أن تعرف من الإنجليزية أو الفرنسية شيئاً ذا بال . وفى الوقت نفسه ، لأسباب مختلفة اضطرب ورود الكتب والدوريات والجرائد الإنجليزية والفرنسية اضطراباً عظيماً بعد أن كان سيله متصلا . ومنعت الدولة الدراسة فى الخارج إلا لأبحاث الدكتوراه فى عدد محدود جداً من المجالات العلمية . وقصر السفر إلى الخارج على العلاج الطبي والمهمات الرسمية ، وأخضع لإشراف الدولة . كذلك كان الاتصال بالأساتذة والخبراء والصحفيين بل والسياح الأجانب لا يقابل

بالرضا . وبعد أن غادر مصر ثلاثة أرباع المليون من الأجانب المحليين في هجرة جماعية في بداية عهد ثورة ١٩٥٢ طرأ تغيير مفاجئ وتام على المناخ الثقافي والاقتصادي والاجتماعي . فلم تعد القاهرة والإسكندرية مدينتين « كوزموبوليت » حتى قبل حرب السويس في ١٩٥٦ بفترة طويلة . ولاشك أن الثورة كان لديها من الأسباب القوية ما يجعلها تبالغ في تأكيد اكتفاء مصر الذاتي في الثقافة القومية ، ولكن النتيجة كانت عزلة مصر الثقافية دون أن يتولد لديها الإحساس بالعزلة . ونحن لم نبدأ نحس بالحاجة إلى مزيد من الحوار الثقافي الصادق مع بقية بلاد العالم إلا منذ عام ١٩٦٧ .

والآن ما هو الموقف منذ ١٩٦٧ ؟ لقد دار بيننا التفتيش في أعماق النفس على أوسع نطاق منذ هزيمتنا في حرب الأيام الستة . وقد أدرك الكثيرون منا أن مواجهتنا مع إسرائيل ليست مجرد مواجهة عسكرية ولكنها مواجهة بين شكلين من أشكال الحضارة . ومن هنا كان اعترافنا على كل مستوى بأن علينا أن ندعم أسس الدولة العصرية في مصر ، وأن نقيم الحوار المثمر بيننا وبين بقية بلاد العالم ، ليس من الناحية السياسية فحسب ، ولكن من الناحية الثقافية كذلك . والظروف الآن تبدو ، على الأقل ظاهرياً ، مناسبة لإجراء هذا الحوار الثقافي الصادق مع الغير وداخل المجتمع المصري نفسه . فإحساس المغرورين باكتفائنا الذاتي يتلاشى الآن بسرعة عظيمة ، ويبدو أننا مقبلون على فترة من مراجعة معتقداتنا الأساسية ونمطنا التقليدي في الحياة واسعة المدى . وليس أدل

على هذا من القلق العام الذى يعيش فيه المثقفون المصريون اليوم . ومع ذلك فالمستقبل وحده هو الذى سيكشف إن كان القلق الحالى سيفضى إلى منهج جدلى إيجابى فى الفكر والسلوك أم إنه سيكثف فينا شعور المارد الهائج المحاصر. ففى اعتقادى أن الكثير يتوقف على بلوغ حل عادل لمحنتنا الراهنة ، فالناس فى قمة الغضب عاجزون عن الحوار المنطقى .



الفصل الثامن

مصر

ما وراء البحار

كان أهم ما عنيت به فى أثناء رحلتى الأمريكية أمران : دراسة أحوال المصريين المقيمين فى الخارج ، وأكثرهم من الأمريكان المهاجرين ، ثم جمع الانطباعات عن رأى الأمريكان فى حل الصراع العربى الإسرائيلى القائم . وقد أتاحت لى تنقلاتى الواسعة عبر عشرة آلاف ميل داخل أمريكا وبين اثنتى عشرة جامعة فى اثنتى عشرة مدينة أن ألتقى بالمئات والمئات من الناس على كل مستوى وأن أناقشهم أو أن أسألهم فى هذا الموضوع وذاك . وكان أكثر من قابلت طبعا من الأساتذة والطلاب ، ولكنى التقيت كذلك بعديد من الفنيين والمهنيين كالمهندسين والأطباء وبعديد من رجال الإعلام من صحفيين وإذاعيين إلخ .. كما التقيت بعديد من العاملين فى الأمم المتحدة . ومن هؤلاء جميعاً جمعت انطباعاتى عن هذين الموضوعين .

وفى كل بلد نزلت به كان هناك مصريون مهاجرون فى انتظارى أو فى انتظار أن ألتقى بهم على موعد ، فقد كنت حريصاً ، وكانوا حريصين على ترتيب هذه اللقاءات . وكانت اللقاءات تجرى عادة فى

صورة حفلات استقبال ، ومن هؤلاء المهاجرين من كانوا أصدقاء أعزاء لى رمى بهم الزمان إلى تلك الشطآن البعيدة . وفى كل مرة كنت ألتقى بجماعة من المصريين المهاجرين كنت أحس بالحزن الشديد ، فقد وجدت أكثرهم مصابا بعاهات نفسية كلها من حب مصر . ومن هؤلاء من كان شغله الشاغل ، برغم حصوله على الجنسية الأمريكية ، أن يثبت لى أنه مصرى أكثر منى وأنه يعرف مصر أكثر مما أعرفها . ومنهم من حصل على الجنسية الأمريكية وهو يستحى أو يخاف أمامى أن يقرر ذلك فتراه ينكرها بشدة . ومنهم من يشكو لك القنصلية المصرية لأنها ترفض منذ عشر سنوات تجديد جواز سفره المصرى . ومنهم من يشكو لك وزارة الداخلية المصرية لأنها لا تعنى منذ عشر سنوات بأن ترد على طلبه بالإذن له بالعمل فى الخارج ومنهم ومنهم ومنهم . لكل منهم قصة ولكل منهم قضية ولكل منهم مشكلة مع مصر . كلهم يتحرق لزيارة مصر حيث أهله وصحبه وعظام أجداده . وربما بعض المصالح المعلقة . وأكثرهم يخشى أن يزور مصر فلا يؤذن له بتأشيرة خروج . هذا بسبب الضرائب وذاك بسبب الخدمة العسكرية والثالث بسبب إذن العمل والرابع بسبب نفقات الدراسة التى تطالب بها إدارة البعثات ، إلخ . .

وكنت دائماً أسأل كل من أصادفه ، هل أنت سعيد فى أمريكا ؟ فيكون الجواب دائماً : نعم ، ولكن فيما يشبه التأوه على شىء ضائع هو نفسه الضائعة . ووجدت أكثرهم لا ينقصه شيء من ماديات الحياة : الفيلا والسيارة والأثاث المريح والدخل الكافى والعمل الناجح ، ومع ذلك فهو فى

قرارته يخفى قلقاً مكبوتاً يطفح من حين لحين . هذا بسبب بناته اللاتى بلغن سن الزواج وهو لا يريد لهن أن يتزوجن من شبان أمريكيين ، وذلك لأن صديقاً له قتل فى حادث سيارة فدفن فى أرض غريبة بغير شعائر دينه ، وهكذا . ويبدو أن الدفعات الأخيرة من المهاجرين المصريين الذين نزحوا إلى أمريكا بعد حرب يونيو كانوا أقل توفيقاً فى الحصول على أعمال تتناسب مع مؤهلاتهم . فكانوا يقبلون أية وظائف تعرض عليهم مهما كانت تافهة من أجل لقمة العيش ، وقد عمل منهم عدد غفير فى وظائف الحراس فى المخازن والجراجات وما إليها ، ومع ذلك فالمصريون المهاجرون برغم مايلم بهم من هموم العيش فى وطنهم الجديد لم يفقدوا روح الفكاهة المصرية .

وقد بدأ المهاجرون القدماء يحسون بأن عليهم واجباً نحو المهاجرين الجدد ، كما بدءوا يحسون بضرورة التجمع والترابط ، وهم الآن يحاولون إنشاء جمعية من الأمريكيين المصريين تكون لها فروع فى كافة بلاد أمريكا حيث يتجمع المصريون .

سألت صديقاً يعمل فى الأمم المتحدة : هل هناك إحصاء بعدد المهاجرين المصريين ؟ أجابنى : يرجح العارفون أنهم نحو ربع مليون فى العالم كله ، توزيعهم كالآتى : ٨٠ ألفاً فى كندا ، و ٨٠ ألفاً فى الولايات المتحدة ، و٨٠ ألفاً فى أستراليا و بقية بلاد العالم . قال يحيى أبو بكر عندما قابلته فى نيويورك : هذا تقدير مبالغ فيه . إنهم لا يتجاوزون ١٠٠ ألف فى العالم كله . وعندما عدت إلى مصر اطلعت على بعض

التقارير المتصلة بموضوع المهاجرين المصريين ، ومنها مطبوعات الجهاز المركزى للإحصاء وتقرير مدير إدارة المهاجرين بوزارة الخارجية المصرية فانتهيت إلى أن مصر ليست لديها أية معلومات يقينية عن عدد أبنائها العاملين فى الخارج . فلو أننا اعتمدنا على حصر من حصلوا على ترخيص من وزارة الداخلية بالعمل فى الخارج لوجب أن نضيف إليهم عشرات الآلاف ممن تقدموا بطلب التصريح ولم يجابوا إلى طلبهم سواء بالصمت أو بالرفض الواضح أو بالرفض المؤجل لوجود عيب شكلى فى علاقتهم بالحكومة المصرية ، ولوجب أيضاً أن نضيف إلى هؤلاء عشرات الآلاف من المصريين الذين تسللوا إلى الخارج فى سياحة أو فى مهمة وهمية مؤقتة أو تحت ستار العلاج أو أى ستار آخر ، أيام أن كان السفر إلى الخارج شيئاً قريباً من المحظورات ، ثم رتب أمر هجرته وهو خارج مصر خشية أن يحال بينه وبين مغادرة البلاد . وإذا نحن اعتمدنا على عدد تأشيرات الإقامة والهجرة التى منحتها كل قنصلية أجنبية فى مصر للمواطنين المصريين كأساس للإحصاء وجب أن ندخل فى الاعتبار حالات عشرات الآلاف من المهاجرين الذين لا تعرف القنصليات الأجنبية فى القاهرة عنهم شيئاً إلا أنهم كانوا يوماً ما سياحاً أو طلاب علم أو زائرين مؤقتين ، فهؤلاء رتبوا أمور هجرتهم أو إقامتهم الدائمة خارج الأراضى المصرية ، كذلك لا يمكن أن يعتد بعدد المصريين المقيمين فى الخارج الذين يتقدمون موسمياً إلى القنصليات المصرية فى مختلف بلاد العالم لتجديد جوازات سفرهم — لأن هناك عشرات الآلاف من المصريين الذين

اكتسبوا الجنسيات الأجنبية وأهملوا تجديد جوازاتهم المصرية ، لا زهداً في جنسيتهم المصرية ولكن كرها في التعامل مع البيروقراطية المصرية في مصر والخارج بعد أن يئسوا من التفاهم معها بسبب جمود القوانين واللوائح المصرية المطبقة عليهم .

بعبارة أخرى ليست هناك وسيلة واحدة بعينها نستطيع أن نحصر بها عدد المصريين المهاجرين والمصريين المقيمين في الخارج إقامة متصلة وإنما لا بد من اللجوء إلى خمس أو ست وسائل ربما كان في مقدمتها البحث الميداني . أو البحث على الطبيعة ، في مختلف بلاد العالم . وسواء أكان عدد المصريين المهاجرين أو المقيمين في الخارج ربع مليون أو مائة ألف . فهذا العدد في الحالين عدد رهيب ، وهو يجعل من اغتراب المصريين مشكلة قومية يجب أن تدرس على مستوى المسئولية سياسيًّا واقتصاديًّا وثقافيًّا ولا يترك أمرها لمجرد موظفين بيروقراطيين يطبقون قوانين ولوائح أكثرها وضع في ظروف غير طبيعية أو كان برغم سلامته ينفذ في جو غير طبيعي . فإذا عرفنا أن عشرات الآلاف من هؤلاء المهاجرين والمغتربين ينتمون إلى طبقة المهنيين والفنيين كالأطباء والأساتذة والمهندسين أدركنا أن النزيف الذي نزفته مصر سنويًّا عبر عشرين عاماً من خبرتها المهنية والفنية بل والمالية كان غزيراً حقًّا . ولا أظن أن السبيل الحقيقي إلى وقف هذا النزيف هو المنع والحظر والنهي والحد من حرية التجول ، لأن هذه الإجراءات قد أثبتت تجربة الأعوام والأعوام أنها هي التي أفضت إلى هرب الآلاف المؤلفة من الخبرات المصرية إلى الخارج . وأنا

شخصياً أعرف نحو مائة حالة معرفة شخصية قرر أصحابها الإقامة المتصلة في الخارج ، بل اكتساب الجنسيات الأجنبية أحياناً ، خشية أن يعودوا إلى مصر فتمنع عنهم تأشيرة الخروج ، فيحال بينهم وبين دراساتهم العليا أو بين أعمالهم التي يزاولونها في الخارج . وإنما يكون وقف هذا النزيف بدراسة الأسباب التي أفضت إليه وتفضي إليه ومحاولة إيجاد علاج له .

وقد كنت أدأب على طمأنة كل من أعرف ومن لا أعرف من المصريين في الخارج إلى أن المناخ العام قد تغير من هذه الناحية في مصر تغيراً محسوساً ، وأحثهم على زيارة مصر التي يتحرقون إلى زيارتها . ومع ذلك كنت أحس بأن إحساس المطارد لم يفارقهم منذ تلك الأيام التي كانوا فيها بالفعل مطاردين من مكاتب البعثات ، وكانت تهددهم بالويل والثبور لأنهم تجاوزوا فترة البعثة المقررة ، ومن القنصليات المصرية التي كانت ترفض تجديد جوازات سفرهم . وكنا بعد كل مناقشة حزينة ننتهي إلى هذا السؤال : كيف تضمن لنا العودة إلى أعمالنا ؟ لا يضمن هذا إلا قرار من رئيس الجمهورية أو من مجلس الوزراء ينظم من جديد علاقة المصريين المغتربين بما يسمونه هناك وا أسفاه ، « الوطن الأم » ، يقصدون «مصر». لقد كنت أوثر أن نسمي نحن أبناءنا المغتربين في أرجاء العالم الأربع « مصر ما وراء البحار » . وأنا شخصياً لا أحب كلمة « المهاجرين » وأفضل أن ننظر إلى جميع أبنائنا النازحين عنا على أنهم مصريون مقيمون في الخارج ، إلى أن يتنازلوا باختيارهم التام عن

جنسيتهم المصرية :

وأعتقد أننا يجب أن ننظر إلى موضوع أبنائنا المقيمين فى الخارج بعقلية جديدة ونفسية جديدة ، فمثلهم عندى مثل الابن أو البنت فى الأسرة إذا تزوج من أجنبية أو من غير دينه أو تزوج على هواه : هل تبتره الأسرة بتراً وتتبرأ منه أو تحاول أن تقبل منطقه وتحترم إرادته وتقيم الود معه موصولا ؟ فى المنطق التقليدى المحافظ طبعاً تنبذه الأسرة وتلعنه وتطرده طرد الكلاب . أما فى المنطق المتمدن فهى تحاول أن تقيم معه علاقات متضحرة مهما كان أسفها لقراره وأيا كانت بواعث هذا الأسف . فما بالنا إذا كانت الأسرة نفسها فى كثير من الأحيان هى المسئولة عن هذا الخطأ — إن كان هذا خطأ — بتزمتها أو رجعيتها أو تقتيرها على أبناء من دون أبناء أو عدم تقديرها لمشكلات المراهقة أو . . أو . . إلخ . . وقد ارتكب بعض المسئولين فى حق بعض المصريين المقيمين فى الخارج أخطاء أدت إلى هذا الانسلاخ الفظيع الذى غير مجرى حياة عشرات الآلاف من آبناء مصر وجعلهم يقررون الإقامة فى الخارج بل فرض عليهم فرضاً الإقامة فى الخارج .

خذ مثلا حالة طالب البعثة أو الإجازة الدراسية يفصل من بعثته ومن عمله فى مصر بسبب تجاوزه المدة المقررة لبعثته أو إجازته الدراسية لتلكئه فى العودة إلى مصر بعد انتهاء دراسته ، أيا كانت أسباب هذا التجاوز أو التلكؤ ، مشروعة كانت أو غير مشروعة . بالطبع هذا يرتب مسئولية مدنية على طالب البعثة أو الإجازة الدراسية أن يرد للحكومة



المصرية الأموال التى أنفقتها على تعليمه فى الخارج ، هذا حق مدنى واضح وصريح ولا يجادل فيه اثنان ، ويمكن للدولة أن تحصل عليه بحكم قضائى بسيط قابل للتنفيذ فى مصر على أموال المبعوث الآبق إن كانت له أموال . ولكن ما علاقة هذا الحق المدنى بسحب صفة المواطنة سحباً عرفيًّا وفعليًّا عن المواطن المدين للدولة سواء أقام داخل البلاد أو خارجها؟ لقد كانت قنصلياتنا فى زمن ما ترفض تجديد جواز سفر أى مصرى يفصل من دراسته أو من عمله أو لا يعود إلى مصر فور إخطاره بالعودة ، وهو إجراء غير دستورى قائم على بعض القرارات الإدارية الحمقاء التى اتخذها مسئولون غير مؤهلين لتحمل مسئوليات مناصبهم ، لأن إلغاء جواز سفر أو سحبه أو تعطيل فاعليته ينطوى على درجة من درجات إسقاط الجنسية عن المواطن ، وإسقاط الجنسية بنص الدستور لا يكون إلا وفقاً لأحكام القانون . ولا أعتقد أن هناك قانوناً من قوانين مصر يجيز إسقاط الجنسية المصرية عن المصريين المدينين للحكومة أيا كانت طبيعة هذ الدين . وفى اعتقادى أن أى مواطن فى الخارج رفضت القنصلية المصرية — التابع لها — تجديد جواز سفره لأى سبب من الأسباب إلا صدور قرار رسمى من الجهة المختصة بإسقاط الجنسية المصرية عنه يستطيع أن يحتكم إلى القضاء ويطالب الحكومة بالتعويض الكافى عن الأضرار المادية والأدبية التى وقعت عليه بسبب تشتيته فى بلاد الأرض بلا هوية أو مواطنة وحرمانه من رؤية آله وعياله ورعاية مصالحه فى مصر إن كانت له مصالح . وفى رأيى أن الحالة الوحيدة التى يجوز للسلطات

فيها أن تسقط الجنسية المصرية عن المواطن المصرى غير الإدانة بالخيانة العظمى بحكم القضاة الطبيعيين هى الفرار من الخدمة العسكرية أو رفض القيام بها عن إصرار وتبييت يتأكدان أمام القضاء الطبيعى . أما مادون ذلك فحقوق والتزامات مدنية أو جنائية لا علاقة لها بصفة المواطنة أو بالجنسية التى يولد بها كل مصرى كما يولد بلون جلده وبشكل عينيه وبطول قامته ولم يمنحها أحد لأحد . وما منحه الله لا يأخذه الإنسان .

وفى اعتقادى أنه ينبغى النظر إلى أبنائنا المقيمين فى الخارج . عاملين كانوا أو غير عاملين ، لا على أنهم مهاجرون وإنما على أنهم « مصريون مقيمون فى الخارج » حتى ولو اكتسبوا جنسيات بلاد أخرى لتصريف معاشهم إلا من طلب باختياره التنازل عن جنسيته المصرية . وبهذا المنطق ينبغى أن نسوى بين المصرى المقيم فى أوربا أو أمريكا أو استراليا إلخ . . وبين المصرى المقيم فى آية دولة من الدول العربية . فما دامت الحدود السياسية قائمة بين الدول العربية فاعتقادى أنه خدش لدستور البلاد الذى نص على أن المواطنين متساوون فى الحقوق والواجبات ، التمييز فى المعاملة بين مواطن مصرى مغترب يعمل فى أوربا أو أمريكا ومواطن مصرى مغترب يعمل فى السعودية أو الكويت أو الجزائر ، فنعامل الأول معاملة المهاجر فى حين نعامل الآخر معاملة المصرى المقيم فى الخارج ، ونسقط الجنسية عن الأول أو نكرهه على التنازل عنها بحيث لا يعود إلى مصر إلا عودة الأجنبى ، على حين نحفظ للآخر كافة حقوق المواطنة ، بل إننا بذلك نعاقب أبناءنا الشجعان الذين لم يتهيبوا

من التحدى الأكبر ، وهو أن يبحثوا عن الرزق والمستقبل بين أقوام أعلى منا حضارة ولا مكان بينهم لأجنبى إلا إذا كان ذا قدرات خاصة تحتاج إليها مجتمعاتهم ، ونسخو مع أبنائنا الذين يمشون فى دروب ممهدة وبين أقوام تكفى فيها الخبرة المألوفة لأنها ناقصة فى أكثر الخبرات . وقد التقيت بتلامذة لى يدرسون اللغة الإنجليزية وآدابها فى مدارس إنجلترا وأمريكا للطلبة الإنجليز والأمريكان ، وعندى أن مهمة هؤلاء أشق عشر مرات من مهمة أولئك الذين يدرسون اللغة الإنجليزية وآدابها فى مدارس العراق أو الكويت أو الجزائر . ومع ذلك تركت الأولين يشكون مشكلاتهم المصرية فى حين يعمل الآخرون تحت جناح مصر ورعايتها .

والمهم فى كل هذا أن نتوصل إلى الحلول الحاسمة التى تريح كل أبنائنا المبعثرين هنا وهناك وفى كل مكان . وأقترح فى سبيل ذلك العمل بالمبادئ التالية :

١ — أن يصدر قرار يحظر على أية سلطة إدارية منع أى مواطن مقيم فى الخارج لأى سبب من الأسباب للعمل أو لغير العمل ، للعمل بتصريح أو بغير تصريح ، من تجديد جواز سفره ، إلا فى الحالات التى تتوفر فيها أركان إسقاط الجنسية ، وأن يكون القرار المذكور بأثر رجعى .

٢ — أن يصدر قرار يحظر على أية سلطة إدارية منع أى مواطن مقيم فى الخارج من العودة إلى محل إقامته بعد زيارته لمصر لأى سبب من الأسباب وبأية حجة من الحجج .

٣ ــ أن يصدر قانون بأثر رجعى يبيح لأبنائنا المقيمين فى الخارج الجمع بين جنسيتهم والجنسية التى يكتسبونها لكسب عيشهم بحيث لا يفقد « المصرى المقيم فى الخارج » جنسيته المصرية إلا إذا تخلى عنها بمحض إرادته أو أدين قضائياً بتهمة التهرب من الخدمة العسكرية .

٤ ــ أن تنشأ بكل سفارة مصرية فى الدول التى يتجمع فيها المصريون المقيمون فى الخارج إدارة للمغتربين تتولى حصر أسماء المقيمين فى الخارج وأعمالهم ووسائل الاتصال بهم وتنظيم علاقاتهم بمصر ، كما تتولى رعاية الجمعيات والنوادى التى ينشئها المصريون المقيمون فى الخارج ، وتتولى تنظيم تعليم أبنائهم اللغة العربية ومبادئ الدين والتاريخ القومى .

٥ ــ أن تحصن بقوة القانون أموال المصريين المقيمين فى الخارج المودعة لدى البنوك المصرية بحيث لا يعزف المصرى المغترب عن إيداع أمواله فى البنوك المصرية خشية أن تعصف بها تقلبات القوانين .

٦ ــ أن يصرح للمصريين المقيمين فى الخارج بتملك الأطيان الزراعة والعقارات وأن يستثمروا فى الاقتصاد المصرى داخل مصر وخارجها حتى ولو كانوا قد اكتسبوا جنسية أخرى ، ولا يحظر عليهم إلا التصرف فيها بالبيع أو التنازل لأشخاص أو هيئات لاتحمل الجنسية المصرية .

٧ ــ أن يصدر قرار ينص على أن كل مصرى مقيم فى الخارج يتقدم بطلب للإذن له بالعمل فى الخارج ولا يصله رد من الجهات المختصة

عن طريق قنصليته خلال شهرين من إيداعه الطلب يعد طلبه مقبولا بصفة تلقائية ، وإنه فى حالة الرفض يجوز له الاحتكام لمجلس الدولة فى دائرة للأمور المستعجلة تنشأ خصيصاً للفصل فى هذه الأمور وأمثالها . أما المواطنون المقيمون فى مصر فتختصر المهلة إلى شهر واحد . مع تمتعهم بحق اللجوء إلى محكمة القضاء الإدارى .

هذه بعض التيسيرات التى يمكن أن نقدمها لأبنائنا المقيمين فى الخارج ، أن نجعلهم يحسون من أعماق قلوبهم بأن مصر لا تزال وطنهم ، لا مجرد وطنهم الحانى عليهم برخيص العواطف التى لا تكلف شيئاً . ولكن وطنهم الذى يملكون ترابه كما نملكه نحن المواطنين المقيمين . وأنا لست مع المغالين الذين يقولون « ما يبقى على المداود غير شر البقر » فهؤلاء يذهبون إلى النقيض الآخر فى تمجيد الحياة خارج حدودنا ، وإنما أقول إن أبناءنا المقيمين فى الخارج لا هم « خونة » ولا هم « خير البقر » . وإنما هم مجرد مصريين طموحين بالفعل أو بالوهم إلى حياة أفضل ، أو مصريين قلقين تولد عندهم شعور بالاضطهاد أو الاحباط بالفعل أو بالوهم . ولو أردت أن « تفرز » فصائل الصادقين لخصصت لكل سيرة ملفاً جسيماً تتوه فى أوله ومنتهاه . وبين هؤلاء وأولئك اندست النسبة المألوفة من المغامرين ومن الشواذ ممن تجدهم فى أى مجتمع من المجتمعات ،فلنقل إنهم أبناؤنا يبحثون عن حظهم فى الحياة ولنتمن لهم التوفيق أينما يذهبون .

المهم فى كل هذا أنه لا ينبغى أن نسمع مصرياً فى الخارج يقول لك :

عمرى الآن ٤٤ سنة . تخرجت بتفوق فى كلية الهندسة جامعة القاهرة عام كذا وأردت أن أتم دراسة الدكتوراه فى النمسا فرفض طلبى فى البعثة ورفض طلبى فى أن أتعلم على نفقتى ، فتوسلت إلى السفر المؤقت إلى فيينا وأنا فى الخامسة والعشرين ، وهناك أتممت علومى بامتياز بعد أربع سنوات فصلت فى أثنائها من عملى فى مصر ، فعينتنى جامعة فيينا مدرساً بها سنوات . ثم عينت أستاذاً بجامعة كذا فى الولايات المتحدة سنوات ، ثم عينت مديراً لمصانع كيميائية بمدينة كذا سنوات ، ثم عرض على كرسى الكيمياء فى جامعة كذا بمرتب ٣٠ ألف دولار سنويًّا ، وميزانية أبحاث مشابهة ، فقبلت العرض برغم أن دخلى من إدارة المصانع كان يربو على دخلى من الجامعات فأنا أحب التدريس . وفى كل مرة كنت أطلب تصريحاً بالعمل فى الخارج فلا يأتينى رد . وأصحاب العروض طبعاً لا يستطيعون انتظار الحكومة المصرية . . . وكلما أردت تجديد جواز سفرى ، قالوا : لا بد من شهادة المعاملة ، أو قالوا لا بد من إذن عمل . لكم أحب أن أزور مصر وأهلى . وهنا تقول : وماذا يمنعك ؟ فيجيب : وهل تضمن لى تأشيرة الخروج ؟ إن جامعتى لا تستطيع أن تنتظر . وحاولت أن أشرح له أن الأمور قد تحسنت من هذه الناحية . وبدا عليه الاقتناع ، غالباً ليس بسبب كلامى ، ولكن بسبب ما يقرؤه فى الصحف الأمريكية عن تغير المناخ فى مصر .

وتسمع آخر يقول لك : أنت تعرفنى وتعرف زوجتى . نحن الآن

فى الخمسين .. كنا من أوائل خريجى كليه الآداب فى أثناء الحرب . أكلوا حقى وحقها فى البعثة نحو ١٥ سنة برغم أننا انتهينا إلى التدريس فى جامعة عين شمس ، وأخيراً حصل كل منا على إجازة دراسية فى أمريكا وكنا فى نفس الجامعة فتزوجنا . وأنت تعرف مرتبات مصر الضئيلة. كانت تحوّل لنا فلا تكفى ، واضطررنا للتدريس فى المدارس الثانوية الأمريكية لنكمل دخلنا فتعطلنا سنتين ، ثم انتقلنا إلى إنجلترا لأنها أرخص وفيها تعطلنا سنة أخرى. وطالبت جامعة عين شمس منا العودة فوراً وكل منا على بعد ستة أشهر من الدكتوراه ، فلما لم ننفذ الأمر وطلبنا المد فصلنا معاً . وقد حصل كل منا على الدكتوراه واشتغلنا فى إنجلترا . ومنذ فصلنا وتجديد جواز سفرنا أصبح مشكلة . طلبنا إذن عمل فلم يصل إلينا رد . ماذا نفعل؟ هل نتضور جوعاً فى انتظار رد الحكومة ؟ طبعاً لا . إنهم يطالبوننا برد ما أنفق علينا ، ولكنهم نسوا أن لكل منا معاشاً مستحقاً عن خدمة عشرين سنة . ونحن على استعداد لإجراء مقاصة وتقسيط ما يتبقى علينا ديناً للحكومة . لماذا يرفضون تجديد جواز سفرنا ؟ ماذا جنينا ؟ لقد دفعونا دفعاً إلى طلب الجنسية البريطانية . لكم نتمنى أن نزور مصر ، ولكننا نخشى أن ندخل فلا نخرج

صورة رهيبة عن مصر عند المصريين المقيمين فى الخارج ، ولن يفلح فى إزالتها إلا صدور قوانين وقرارات رسمية على أعلى مستوى لتعيد الطمأنينة إلى النفوس . إن بعضهم – ربما أكثرهم – يعرف فعلا أن هذه التخوفات لم يعد لها ما يسوغها . فإخوانهم فى ظروف مشابهة

يدخلون الآن ويخرجون فلا يتعرض لهم أحد ، ولكنهم يحسون أن كل هذا التغير فى المناخ مجرد تغير فى العقلية والاجراءات الإدارية وليس محصناً بالقرارات والقوانين . بعبارة أخرى هى سماحة فردية مقترنة بظروف فترة تاريخية معينة ، وقد تنقلب السماحة إلى جهامة بين يوم وليلة . إنهم باختصار يأملون فى تنظيم لأحوال المغتربين له قوة الدساتير ، وليس رهينا بالقرارات الإدارية .

وهذا ما ينبغى أن نسعى لتحقيقه . أن نجعل المصريين المقيمين فى الخارج يتجولون فى أرض مصر محررين من الخوف كما يتجولون فى أى أرض غريبة

أعرف أستاذاً مصريًّا فى جامعة أمريكية يقضى إجازته السنوية كل عام مع أسرته فى قبرص أو فى لبنان أو فى إيطاليا ، يحوم حول مصر من بعيد دون أن يجرؤ على الدخول اتقاء للمجازفة . وأعرف آخرين قالوا لى فى حزن عميق : لن نموت فى بلاد الغربة . إننا عائدون . وعندما نقترب من سن الشيخوخة سوف نرجع إلى حيث جئنا لنموت على ضفاف النيل العظيم .

ألم يكن هذا ما يفعله الإنجليزى أو الفرنسى حين كان يقضى عامة حياته موظفاً أو تاجراً أو صانعاً فى مصر والسودان أو فى مجاهل إفريقيا ، وبعد أن تنقضى حياته العملية كان يتقاعد فى بلاده حيث تنتظره داره الريفية ورصيده فى البنك وذكريات حياته الحافلة بكل الألوان ؟ ولماذا لا نمهد منذ الآن لعودة المستوطن المصرى فى نائى البلاد بعد أن يستوفى أجل

جهاده من أجل الرزق إلى صدر أمه الحنون التى تحمل همه فى حضوره وفى غربته وتتبعه بعيون ملهوفة فى الحل والترحال ؟ فإن شاء بعد كل هذا أن يتخذ لنفسه داراً غير داره وقوماً غير قومه مآبا ، جاده الغيث إذا الغيث همى أينما دبت قدماه أو ارتاح رميمه فى رحاب الله الواسعة .



الفصل التاسع

المسألة المصرية

عفواً إذا تكلمت فى السياسة ولكنه شيء لا مفر منه بعد رحلتى الأمريكية .

كان الموضوع الآخر الذى اهتممت به فى أثناء زيارتى لأمريكا بعد دراسة أحوال المهاجرين المصريين ، هو دراسة آراء الأمريكيين فى الصراع المصرى الإسرائيلى بصفة خاصة ، وفى الصراع العربى الإسرائيلى بصفة عامة . والحق أنى كنت أينما ذهبت فى أوربا ثم فى أمريكا أجد هذا الموضوع يطرح نفسه من تلقاء نفسه .

ولم يكن فى الكلام أية درجة من درجات الغموض هنا أو هناك . كانوا فى فرنسا واضحين ، وكانوا فى إنجلترا واضحين . كذلك كانوا فى أمريكا أوضح من الوضوح . وقد سبب لى هذا الوضوح حيرة حقيقية لأن بعض ماشاع بيننا فى مصر من آمال متفائلة حول إمكانيات التوصل إلى حل سلمى مع العدو الإسرائيلى لا يمكن استخلاصه بتاتا مما سمعت من آراء فى أمريكا وفى غير أمريكا . فمن أين جاء اللبس إذن ؟

هناك تفسيران : إما أن هناك مشكلة لا تفاهم لغوى حقيقى بيننا وبين الأمريكيين : يقولون شيئاً فنفهم شيئاً آخر لا ختلاف عاداتنا عن

عاداتهم فى التعبير ، وإما أن الأمريكيين ، حينما كانوا يخاطبوننا فى أمر التسوية السلمية كانوا يستخدمون لغة مبهمة ملفوفة تحتمل أكثر من تخريج ، لغرض فى نفس يعقوب أو لمجرد ترك باب الحوار نصف مفتوح .

وللقوم هناك عادات فى التعبير تحتاج إلى معرفة خاصة ، لأنها وليدة تمرس حضارى معقد عبر مئات السنين . فهم إذا أرادوا مثلا أن يرفضوا لك طلب استخدام بطريقة مهذبة فربما قالوا : إن مؤهلاتك أعلى من الوظيفة المطلوبة ، والمقصود طبعاً فى بطن المتكلم أنك ستكون — او استخدمناك — موظفاً قلقاً متذمراً ساخطاً مشاغباً لا يشتغل بأداء عمله بقدر ما يشتغل بالمطالبة بتصحيح وضعه و«المريسة» على أقرانه ، فتفهم من الكلام أنهم يعظمونك ، وهم فى حقيقة الأمر يغلقون الباب فى وجهك وهكذا .. ولكن هناك أيضاً احتمالا آخر قوياً ، وهو أن أمريكا منذ البداية ضالعة فى المخطط الإسرائيلى بحيث أنها سخرت نفوذها الشخصى لوقف إطلاق النار بقصد تدجيج إسرائيل بالسلاح استعداداً لجولة قادمة ، أى أنها تكرر نفس لعبة "هدنة ١٩٤٩ .

كذلك هناك احتمال ثالث قوى لا يمكن استبعاده ببساطة وهو أن أمريكا — كما يقال — أمريكتان : أمريكا البنتاجون والسى آى ايه ، وهى التى تملك القوة الحقيقية فى توجيه السياسة الأمريكية والعمل الأمريكى ، وأمريكا وزارة الخارجية ، وهى الطرف الأضعف الذى لا يملك إلا حسن النية . وهذا هو الطرف الذى سمح لنفسه أن يتفاوض معنا ويوهمنا

بأن الحاول السامية ممكنة وشيكة ، دون أن تكون له الفاعلية الكافية لترجمة وساطته من فكر إلى فعل . فنحن إذن فريسة سياسة وموظفين لا يملكون من أمرهم شيئاً أو يلعبون بقضيتنا فى صراعهم مع المؤسسة العسكرية الأمريكية للتأثير على قرارات البيت الأبيض .

وقد قرأت فى أثناء وجودى فى أمريكا مقالا هاماً للمعلق الصحفى المعروف جوزيف كرافت نشرته مجلة النيويورك تايمز الأسبوعية صور فيه ذلك الصراع بين خبراء الشرق الأوسط فى وزارة الخارجية الأمريكية وبين القوى الحقيقية الموجهة لقررات البيت الأبيض ، ومنه نستخلص أن هؤلاء الخبراء ، وهم نحو مائتى خبير ، لا حول لهم ولا قوة إزاء القوى الحقيقية التى تؤثر فى صياغة قرارات رئيس الولايات المتحدة الأمريكية . وفى المقال استهانة شديدة ، ليس فقط بفاعلية هؤلاء الخبراء وإنما أيضاً بقدراتهم وبجديتهم بل بصلاحيتهم لتحمل المسئوليات التى يتقلدونها . وحين نشر هذا المقال كان له دوى كبير بين كافة المهتمين بشئون الشرق الأوسط فى أمريكا ، وقد قوبل بامتعاض شديد من أكثر « أصدقاء العرب الأمريكيين » ولا سيما كبار الخبراء الذين تربطهم بالشرق الأوسط صلات عمل أو مصالح . ولم أجد تفسيراً للغضب العام على هذا المقال إلا أنه « فقع الدمل » الحقيقى فى سياسة أمريكا حيال مشكلات الشرق الأوسط . فلنقل إنه مقال كتبه رجل يهون من شأن أصدقاء العرب فى أمريكا ، ولكن ربما كان من النافع أن نستمع حتى إلى كلام الأعداء .

وخلاصة القول أني وجدت في فرنسا ، ولا سيما بين المحافظين : ميلا قويًّا إلى تفهمّ وجهة نظر المصريين والعرب بعامة ، وبتبنّيها في إطار إمكانيات فرنسا المحدودة ، ميلا نابعا من الديجولية القائمة على مبدأ استقلال إرادة فرنسا داخل المعسكر الغربي وعلى استرداد فرنسا لهيبتها ومصالحها في البحر المتوسط بالذات وفي العالم العربي بصفة خاصة . أما الاشتراكيون الفرنسيون فهم أقرب إلى تفهم وجهة نظر إسرائيل ولكن في غير نطاعة أو رفض تام للحوار مع العرب . وقد نصحني فرنسي من أهل اليمين أن نحاول الإكثار من الحوار مع اليسار الفرنسي المضلل بالشعارات ، مع ميتران وكل ماهو على يسار ميتران ، لأن كسب اليسار الفرنسي سيقلل من أشياع إسرائيل في فرنسا . وقد تركت المظاهرة التي قام بها يهود فرنسا احتجاجاً على زيارة بريجنيف لباريس في أكتوبر ١٩٧١ استياء عاماً بين الفرنسيين ، وبدأ بعض المثقفين الفرنسيين حتى من أهل اليسار ، يرتابون بالفعل في ولاء يهود فرنسا لفرنسا نفسها وتقديم تشيعهم لإسرائيل على حرصهم على مصالح فرنسا التي يخدمها التقارب الفرنسي السوفييتي . وقد ذكر لي مسئول فرنسي من كبار خبراء الشرق الأوسط في وزارة الخارجية الفرنسية أن فرنسا قد استنفدت في المحادثات الرباعية كل الوسائل لإقناع أمريكا بالضغط على إسرائيل لتنفيذ قرار الأمم المتحدة ولكن دون جدوى . وقد كان الطابع العام للمحادثات الرباعية وقوف فرنسا وإنجلترا والاتحاد السوفييتي في جانب ووقوف أمريكا بمفردها في جانب ، ولما كانت

الدول الثلاث لا تملك غير الإقناع سبيلا ، فقد أحبطت أمريكا بمفردها كل المداولات فى المحادثات الرباعية ، ولم تبق إلا وسائل الضغط على أمريكا وهو ما لا تملكه الدول الثلاث .

هذا الموقف نفسه هو موقف إنجلترا مع شيء من التخفيف ، وقد اعترف لى صديق من كبار المسئولين عن المنطقة العربية فى وزارة الخارجية البريطانية بأن البريطانيين قد حاولوا ما استطاعوا إقناع الأمريكان بوجهة نظرنا ولكن دون جدوى ، وبأنهم لا يملكون «الضغط» لأن بريطانيا الآن أضعف من أن تضغط على أمريكا . ربما . ولكن يخيل إلى أن المصالح الأوربية التى تبلورت فى الضمير الأوربى الذى تجلى أولا فى قرار الأمم المتحدة فى نوفمبر ١٩٦٧ ، ثم تجلى فى تجديد هذا القرار منذ شهرين فى ديسمبر ١٩٧١ خليقة او وجدت من ينميها : أن تشكل ضغطاً حقيقيًّا على الإرادة الأمريكية . فالدول المتقدمة لا تتكلم بعواطفها ولكن تتكلم بمصالحها . وما يسمونه القدرة أو عدم القدرة على الضغط هو فى نهاية الأمر موازنة بين مصلحتين . ويخيل إلى أننا — ريثما نستعد للقتال استعدادنا الحاسم — ربما وجدنا خيراً فى البحث عن المصالح « المشروعة » المشتركة بيننا وبين أوربا وغيرها من بلاد العالم ننميها ونعمقها لعلها تؤثر فى موازين القوى. بعبارة أخرى : العمل على « عزل » أمريكا بعد أن يئسنا من « تحييد » أمريكا .

أما فى أمريكا نفسها فالرأى العام قد سممته أجهزة الإعلام الأمريكية ومواقف الساسة الأمريكان ومراكز القوى الأمريكية ، فالأمر

قد تجاوز أن يكون مجرد سيطرة يهود أمريكا أو الصهيونية العالمية على الصحف والإذاعة والتليفزيون كما يحلو للبعض أن يتوهم ويوهم الغير . وأنا لا أحاول بهذا أن أقلل من فاعلية النشاط الصهيوني خاصة واليهودي عامة في أمريكا ، ولكني أقول إن المبالغة في التهويل من شأنها خرافة سياسية نشرها وينشرها أصدقاء أمريكا في كل مكان ولا سيما بيننا ، ليصوروا للناس أن الأمريكان قوم أطهار أبرار ، وأن كل شططهم ضدنا أو في مصلحة إسرائيل مصدره هذه الحفنة من الملاعين اليهود الذين يلعبون بمقدرات مائتي مليون أمريكي ، وهم لا يتجاوزون خمسة في المائة من مجموع السكان . وكل ما نستطيع أن نقوله في هذا المجال هو أن يهود أمريكا هم أحد « مكونات » هذه الصورة الجسيمة المعقدة لا أكثر ولا أقل . ومن يتأمل الأمر جيداً يجد أن قوتهم ربما كانت نتيجة وليست مجرد سبب لموقف أمريكا من قضايا الشرق الأوسط ومن تكوينه الجيوبوليطيقي . وفي أمريكا عتاة من أعتى عتاة الطبقة الحاكمة المحافظة ومراكز القوى المحافظة من فصائل « الواسب » وهي الحروف الأولى من « البيض ، الأنجلوسكسون ، البروتستانت » ممن اشتهروا بعدائهم للسامية ومع ذلك فهم يراهنون بقميصهم على الوجود الإسرائيلي في المنطقة العربية ، لأنهم يرون في هذا دعماً للوجود الأمريكي وللقيم الأمريكية وللمصالح الأمريكية بطريق مباشر وغير مباشر .

مئات من الأمريكيين التقيت بهم عن معرفة وغير معرفة ، يحدثونك عن الصراع العربي الإسرائيلي ، فتجدهم أحد رجلين : كثرة غالبة

منحازة إلى إسرائيل فى غير لبس ، وقلة ضئيلة ترى الأمور من زاويتنا ولكنها تصارحك القول : لا تنتظروا عوناً من الولايات المتحدة الأمريكية لحل مشكلتكم مع إسرائيل .

وقد لاحظت أن أكثر من جادلت من الأمريكيين قد ركز نقده لنا فى نقطتين : الأولى هى ما يسمونه الوجود السوفييتى فى مصر ، وهذا وحده فى نظرهم كاف لأن تنحاز أمريكا لإسرائيل ، والثانية هى فكرتهم الثابتة عن العرب أنهم يتكلمون الآن كالحملان الوديعة لأنهم مهزومون ، ولكن إن وجدوا فرصة عاد كل شىء سيرته الأولى وتجمهروا كالذئاب الكاسرة للوثوب على إسرائيل للقضاء عليها .

وعبثاً تحاول أن تثبت للأمريكى أن الوجود السوفييتى لا يتجاوز إقامة بعض الخبراء الروس بيننا بإرادتنا وأن انسحاب إسرائيل من سيناء سوف ينهى حاجتنا إلى هذه الخبرة الروسية . كذلك عبثاً تحاول أن تقنع الأمريكى أن التجارب المريرة قد غيرت من عقلية العرب ، بل أثبتت أنهم أحوج من إسرائيل إلى ما يضمن لهم حدود بلادهم . فكرة عنا رسخت فى أذهان الأمريكيين لا سبيل إلى محوها . وعلى كل فهناك درجة من درجات الشرف فى هذه المصارحة الأمريكية ، وهى خير من الختل واللف والدوران .

أما بين المسئولين وأشباه المسئولين ، فهم لا يفتأون يرددون أمامك أن أمريكا لا تملك الضغط على إسرائيل ، وهو كلام مهذب فى الرفض مفهومه أن أمريكا لا تريد الضغط على إسرائيل . وهو فى نظرى أدب

خال من الحياء لأن فيه امتهاناً لعقول الناس . فمن ذا الذى يصدق أن أمريكا لا تملك الضغط على إسرائيل ؟ الكل يعلم أن أمريكا فى العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦ لم تكن تملك الضغط على إسرائيل وحدها وإنما كانت تملك الضغط على بريطانيا وفرنسا كذلك . وهى التى أرغمت الجيوش الثلاثة على الانسحاب من مصر ، عندما تخلت عن أصدقائها الأوربيين قبل الإنذار السوفييتى وبعده . وهى التى تعاونت مع الاتحاد السوفييتى يومئذ فى تعبئة دول العالم فى الأمم المتحدة لتأييد قرار الا نسحاب ، ولو أنها شاءت فى حرب ١٩٦٧ أن ترغم إسرائيل على الا نسحاب لما كلفها ذلك أكثر من « زغرة » .

ولكنها كانت فى سنة ١٩٥٦ لم ترم بعد طوبة عبد الناصر ، بل كانت تأمل يومئذ تبعاً لمخططها العام أن تقتلع الوجود البريطانى من مصر والفرنسى من الجزائر والبريطانى والفرنسى من كل أرجاء العالم العربى لتحل هى محل الاستعمار القديم . فلما تكشف لها أن هؤلاء المصريين لا يمكن الا عتماد عليهم فى شىء ينفع أمريكا ، وأن مصر المشاغبة تقود المجموعة العربية لتصفية الا ستعمارين القديم والجديد على حد سواء ، وبدأت بالفعل تنادى بأن بترول العرب للعرب ، قررت أمريكا نهائيًّا اللعب بالورقة الإسرائيلية حتى اقبل أن يكون للسوفييت « وجود » فى مصر كما تزعم الآن . وساعدناها نحن بكثرة الصياح والضجيج والرقص حول النار وإطلاق الأسهم النارية والأعيرة الفشنك فى الهواء .

وعلى مائدة فى واشنطون اجتمعنا ، أحمد بهاء الدين وأنا ، ونفر من

أصدقاء العرب البارزين من كبار الأمريكيين كان بينهم قائم سابق بأعمال أمريكا فى مصر ورجلان من كبار رجال الأعمال . قال السياسى الأمريكى : أنا لا أرى حلا وشيكا للمسألة المصرية الإسرائيلية ، لم يبق أمام مصر إلا أن تبحث عن القضايا المشتركة المقنعة للرأى العام العالمى فتجمع الناس حولها . وكان كلامه مقلقاً لأنه كان يتجنب باستمرار الكلام فى أمر تنفيذ قرار الأمم المتحدة أو انسحاب إسرائيل من سيناء ، وكأنما الاحتلال الإسرائيلى للأراضى المصرية لم يعد موضوعاً للبحث . فلما واجهته بسؤالى : نريد أمثلة على هذه القضايا التى يمكن أن نجمع حولها الرأى العام العالمى ، أجاب : خذ مثلا موضوع تدويل القدس ؟ هذه قضية لو ركزت مصر عليها لأمكن أن تجمع حولها الرأى العام العالمى المسيحى والإسلامى معاً . فاضطرنى اضطراراً إلى أن أقول له : اسمح لى أن أقول لك بوصفى مسيحياً مصرياً أن جبل سيناء يهمنى تماماً كما يهمنى القبر المقدس .

والمهم فى كل هذا هو أنه حتى أصدقاؤنا فى أمريكا قد غدوا لا يرون حلا للانسحاب الاسرائيلى من سيناء ، كأنما الأمم المتحدة وقراراتها لا وجود لها ، لأنهم يعلمون أن أمريكا تؤيد بقاء « الوضع الراهن » فى مصر والمنطقة العربية كلها . وكل ما ينصحنا به هؤلاء الأصدقاء هو محاولة إجراء مزيد من الحوار بل التعاون مع بريطانيا وفرنسا وبقية دول غرب أوربا لعل هذا يؤثر فى التوازن الدولى لمصلحتنا . . والمفهوم ضمناً : مادام هذا الكلام صادراً عن أمريكيين ، أن منطوقه يقول : لقد

اعتمدتم على الروس أكثر من اللازم ، وهذا سر تعقد أزمتكم من وجهة نظر أمريكا . حاولوا أن تعتمدوا على الإنجليز والفرنسيين فتستغنوا بذلك عن السوفييت ، فهذا من وجهة نظر أمريكا أخف الضررين ، وربما كان إحراجها مع أصدقائها أدعى إلى اطمئنانها . . من إحراجها مع أعدائها .

وأنا أكتب هذا التقرير عن انطباعاتى عن الرأى الأمريكى العام حول الصراع المصرى الإسرائيلى ليعلم من لا يعلم — بحسب ما رأيت وسمعت — أن انتظار أى تدخل أمريكى لمصلحتنا مضيعة للوقت وخداع للنفس ، بل لقد سمعت فى أمريكا من يقول : وكيف تنتظرون منا أن نساعد على فتح قناة السويس ؟ ألكى يتجول الأسطول الروسى فى البحر الأحمر كما يشاء وينفذ منه إلى المحيط الهندى ؟ .

وهذا التقرير لا أكتبه للحكومة المصرية ، فلست أشك فى أن للحكومة المصرية خبراءها الأكفاء الشرفاء فى الخارج ممن يحسنون تقدير الأمور ويصدقون القول لحكومتهم ، ولكنى أكتبه للرأى العام المصرى ، ولأبناء الطبقات المتوسطة بيننا بصفة خاصة لأنهم من فرط عدائهم للشيوعية بالغوا فى التفاؤل بالحل السلمى لمشكلة الاحتلال الإسرائيلى للأراضى المصرية وأسرفوا فى الثقة بنوايا أمريكا أو بإمكانياتها . وحتى بعد أن استبان للخاص والعام استحالة الحل السلمى ذهبوا يشككون فى السلاح الروسى فيهولون فى قوة الفانتوم ويهونون من قوة الميج ، ويشككون فى قدرات الشعب المصرى على تحرير أرضه بدعوى تخلفه الشديد وحاجته إلى أجيال للأخذ

بأسباب الحياة العصرية ، برغم أن هذا التخلف لم يمنع شعب فيتنام من ضرب أروع الأمثال ، واتخذوا من فلسفة بناء الدولة العصرية السليمة حجة زائفة للتهرب من المواجهة الكبرى والتضحية فى سبيل الوطن . فالقصور فيهم أكثر مما هو فى الشعب المصرى ، لأن فى مصر من أبناء هذه الطبقات المتوسطة ما يربو عدداً على سكان إسرائيل كلها ، ومن لا يقل « عصرية » عنهم . ونحن لسنا بحاجة إلى ثلاثة وثلاثين مليون مدافع لنرد ثلاثة ملايين مغتصب لو أن البورجوازية المصرية كانت حقًّا على استعداد لأداء واجبها الوطنى . بل هم يشككون فى أهلية الفلاحين والعمال لحمل السلاح ولتحمل مسئولية الدفاع الوطنى الشعبى إذا وقعت الواقعة خوفاً من القلاقل الطبقية والفردية . وهكذا يعيد التاريخ نفسه ، فقد عرفت مصر حقباً أيام الاحتلال البريطانى سقط فيها الوطن بين سادة البلاد الذين جمدوا الكفاح الوطنى حتى ترقى الأمة وتتحضر وبين زعماء الرعاع الذين لم يدركوا أنه لا خير فى كفاح وطنى لا يقود فيه الجماهير عقل الأمة المستنير . ولم ينقذ مصر فى ثورة ١٩١٩ إلا وحدة القيادة والقاعدة حيث كان زعماء البلاد ومثقفوها وطبقاتها القادرة تضرب لجموع الشعب المثل الأعلى فى الرضا بالنفى والتشريد والاعتقال والتضحية بالنفس والمال فى سبيل الوطن . وبهذا كانت الطبقات الممتازة بمثابة طلائع للشعب المصرى تتقدمه فى أداء واجبه الوطنى فاستحقت بذلك مقامها الممتاز . ولست أحسب أن إسرائيل اليوم أشد بأساً أو أكثر رقيًّا من الإمبراطورية التى لم تكن الشمس تغرب عن أملاكها ، ولست

أحسب أن الشعب المصرى اليوم أشد تخلفاً مما كان منذ خمسين سنة . فالأمر إذن رهين فى المقام الأول بإيمان كافة أبناء الأمة بجميع طبقاتها ، بميسوريها قبل معدميها ، بقداسة تراب مصر وبقداسة الفداء لتطهير هذه الأرض المباركة من كل قدم دخيلة تدنسها . وتكاليف الجهاد الوطنى أولى بها مترفو هذا الوادى السعيد الشقى من بنيه الذين لم يروا منه إلا ثمار العرق العجفاء وهى كسرة الخبز وأسمال الفقراء . لن يحرر مصر إلا بنوها ، وليعط كل بقدر ما قد أخذ : هذه بعض سنن الشرف والحياة .



الباب الثالث

رحلتي الأوربية



الفصل العاشر

مداولات ثقافية

جاءتني دعوة من اليونسكو لحضور حلقة بحث أقامها اليونسكو فى باريس يومى ٢٢ و ٢٣ فبراير ١٩٧٢ للنظر فى إصدار مجلة ثقافية جديدة ربع سنوية تحمل اسم « الثقافات » ومن الوثائق المرفقة عرفت أن منظمة اليونسكو كانت تصدر لخمس عشرة سنة متصلة مجلة متخصصة فى التاريخ باسم « مجلة التاريخ العالمى » ، يكتبها المؤرخون للمؤرخين ، وأن الجمعية العامة لليونسكو قد قررت أن تحتجب هذه المجلة التاريخية وأن تحل محلها مجلة جديدة يكون اسمها « الثقافات » وتكون « جامعة لكل التخصصات » ، أى يكون فيها للتاريخ نصيب ، وللفلسفة نصيب ، وللأدب نصيب ، وللفن نصيب ، وللاجتماع نصيب ، وللعلوم نصيب ، لا من حيث هى علوم ولكن من حيث أثرها فى الإنسان وفى المجتمع الإنسانى .

وقد جلسنا أربع جلسات لنصل إلى قرارات فى هذا الموضوع المطروح للبحث . ووجدت كل شئ مرتباً على عادة أهل اليونسكو . وجدتنى بين سبعة آخرين من الخبراء المستشارين فى شئون التحرير ، هم الكاتب الهندى المعروف ملك راج أناند عن الهند ، والأساتذة لورين باريتز بجامعة نيويورك عن أمريكا الشمالية ، ورودير يجيز منيجال عن أمريكا

اللاتينية . ومالكوم برادبرى بجامعة إيست أنجليا عن بريطانيا ، وروجيه كايوا عضو الأكاديمى فرانسيز عن فرنسا والشيخ انتاديوب بجامعة داكار عن أفريقيا السوداء ، وجاستريبوفا بأكاديمية موسكو عن الاتحاد السوفيتى . أما سكرتارية اليونسكو فكان يمثلها المديرون هوجارت (الإنجليزى) وبامات (الأفغانى) ومترو (السويسرى) ، وكان هناك مراقبان عن مجالس اليونسكو : فريدمان ودورميسون . سلطة روسية تمثل مختلف الجنسيات والثقافات على عادة أهل اليونسكو وغيرها من المنظمات الدولية التى يراعى فيها دائماً أن تكون اجتماعاتها ممثلة لكل الشعوب ما أمكن ذلك . وبهذا فهمت أنى مدعو بتمثيل خبراء التحرير فى العالم العربى .

وقد كان أول ما استرعى انتباهى هو ما تكبدته منظمة اليونسكو من نفقات باهظة لجمع كل هذا الحشد من الخبراء لمدة يومين فقط ، فأكثر الحاضرين جاءوا من أطراف الدنيا لهذا الهدف المحدد بالذات ، ولا أحسب أن اليونسكو أنفقت على سفر كل هؤلاء الضيوف وإقامتهم أقل من ثلاثة آلاف جنيه . وقد كان فى وسع كبار موظفى اليونسكو أن ينفردوا بالرأى ويوفروا كل هذا المال ، ولكن هؤلاء القوم يدركون بما ربوا عليه من منهج علمى أن وضع الأساس هو كل شيء ، وأنه لا خاب من استشار ولا سيما فى الخطوات الأولى التى يتوقف عليها كل شئ ، فالتشاور هو العاصم من الارتجال . كذلك استرعى نظرى أن منظمة اليونسكو قد تعمدت أن تكون هيئة مستشاريها كاملة من المفكرين « غير الرسميين » لأنها تعرف أن المثقفين « الرسميين » مقيدون بأفكار حكوماتهم وبنواياها .

ومنظمة اليونسكو التى تريد ان تواجه مثقفى العالم بهذه المجلة الجديدة تعرف أن « الموظفين » مهما علا قدرهم هم آخر من يستفتون فى أمر مخاطبة المثقفين .

وقد كانت أهم المشكلات التى واجهتها لجنة المستشارين هذه أربعاً : [أولا : مجال مجلة « الثقافات » . ثانياً : أهدافها ، وثالثاً محتوياتها . ورابعاً : سياسة تحريرها .

وبعد مداولات طويلة انتهى الرأى إلى أن يحدد مجال المجلة على الوجه الآتى :

« الثقافات » مجلة دولية مشتركة بين كل التخصصات ، مخصصة للثقافة المعاصرة بأشمل معنى ، وهى تركز على المدخل المقارن وتنمى منهج الدراسات الثقافية » .

أما أهداف المجلة فقد حددت على النحو التالى : « أن تخاطب الجمهور المتخصص وجمهور المثقفين بصفة عامة وأن تكون حلقة ترابط بين الهيئات المعنية والمختصين المعنيين بالدراسات الثقافية وبالسياسة الثقافية وبين غير المختصين المعنيين بمختلف وجوه الثقافة » ، وقد عدّ الإصرار على ذكر « المختصين » كافياً لتحديد المستوى الرفيع المنشود فى نوعية المقالات والدراسات حتى لا يتصور أحد أنها يمكن أن تتسع للخفة الصحفية المأثورة عن كثير من المجلات .

وأما محتويات المجلة الجديدة فقد تحددت بالآتى :

(١) معالجة الحياة الثقافية بكل ظواهرها مع الاهتمام الخاص بتدعيم الدراسات الثقافية المعاصرة والعلاقات الثقافية الدولية وبالتنمية الثقافية

وبرسم السياسات الثقافية ، ومع الاهتمام الواجب بالحياة الثقافية على المستويات القومية والإقليمية والدولية .

(٢) نشر التحقيقات والأخبار المتصلة بالأحداث والاتجاهات والتطورات الثقافية الهامة فى العالم كله .

(٣) الإكثار من إصدار الأعداد الخاصة التى تتناول الموضوع الواحد ، ويراعى فيها أن تتسع للتخصصات المشتركة وأن تقوم على المدخل المقارن على أوسع مدى ممكن ..

(٤) لا يجوز استخدام المجلة لنشر التقارير الرسمية ..

أما بالنسبة لسياسة التحرير فقد تحددت كمايلى : « أكدت لجنة المستشارين أن استقلال تحرير المجلة أمر جوهرى ، وأوصت بأن يرجع رئيس التحرير مباشرة إلى الهيئات وإلى أكفأ المختصين فى العالم » .

هذه كانت أهم قرارات لجنة المستشارين أو توصياتها وهى كما ترى مغلفة كالعادة بلغة المنظمات الدولية المألوفة الجافة الباردة المنفرة ، ومع ذلك فهى تجسد مداولات كان بعضها عنيفاً ومتلاطماً . وكانت القذائف والمتفجرات تتوالى ، ولكن بأسلوب متمدن . خذ مثلا هذا الرأى الذى سقته شخصيًّا فى اجتماع لجنة المستشارين :

« أنا أسف لأن الجمعية العامة لليونسكو كانت قد اتخذت قرارها باحتجاب (مجلة التاريخ العالمى) ، فهذه كانت مجلة تاريخية متخصصة يكتبها المختصون فى التاريخ للمختصين فى التاريخ ، كان لها جمهورها المؤكد برغم أنه جمهور محدود . فهى بذلك

كانت مجلة ناجحة لأنها كانت تؤدى الرسالة التى أنشئت من أجلها . والمسوغ الوحيد فى نظرى لإصدار مجلة مشتركة بين التخصصات مثل مجلة (الثقافات) هو أن تخاطب جمهور المثقفين أو الانتليجنسيا بصفة عامة لا فئة المتخصصين . وبهذا المعنى العريض للثقافة نفهم الثقافة بأنها ليست المعرفة بل تكامل المعرفة ، أو على الأصح تحول المعرفة إلى قيم ، وحيث تبدأ القيم تكون الأحكام والاتجاهات والتيارات الحضارية والفكرية . وحيث تكون الأحكام والاتجاهات والتيارات الحضارية والفكرية لابد من ضمانات لحرية الكلمة ، وهو ما يتجاوز إمكانيات منظمة اليونسكو ، بل كل المنظمات الدولية ، بحدودها الحالية . فمعروف أن منظمة اليونسكو تعبر عن الدول الأعضاء فيها وأن سكرتارية اليونسكو خادمة لهذه الدول الأعضاء ، خاضعة لرقابتها وتوجيهها ولا تتمتع بشخصية « فوق دولية » ، وهذا فى حد ذاته يعصف بضمانات حرية الكلمة التى لا يمكن لموظفى اليونسكو القائمين بإصدار مجلة (الثقافات) أن يحموها إزاء حساسيات ممثلى الدول الأعضاء . هبوا أن عالماً انثروبولوجيًّا كتب عن وجود بقايا لأكلة لحوم البشر فى إحدى دول إفريقيا السوداء ، أو أن عالماً اقتصاديا خدش الأحوال الاقتصادية فى بعض جمهوريات أمريكا اللاتينية ، أو أن مفكراً درس مشكلة استعباد المرأة أو مشكلة التعصب الدينى أو العنصرى فى العالم المعاصر دراسة تؤدى إلى استخلاص نتائج معينة . فما الضمان ألا يقف ممثل لدولة من الدول الأعضاء المخدوشة بالفعل أو بالوهم ويحتج على نشر مثل هذا البحث فى مجلة

(الثقافات) ؟ إن المجلات العلمية المتخصصة هى كل ما تستطيع اليونسكو إصداره من المجلات ، لأن العلماء يستطيعون الوقوف عند الوصف والرصد والإمساك عن إصدار الأحكام ، أما المجلات الثقافية المشتركة بين التخصصات . فلأنها تخاطب المثقفين بصفة عامة فلا مفر فيها من وجهة النظر مهما كان الكاتب متخصصاً وموضوعيًّا ومنضبطاً فى عرض أفكاره .

أنتم تريدون إنشاء مجلة مثل مجلة سارتر « الأزمنة الحديثة » أو مجلة سبندر « أنكاونتر » دون أن تكون لكم حرية سارتر أو سبندر وهذه هى المشكلة » .

وأضاف روجيه كايوا عضو الأكاديمى فرانسيز : بل ما الضمان ألا تتخذ الدول الأعضاء بوسائل الضغط المختلفة من هذه المجلة أداة لنشر دعايتها من خلال تقارير رسمية محشوة بالأرقام الزاهية التى تصور أنها الجنة على الأرض حيث لا فقر ولا جهل ولا مرض ولا تخلف ولا ظلم ولا استبداد ، ولا لا بل كل شيء عال العال » .

والحق يقال إن رجال اليونسكو ، ريتشارد هوجارت و بامات وجى مترو كانوا لا يقلون تفهماً لهذا الوجه من المشكلة عن لجنة المستشارين ، أقصد موضوع اختناق مطبوعات اليونسكو وبحوثها وتقاريرها بسبب حساسية الدول الأعضاء من أى نقد يوجه إليها أو إلى أسلوب الحياة والفكر فيها ، وبهذا فقدت منظمة اليونسكو قدرتها على قيادة مثقفى

العالم ، واقتصر دورها على تقديم بعض الخدمات الفنية الجليلة كإنقاذ الآثار أو المشكوك فى قيمتها كخدمات التربية والتعليم .

وهذا النقص فى الفاعلية يصيب كل المنظمات الدولية ، وفى مقدمتها الأمم المتحدة بدرجات متفاوتة لنفس السبب برغم أن مجالسها ولجانها وأجهزتها الفنية تضم الآلاف من خيرة الخبراء . وقد أتيح لى فى مرحلة ما من حياتى أن أعمل فى الأمم المتحدة وألمس بنفسى هذا النقص فى الفاعلية بسبب عجز لجان الأمم المتحدة عن أداء واجباتها تحرجاً من الدول الأعضاء أو خوفاً من بطشها . ومازلت أذكر كيف كان صديقى الدكتور محمد زكى شافعى وصديقى الدكتور محمود شافعى وهما من كبار رجال الاقتصاد يحملان إلى همومهما الوظيفية . فقد كانا يكلفان بإجراء الأبحاث وكتابة التقارير عن الحالة أو المشاكل الاقتصادية مثلا فى إحدى دول أمريكا اللاتينية ، وبعد أن يعرقا ويسهرا الأسابيع فى جمع البيانات وتحليلها ويجسدا الحقائق فى صورة تقرير أو دراسة ، كان المديرون يعبثون بهذه التقارير والدراسات فيجرون عليها من التعديل فى الصياغة ، الذى يبلغ أحياناً حد حجب بعض البيانات أو ذكرها بطريقة مبهمة ، ما يجعل قارئ التقارير عن الحالة أو المشاكل الاقتصادية لا يحس بوجود «مشاكل» من أى نوع كان أو يحس بأن الحال معدن فى كوستاريكا أو نيكاراجوا أو أورجواى أو باراجواى ، خشية احتجاج مندوب هذه الدولة أو تلك لو ظهر من ميزانها التجارى أنها على شفا الإفلاس أو ظهر أنها تهلك جوعاً لو توقفت الولايات المتحدة عن شراء

إنتاجها من السكر أو اتضحت تبعيتها السياسية بسبب أحوالها الاقتصادية . وكان المنطق السائد أنه ما كل الحقائق يصح ذكرها ، فإن كان لا مناص من ذكرها فينبغي أن تغلف بالسيلوفان أو تحاط بجلدة من السكر كما يفعلون بالبرشام والعقاقير حتى يسهل بلعها . وهذه طريقة لا بأس بها ، ولكنها كثيراً ما تطمس ما هو داخل البرشامة فلا تدرى إن كان ما تبلع جرعة من البنسلين أم جرعة من الجير أو الدقيق أو المواد التى لا نفع فيها . وإذا كان خبراء الأمم المتحدة يتحرجون كل هذا الحرج من الدول الصغرى فما بالك بحرجهم من الدول الكبرى التى تدفع ميزانية الأمم المتحدة ووكالاتها المتخصصة كاليونسكو والفاو وهيئة الصحة العالمية ومنظمة العمل الدولية .

ومن أجل هذا فإن لجنة كلجنة حقوق الإنسان فى الأمم المتحدة برغم التزام الدول الأعضاء بالإعلان العالمى لحقوق الإنسان تكاد أن تكون لجنة كاملة الشلل لا يحس بوجودها أحد ، مع أن حقوق الإنسان تهدر كل يوم فى فييتنام وفى أمريكا وفى مصر وفى إنجلترا وفى الاتحاد السوفييتى وفى أمريكا اللاتينية وفى أفريقيا السوداء وفى أفريقيا البيضاء وفى كل بلد من بلاد العالم المتحضر والمتخلف ، سواء من حيث التفرقة العنصرية أو الإخلال بالمساواة بين المرأة الرجل أو الإخلال بحق التعليم أو تشغيل الأحداث أو .. أو .. إلخ .. وقد عبر داج همرشلد ذات مرة عن عجز الأمم المتحدة عن أداء واجباتها المنصوص عليها فى ميثاقها الجميل بقوله إن الأمم المتحدة ليست إلا مجموع أعضائها .



ومعنى هذا الكلام أن الأمم المتحدة قاصرة لأن الدول الأعضاء فيها غير قادرة على أو غير راغبة فى الوفاء بالتزاماتها التى ارتبطت بها حين وقعت ميثاقها ، وأن الأمم المتحدة ليست لها إرادة مستقلة عن إرادة الدول الأعضاء فيها . فالأمم المتحدة ليست هيئة « فوق دولية » . وهى ليست حكومة عالمية بأى معنى من المعانى ، وبالتالى فإن سكرتاريتها العامة لا تتجاوز أن تكون مجرد خادمة للدول الأعضاء التى إن أرادت خيراً نفذت لها الخير وإن أرادت شرًّا نفذت لها الشر ، وإن تعلقت إرادتها أصيبت هى بالشلل . وعلى أحسن الفروض ليس للأمم المتحدة إلا سلطة أدبية أو معنوية .

وقد عبر لنا أحد مديرى اليونسكو عن هذا الوضع بقوله: إن أى ممثل من ممثلى الدول الأعضاء ، يستطيع أن يقول لنا فى أى وقت من الأوقات ، نحن ممثلون لدول أو لأمم ونحن مسئولون أمام الدول أو الأمم التى نمثلها ، أما أنتم الخبراء من موظفى الأمانة العامة فلا مسئولية عليكم أمام أحد إلا الدول الأعضاء التى لم تعطكم توكيلا شاملا وإنما عينتكم فى وظائفكم لمجرد تسيير الأمور التى تريد هى تسييرها . فالأمر إذن معلق مرة أخرى بإرادة الدول الأعضاء التى إن أرادت إعلان الحقائق أعلنتها وإن أرادت إخفاء الحقائق أخفتها ، وإن أرادت حرية الفكر كفلتها وإن أرادت تقييد الفكر أو توجيهه قيدته ووجهته .

وقد قال روجيه كايوا عضو الأكاديمى فرانسيز متهكماً بهذ الوضع

« من أجل هذا نجد منظمة اليونسكو تناقض نفسها ، فهى من ناحية تتحدث عن واجبها نحو نشر الأبجدية بين الأميين ومن ناحية أخرى تشجع تعليم الأميين بالوسائل السمعية البصرية التى تغنى الإنسان عن تعلم الأبجدية ».(والمفهوم ضمناً أن الوسائل السمعية والبصرية ليست من وسائل مكافحة الأمية بل من وسائل مكافحة التعليم ، والمفهوم ضمناً أيضاً أن مكافحة التعليم بين الشعوب النامية يجرى وفق مخطط مرسوم تستخدم فيه منظمة اليونسكو كأداة !)

وبرغم هذا الشعور الواضح لدى موظفى اليونسكو بعدم وجود ضمانات لحرية الفكر أو حرية البحث العلمى اقتنعوا كما اقتنعت لجنة المستشارين بضرورة النص على « استقلال » تحرير مجلة « الثقافات» المزمع إنشاؤها ، وضرورة النص على عدم جواز استخدامها كأداة لنشر التقارير الرسمية التى يتقدم بها ممثلو الدول الأعضاء . وكمزيد من الضمان لمواجهة أى ضغط على جهاز تحرير المجلة من ممثلى الدول الأعضاء اتفق بصورة مبدئية على إحالة موادها على هيئة من جهابذة العصر فى الآداب والفنون والعلوم الإنسانية لإقرار نشرها . وذلك كوسيلة لتحصينها ضد تدخل الدول الأعضاء بقوة رأى الثقات الأعلام . وقد كان كل هذا نصراً عظيماً لحرية الفكر والبحث العلمى فى مرحلة التخطيط . فنرجو أن تكون الخواتيم كالفواتيح .

وفى مرحلة من مراحل المداولات استدعى أحد خبراء النشر التابعين

لليونسكو ليدلى برأيه فيما ينبغى أن يطبع من نسخ من هذه المجلة الجديدة « الثقافات » . ومنه عرفنا أن « مجلة التاريخ العالمى » كان يطبع منها ٢٠٠٠ نسخة ، وكان يوزع منها فى العالم كله نفس هذا العدد ، يباع للجامعات والهيئات والأشخاص المعنية بدراسة التاريخ . قلنا : ولكن هذا العدد الضئيل ربما يتناسب مع مجلة متخصصة بطبيعتها ، أما مجلة مشتركة بين التخصصات ، أو مجلة ثقافية جامعة كما نقول نحن فى لغتنا ، فربما كان من الأنسب مضاعفة عدد النسخ المطبوعة منها ، وعدنا من جديد إلى الحديث فى توزيع مجلة سارتر « الأزمنة الحديثة » ، فعرفنا من خبير النشر أنه كان فى المد السارترى ١٥,٠٠٠ نسخة أما اليوم فهو ٥٠٠٠ نسخة . وكان تفسير ذلك طبعاً أن السارترية نفسها فى ذبول ، وأن سارتر يتخلى فى السنوات الأخيرة عن العناية بمجلته بشخصه مفوضاً أمرها لبعض مريديه ، مثل كلود لانسمان .. وقد أخذت سكرتارية اليونسكو برأى خبير النشر الذى أشار بعدم زيادة المطبوع عن ٢٠٠٠ نسخة إلا فى حالة الأعداد الخاصة .

وأنا أذكر هذه الأرقام عن توزيع المجلات الثقافية الجادة فى الخارج ليعرف مخططو المجلات الثقافية عندنا حقيقة ما يجرى فى العالم المتمدن ، فمجلة مثل « الأزمنة الحديثة » كانت تهز مثقفى العالم من اليابان إلى أمريكا اللاتينية لم يتجاوز توزيعها فى أقصى مدها ١٥,٠٠٠ نسخة ، وهى الآن لا تزال تعد فى طليعة المجلات الثقافية الجادة ، ومع ذلك لا يزيد توزيعها على ٥٠٠٠ نسخة فى العالم كله برغم أن « قراء » الفرنسية

فى العالم يعدون عشرة أمثال « قراء » العربية فلا ينبغى أن نيأس إذا أصدرنا مجلة ثقافية عميقة أصيلة ، ولم يتجاوز توزيعها ألف نسخة ، فالثقافة الجادة فى كل بلد تعانى .



الفصل الحادى عشر

ماكبث الجديد

بعد أن فرغت من واجباتى نحو منظمة اليونسكو فى باريس ، وقرئت علينا قراراتنا بشأن المجلة الثقافية الجديدة المزمع إنشاؤها تحت اسم « الثقافات » للتصديق عليها ، مضيت أستعرض كتالوجات المسارح ، لأعرف ماذا يجرى فى حياة باريس الفنية فوجدت بين مسارح باريس العديدة ٤٨ مسرحاً تقدم عروضاً مسرحية . وكان بين هذه المسارح عدد لا بأس به يقدم العروض الخفيفة أو مسرحيات التسلية ، وعدد لا بأس به يقدم « الإعادات » أو ما يسمونه الربيرتوار بلغة أهل المسرح ، وهى مسرحيات سبق أن رأيتها فى الأعوام الماضية . مثال ذلك مسرحيتا « الدرس » و « المغنية الصلعاء » للكاتب يونسكو اللتان كانتا تعرضان فى مسرح لاهوشيت بالحى اللاتينى بلا انقطاع خلال السنوات الأربع عشرة الأخيرة . وقد لاحظت بصفة عامة انتشار مسرحيات التسلية الجديدة فى باريس . ومع ذلك كانت هناك أركان فنية تقدم عدداً من المسرحيات الجادة العميقة . كذلك لاحظت العودة إلى مسرحيات جورج فيدو ومسرحيات جان أنوى .

فى مسرح لابروبير كان هناك عرض لتشيكوف وبيرانديلّو ، وفى مسرح بيجال كان هناك عرض لمسرحية « بازاجيه » لراسين ، مع ذلك اخترت أن أرى ثلاثة عروض جديدة كان أحدها « ماكبث ليوجين يونسكو . وهى تنويع على مأساة شكسبير الخالدة ، وكانت تقدم فى مسرح الضفة اليسرى (الريف جوش) بمونبارناس . ثم مسرحية « كل ما فى الحديقة ورود » للكاتب الأمريكى إدوارد ألبى وكانت تقدم فى مسرح ماتوران . ثم عرضاً مسرحيًّا مقتبساً من كتاب لوتريامون العظيم « أغانى مالدورور » كان يقدم على مسرح تيرتر بمونمارتر . وكانت هناك مسرحية للكاتب الإنجليزى هارولد بنتر اسمها « بالأمس فقط » عن الفرنسية (ولا أعرف اسمها الأصلى بالانجليزية) لم أجد الوقت لمشاهدتها فاكتفيت بقراءتها . وقد ذكر لى بعض أصدقائى الإنجليز المقيمين فى باريس أن عرضها على المسرح الفرنسى كان أفضل بكثير من عرضها على المسرح الإنجليزى .

ولنبدأ بمسرحية « ماكبث » ليونسكو . وهى تجربة مثيرة فى إعادة تفسير قصة ماكبث أو أسطورته كما ورثناها عن شكسبير . أما حكاية ماكبث كما ورثناها عن شكسبير . فهى أن الملك دنكان ، ملك إسكتلندا . كان له قائدان كبيران هما ماكبث وبانكو استطاعا أن يردا الغزاة وأن يخضعا العصاة ، وكان أعظم القائدين هو ماكبث الذى جمع بين الشجاعة والنبل والولاء الذى لا يحد لمليكه . وفى عودة ماكبث وبانكو منصورين من القتال عبر البرارى ، ظهرت للقائدين فى البرية

ثلاث ساحرات تنبأت إحداهن لما كبث بأنه سيصبح الإيرل (الكونت) على مقاطعة كودور ، وتنبأت له الثانية بأنه سيصبح الإيرل على مقاطعة جلاميس ، وتنبأت له الثالثة بأنه سيصبح ملكاً على أسكتلندا. أما القائد بانكو فقد تنبأت له الساحرات بأنه لن يظفر بمغانم فى حياته ، ولكنه سيكون أباً وجداً لسلسلة طويلة من ملوك اسكتلندا. ثم اختفت الساحرات وتركن ماكبث وبانكو مشدوهين فى البرية ، فهما يعلمان أن إيرل كودور وإيرل جلاميس لا يزالان بين الأحياء وأنه لا سبيل إلى وراثتهما ، كما يعلمان أن عرش استكندا يجلس عليه ملك تقى مهاب هو الملك دنكان ، وأنه لا سبيل لخلافته على العرش لأن له ولدين فى الخارج هما مالكولم ودونالبين .

* * *

ولا يلبث ماكبث أن يلتقى بمن يبشره بأن الملك قد أنعم عليه تقديراً لانتصاره على الغزاة بكونتية كودور وبكونتية جلاميس ، لأن إيرل كودرو وإيرل جلاميس قد أعدمهما الملك دنكان وصادر أملاكهما جزاء لهما على قيامهما بفتنة أهلية على عرش البلاد . وهكذا تحققت لماكبث نبوءتان ، ولم تبق إلا النبوءة الثالثة ، وهى أن يجلس على عرش اسكتلندا . وهنا نبتت بذور الخيانة فى قلب ماكبث الطيب الأمين النبيل بوحى من زوجته الطموحة الضارية الليدى ماكبث ، التى ما إن عرفت بما قد جرى من نبوءة الساحرات وتحقق شطر منها حتى تخيلت نفسها ملكة متوجة على عرش اسكتلندا ، وأقنعت زوجها بأن نبوءة

الساحرات هى مشيئة القدر . بل وأقنعت الليدى ماكبث زوجها أن يستقبل الملك دنكان فى قلعته وأن يغتاله ليحكم مكانه . وقد كان . وهكذا اغتصب ماكبث عرش اسكتلندا وحكم شعبه بالحديد والنار ، لأن قصة خيانته كانت على ألسنة رعاياه فى السر والجهر . وكان أول ما فعله ماكبث هو الفتك بزميله بانكو حتى يحبط نبوءة الساحرات ويغير مجرى القدر فلا يتولى عرش استكندا أحد من سلالة بانكو . وتكثر متاعب ماكبث لأن زوجته ليدى ماكبث بعد أن ارتكبت جريمتها وشاركت زوجها فى الفتك بمليكه « معبد الله المقدس » ، يثقل الوزر على فؤادها فتصاب بلوثة وتتراءى لها الأشباح فى يقظتها ونومها وينتهى أمرها بأن تشنق نفسها . كذلك يخوض ماكبث النبيل فى بحار من الدماء ليثبت عرشه ، وتكثر من حوله الفتن والقلاقل فيتحجر قلبه ويزداد كل يوم ضراوة حتى يغدو كالوحوش الكاسرة . وأخيراً يسقط صريعاً فى المعركة الأخيرة حين يجهز ولدا الملك دنكان جيشاً بمعونة ملك إنجلترا ويسترد مالكولم عرش أبيه. لقد تنبأت الساحرات لماكبث بأنه لن يهزم فى الحروب إلا على يد رجل لم تلده امرأة وإلا حين تتحرك غابة دنسنين عن مكانها ، وقد حسب هذا كله ضرباً من المحال ، ولكن جنود مالكولم يقتلعون أشجار الغابة ويتحركون من ورائها إلى ساحة القتال ويعلن مالكولم لماكبث فى النزال الأخير أنه لم يولد ولادة طبيعية وإنما ولد بعملية قيصرية . وهكذا تنتهى مأساة هذا القائد المغوار الطيب النبيل الذى لا نعرف إن كان داعيه إلى السقوط صوت القدر على ألسنة

الساحرات أم صوت زوجته الضارية لدى ماكبث ذات القلب المعتم والعقل المسموم ، أم جرثومة الفساد الدفينة فى قلب كل حى ولو كان أشرف الشرفاء .

فماذا فعل يونسكو بهذه القصة وكيف أعاد صياغتها ؟

لقد طمس يونسكو شخصيات هذه القصة ودوافعها دون أن يطمس معالمها الرئيسية ، وحولها من مأساة تصور محنة الإنسان المجيد الذى يتحرك كالدمية وسط زعازع القدر العاتى إلى مأساة كل أشخاصها من الأوغاد الذين لا يعرفون من النوازع إلا السلب والنهب وشهوة السلطة والشكوك المسمومة . فلم يعد الملك دنكان كما صوره شكسبير « معبد الله المقدس » رمز حق الملك الإلهى ، بل غدا عاهلا جباناً رعديداً لا يقوى على مواجهة أعدائه مواجهة الفرسان ، بل يستخدم الغير لقتال معاركه . فلا هم لدنكان إلا نهب أموال نبلائه والتآمر عليهم قبل أن يتآمروا عليه . فمنذ اللحظة الأولى نعرف من المتمردين كودور وجلاميس أن الملك دنكان يفرض على كل منهما جباية سنوية قدرها عشرة آلاف جواد وعشرة آلاف جندى وعشرة آلاف دجاجة ببيضها وعشرة آلاف شاة وعشرة آلاف خنزيز إلخ . ومع كل هذا ألف بنت عذراء لفراشه (تماماً كالملك شهريار !) ومن أجل هذا يتفق كودور وجلاميس على الثورة على هذا الملك الغاشم واقتسام عرشه من بعده لتخليص البلاد من طغيانه ، إنهما رجل واحد ورأيهما رأى واحد . إنهما يتكلمان كالصوت وصداه . ويقسم كل منهما على سيفه أن يكون وفياً لأخيه .

وهكذا يتحرك جيش كودور وجيش جلاميس عند الفجر لخلع دنكان ، فيهب ماكبث وبانكو للدفاع عن الملك وتكون معركة ضارية بين المعسكرين يهلك فيها الألوف والألوف . كذلك كان ماكبث وبانكو كأنهما رجل واحد لهما رأى واحد يتكلمان كما يتكلم الصوت وصداه ، وعندما نرى كلا منهما على انفراد فى جانب من ميدان القتال نسمعه يردد نفس الكلام : عبارات التفاخر بما كدس من جثث القتلى بين صفوف العدو : « إن نصل حسامى خضبته الدماء ، بيدى هاتين قتلت العشرات والعشرات . قتلت المئات والمئات من الضباط والجنود الذين لم يؤذونى فى شىء . ومثلهم أعدمت المئات والمئات رمياً بالرصاص . والألوف والآلاف ماتوا ، حرقوا أحياء فى الغابات التى اعتصموا بها ، فأضرمت فيها النيران . عشرات الألوف من الرجال والنساء والأطفال ماتوا مختنقين داخل الكهوف وتحت أنقاض منازلهم التى نسفتها . مئات الألوف ماتوا غرقى فى بحر المانش حين استولى عليهم الذعر فأرادوا عبوره . والملايين ماتوا أو انتحروا من الرعب . وعشرات الملايين ماتوا من الغضب أو من الفالج أو من الحزن . لم تعد فى البسيطة أرض تكفى لدفن كل هؤلاء الموتى . وانتفخت جثث الغرقى بكل الماء فى البحيرات فلم تعد فى البحيرات مياه . ولم تعد هناك نسور تكفى لتخليصنا من كل هذه الرمم .. إلخ » . وكل هذا فعله ماكبث دفاعاً عن مليكه المفدى ، حفظ الله حياته . وحين يجئ دور بانكو نجده يلقى نفس هذا المونولوج المضحك الذى أراد به يونسكو أن يسخر من

« فشر الأبطال الصناديد » ، يلقيه بحذافيره .

* * *

وفى مكان أمين نرى الملك دنكان والملكة زوجته يرقبان المعركة على البعد . ودنكان واجف القلب يسأل كل ضابط أو جندى يمر به : من المنتصر ؟ ترى ماذا يحدث لو انتصر كودور وجلاميس ؟ وتقول الملكة التى يسميها يونسكو الليدى دنكان : « إذن تلبس أنت دروعك وتخف إلى القتال » ، ولكن للملك رأياً آخر . اوأنهزم ماكبث وبانكو فيجب أن يختبئ . ولكن أين يختبئ ؟ إن أعداءه فى كل مكان : ملك مالطة ، إمبراطور كوبا ، أمير البليار ، ملوك فرنسا وإيرلندا كلهم أعداؤه . وأعداؤه بلا حصر فى بلاط ملك إنجلترا . (هنا يخيل إليك أن يونسكو لا يحدثنا عن دنكان وماكبث وبانكو أيام الأنجلو سكسون ، وإنما يحدثنا عن شيء شبيه بحكام العالم الحديث) : « الحيطة أمّ الحكمة » ، هكذا يقول . إنه سيفر غالباً إلى كندا أو الولايات المتحدة حاملا خزانة ملآنة بالذهب (هنا نتذكر ما حدث لدالادييه أو لبول رينو الذى فر بعد هزيمة فرنسا عام ١٩٤٠ إلى أمريكا بعد أن شحن ذهب الخزانة الفرنسية . حتى غرقى المانش يذكروننا بما كان فى دنكيرك) . وبالطبع نضحك لأن أمريكا وكندا لم يكن لهما وجود أيام دنكان وماكبث وبانكو .

* * *

ولا يخرج دنكان من هذا القلق على مصير المعركة إلا بأن يقول

لياوره : « ابق أنت إلى جوارى لتدافع عنى إذا اقتضى الأمر (مخاطباً ليدى دنكان) أما أنت فهيا بسرعة . خذى جواداً وامضى إلى الجبهة وعودى إلى بالأخبار ، ومع ذلك لا تقتربى أكثر من اللازم . أما أنا فسأحاول أن أرى ما يجرى بالمنظار المعظم » . إن هذا الدنكان يختلف كثيراً عن « معبد الله المقدس » الذى حدثنا عنه شكسبير ! ملك جبان لا يستحى أن يعرض زوجته للخطر لينجو من المهالك .

وبعد لحظات تسمع صيحات الانتصار . لقد انتصر ماكبث وبانكو على كودور وجلاميس. لقد وقع كودور فى الأسر أما جلاميس فهو محاصر بعد أن تمزق جيشه . ويخطب دنكان خطبة عصماء يشكر فيها قواده وجنوده البواسل الأحياء منهم والأموات الذين أنقذوا العرش والوطن ، ويتحدث عن مقبرتهم ، مقبرة الخلود ، فى أبينال (وهنا نحس أن دنكان يتحدث عن مقبرة الجيش الأمريكى الرهيبة فى بلدة أبينال بفرنسا التى تضم عشرات الآلاف من قتلى الحرب العالمية الثانية) فكأنما هو يريد أن يقول إن كودور وجلاميس هما هتلر وموسولينى . وإن ماكبث هو أمريكا وبانكو هو روسيا أما الملك دنكان والليدى دنكان فهما بريطانيا وفرنسا) .

* * *

وفى حفلة رسمية يتم إعدام كودور وأتباعه فى حضور الملك والملكة . . آلاف مؤلفة يموتون على المتصلة فى حين أن الليدى دنكان يأتونها بفوطة وطست وقطعة صابون وماء الكولونيا وهى جالسة مع وصيفتها إلى جوار

ماكبث القائد المنتصر تعد الرءوس الهاوية بلذة عظيمة ، وتغسل يديها كأنما تريد أن تزيل بقعة الدماء التي لحقت بيدها كما كانت تفعل الليدى ماكبث فى شكسبير . أما كودور فقبل أن يفصم رأسه نسمعه يقول : « على الأقل فليكن مصيرى عبرة للجميع وللأجيال القادمة . لا تتبعوا إلا الأقوى . ولكن المشكلة هى : كيف نعرف من الأقوى قبل المعركة ؟ فليقف أكثركم موقف المتفرج من المعارك ، أما الباقون فليتبعوا الأقوياء ، فمنطق الأحداث هو المنطق الوحيد الصحيح » .. ويشتغل بانكو بهمة بفصم الرءوس عن الأجساد . كل هذا والليدى دنكان الجالسة بجوار ماكبث تلتصق به فى نشوة حسية وتعاكسه بقدمها وتغمز له بعينها فتلهب فيه غلمة الاشتهاء . ويعلن الملك دنكان أنه بعد موت كودور يمنح لقبه ونصف أملاكه المصادرة لماكبث ، وحين يموت جلاميس سوف يكون لقبه ونصف أملاكه المصادرة من نصيب بانكو ويئول النصف الباقى من الأملاك إلى العرش . غير أن رسولا يأتى بنبأ فرار جلاميس المحاصر ويصاب بانكو بخيبة أمل شديدة . إن المعركة لم تنته ، ويجب أن يبدأ كل شىء من جديد .

* * *

غير أن ماكبث على الأقل خرج بشىء من كل هذا ، وهو اقترابه من الليدى دنكان الفاتنة اقترابا شديداً ، وعلى البطاح نرى ماكبث يستعد من جديد لمطاردة جلاميس ، ومن بعده نرى بانكو . وتهب عاصفة هوجاء تظهر فيها الساحرات كما فى شكسبير ، ولكنهن ساحرتان

لا ثلاث ، كما فى شكسبير ، وتعلن الساحرتان لماكبث أن الملك دنكان قد أنعم عليه بلقب جلاميس بعد لقب كودور لأنه غاضب على بانكو الذى يعده الملك مسئولا عن قرار جلاميس . ثم تفضيان لماكبث المشدوه بأن القدر قد كتب له أن يجلس على عرش دنكان ويتوج ملكاً على أسكتلندا . ويحاول ماكبث أن يطرد الساحرتين اللعينتين لأنهما توحيان إليه بخيانة ملكه ، ولأن لدنكان وريثين هما مالكولم ولى العهد الذى يتم علومه فى قرطاجة وأخوه دونالبين الذى يدرس فى راجوز (وهى الاسكندرية قبل الاسكندر) للحصول على دبلوم فى الاقتصاد والعلوم البحرية ! غير أن الساحرتين الشمطاوين لا تلبثان أن تتحدثا إلى ماكبث بصوت رخيم يذكره بصوت الملكة ، ليدى دنكان ، ووصيفتها . فتشتد حيرته . وبرغم مقاومته هذا السحر الرجيم نحس بأن لوناً من السم اللذيذ ، سم الغواية ، قد بدأ يسرى فى أوصاله .

نفس المشهد يتجلى أمام بانكو . تتجلى له الساحرتان تلقنانه بأن منافسه الخطر هو ماكبث الذى أختصه الملك بلقب جلاميس بعد أن أنعم عليه بلقب كودور ، ولكن الملك الجشع قد قرر أن ينعم بالألقاب من دون الأملاك . الأملاك له والألقاب لماكبث . ومع ذلك فالقدر قد كتب لبانكو أن يكون أباً لسلسلة طويلة من الملوك يجلسون ألف عام على عرش البلاد .

* * *

وهكذا تبذر الساحرتان بذور الفتنة فى قلب ماكبث وقلب بانكو

فتؤلبان كلا منهما على الآخر ، وتؤلبان كلا منهما على ملكه . أما منطقهما فبسيط ، لأنه مستمد من الواقع . إن الملك دنكان لا يستحق كل هذا الوفاء ، لأنه ملك جبان وجشع وغدار . هو لا يقاتل أبداً وإنما يجعل الغير يقاتل له معاركه . هو لا يخدم أحداً ولكنه يجعل الكل يخدمونه . كل الناس أدوات فى يديه ، وهو يكره الأقوياء ويغار منهم . إنه سخر ماكبث وبانكو للفتك بكودور وجلاميس لأنهما كانا من الشجعان . وهو يضمر لقائديه المنتصرين الموت لأنه يخشى ارتفاع نجمهما . إن دورهما آت لا محالة . إن كل ما يفكر فيه دنكان هو المحافظة على عرشه وامتلاء خزائنه . إنه ملك ظالم . والقدر قد كتب لماكبث أن يجلس على عرش دنكان لأن ماكبث رجل عادل ، لأن ماكبث سوف ينشر السلام وينصف الفقراء فى هذا البلد الشقى الممزق الذى لم يعرف السكينة ولا العدل قط . كذلك كتب القدر لبانكو أن يكون أباً لأسرة عظيمة من الملوك .

وماكبث لا يصدق أذنيه .. لقد كان فى الماضى يخشى أن تظهر له الساحرتان ، أما الآن فهو يدعوهما للظهور ، ويستمع إلى حديثهما العجيب فى مزيج من الوجل والارتياح ، ويناجيهما . وحين سأل ماكبث الساحرتين عن سر حرصهما على سعادته يأتيه الجواب بصوت رخيم متمتم : « لأننا نحبك يا ماكبث ، « لأنها تحبك يا ماكبث » ، هكذا تقول الساحرة الثانية عن الساحرة الأولى . ويخيل لماكبث أنه يعرف هذه الأصوات الرخيمة ، فهى ليست غريبة عنه ويناشد ماكبث الساحرتين

أن تكشفا له حقيقتهما ، بل يسل سيفه مهدداً أن يمزقهما إذا لم تعلنا له ماذا تكونان .

وهنا تبدو الساحرتان الشمطاوان فى مشهد من السحر الأسود ترددان فيه عبارات باللاتينية من سجع الكهان ، عبارات مؤداها « اظهر وبان عليك الأمان » ، ثم تستويان وتتحركان فى خفة ورشاقة . ثم تنزع كل منهما قناعها فإذا بهما الملكة الفاتنة الليدى دنكان ووصيفتها الجميلة . ثم تجذب الوصيفة رداء الملكة الفاتنة فإذا به يسقط تماماً عن جسدها الفاتن ، وتقف الليدى دنكان عارية لا يسترها على المسرح إلا بيكينى . ويسقط ماكبث على ركبتيه صائحاً . « يا صاحبة الجلالة !! » ثم يضيف : « إنى أرى معجزة ! » فتجيبه الوصيفة : « بل أنت ترى على الطبيعة » . وعلى كتفى الملكة العارية رداء الملك الأرجوانى وفى يمناها خنجر تقدمه لماكبث قائلة : « هيا اقتله . اقتل الملك واجلس على عرشه أكن لك وتكن لى ! هيا بنا نبنى معاً مجتمعاً أفضل ، عالماً سعيداً جديداً » وبعد تردد حائر يتقدم ماكبث ويتناول من يدها الخنجر ، والوصيفة تصيح « الحب قهار ! الحب قهار ! » ، ثم يلف الظلام كل شئ .

* * *

وهكذا جعل يونسكو من الساحرة الملكة ، ليدى دنكان ، ومن الملكة ليدى ماكبث ، وجعل من الثلاث شخصية واحدة هى شخصية « المرأة » أو « حواء » رسول الشيطان ، بالسحر والفتنة تستدرج أنبل الرجال إلى الخيانة والجريمة والمنية . وهذا هو الجديد فى يونسكو ،

أو ما أضافه إلى شكسبير : إن ليدى ماكبث الشهيرة التى دفعت زوجها العظيم إلى اغتيال مليكه واغتصاب عرشه والخوض فى بحار من الدماء هى نفس الساحرة التى تجلت له فى البرارى لتقنعه بأن القدر هو الذى رسم طريقه إلى الخيانة والجريمة . وهى نفس الملكةالتى استدرجت هذا القائد المغوار لتتخلص من زوجها الملك . ومع ذلك فنحن مع يونسكو لا ندين المرأة وحدها ، لأننا نتحرك معه بين رجال أوغاد مهما بدت عليهم سمات الشجاعة والرجولة . ملك فاسق وقواد جشعون وكل امرئ يكيد لأخيه، والمرض فى قلب « الإنسان » لا فرق فى ذلك بين النساء والرجال .

* * *

وينطلق بانكو إلى الملك دنكان ليجادله فى وعوده التى حنث بها . إنه وعده بلقب جلاميس يوم يؤتى به حياً أو ميتاً ، والآن وقد مات جلاميس غرقاً ها هو ذا يمنح لقبه لماكبث . ويجيب دنكان بأنه لا يملك دليل وفاة جلاميس. « جئنى بالجثة ». ولكن الجثة طفت على البحر . «خذ زورقاً وابحث عنها ». ولكن سمك القرش أكلها . « خذ سكيناً وابقر به بطن القرش » . إن الملك يسخر منه ، وهو الذى فتك بأعداء الملك . ويجيب دنكان : « لقد وجدت متعة فى الفتك بهم » لقد كدت أفقد حياتى من أجلك . « ولكنك لم تفقدها » . باختصار أن الملك لا يقدم حساباً لرعاياه عن تصرفاته . وعند خروج بانكو يهمهم دنكان فى أذن ياوره : «كان ينبغى أن أعطيه اللقب ، ولكنه يريد الأملاك أيضاً ،

وهى حق يئول للتاج . ومع ذلك قال غدا بانكو خطراً يجب الحذر منه . منتهى الحذر» . ثم يضيف فى إيحاء . «ألا ترغب فى لقبه ونصف أملاكه ؟ أقصد لو غدا خطراً ؟ » إن الياور يفهم الإيحاء وتلمع عيناه فرحاً ، وهنا يضيف الملك : « ماكبث أيضاً قد غدا خطراً . ربما كان يطمع فى الجلوس على عرشى . يجب الحذر من كل هؤلاء الناس . إنهم من رجال العصابات . كلهم . كلهم . إنهم لا يفكرون إلا فى المال ، فى السلطة ، فى الترف . وماكبث بالذات . لا يدهشنى أنه يطمع فى زوجتى أيضاً وفى محظياتى بطبيعة الحال » .

* * *

هذه إذن كانت أسس الملك فى بلاط الملك دنكان . حتى زوجته الملكة قد تألبت عليه . وهكذا تفرخ المؤامرة الثانية على عرش اسكتلندا . بمنتهى الحذر يتكاشف ماكبث ودنكان . ويبدأ بينهما حوار يذكرنا بحوار كودور وجلاهيس . إن الملك طاغية . إنه يجبى من كل نبيل فى بلاطه كل سنة عشرة آلاف دجاجة ببيضها وعشرة آلاف جواد وعشرة آلاف مقاتل وعشرة آلاف شاة وعشرة آلاف خنزير ، وألف بنت عذراء لفراشه . إنه طاغية وينبغى سحقه . وتكون المفاجأة عندما يعلن ماكبث لبانكو أن الملكة ، الليدى دنكان ، طرف ثالث فى المؤامرة . ويتعاهد الثلاثة على الفتك بالملك ، وتقدم الملكة هذا الشعار : « نعيش معاً أو نموت معاً » .

ويحل يوم التنفيذ ، وهو يوم شفاء المرضى ، فالملك بقوته الإلهية أو بحق

الملوك الإلهى ، يحج إليه كل عام موكب المصابين بالكساح وبالجذام وبالصرع وبكل وبيل من الأمراض عجز الطب عن شفائه ، وهو يشفيهم بلمسة من يده . وتتم المراسم كالعادة فى حضور الكاهن ،وما إن ينصرف المرضى إلا اثنين ، حتى ينزع الكاهن غطاء رأسه فإذا هو بانكو مستخفياً فى زى راهب . كذلك ينزع آخر مريضين أسمالهما فإذا بهما ماكبث والملكة ، ويتجمهر القتلة الثلاثةعلى الملك ويصرعونه بخناجرهم . وتلقى الملكة نظرة التأمل على جثة الملك المسجاة عند قدميها وتقول : « برغم هذا فقد كان زوجى . والآن أراه ميتاً فأحسبه يشبه والدى ، لقد كنت أكره والدى » .

* * *

وفى الخارج تهتف الجماهير : « عاش ماكبث ! عاشت الليدى ماكبث ! » إن كل شئ قد أعد لتتويج ماكبث وزفافه إلى الملكة . نعم . اليوم تصبح الليدى دنكان الليدى ماكبث . وتأكل الغيرة قلب بانكو . فهكذا آل كل شئ إلى ماكبث : التاج وألقاب النبلاء وأملاكهم ، وأخيراً يد الملكة الفاتنة . أما هو فقد خرج من هذه الصفقة بخفى حنين . إنه حزين ينهشه تأنيب الضمير . ومع ذلك فعزاؤه الباقى هو نبوء الساحرات بأنه سيكون أباً لأسرة عظيمة من الملوك يحكمون البلاد ألف عام . فليكن . ولكن لكى يكون بانكو أباً لابد له أولا أن يتزوج . وهل هناك أنسب له فى الجمال والمقام من وصيفة الملكة ؟

ويسمع ماكبث بانكو التعس وهو يناجى نفسه على هذا النحو

فيهتاج اهتياجاً عظيماً . أمن أجل اخلاف بانكو قتل ماكبث مولاه ، وخان عهد الولاء للعرش ؟ إن بانكو سادر فى أحلام لن تتحقق واو أرادت ذلك الساحرات. لسوف يموت ، فتموت معه ذريته إلى أبد الآبدين. ويطعن ماكبث بانكو طعنة ترديه قتيلا .

* * *

لم يبق إلا أن تزف الملكة إلى ماكبث ملكاً لتصبح الليدى ماكبث وهنا نرى مشهداً عجباً . نرى الليدى ماكبث ووصيفتها وقد عادتا إلى القصر الملكى بعد مراسم الزفاف تعدان فى عجلة حقائب السفر . إن ماكبث قد شرب فى حفل الزواج حتى ثمل ، وهو الآن يغط فى نومه . وتقذف الليدى ماكبث بالتاج على الأرض وهى تصرخ : فليذهب هذا التاج المقدس إلى الجحيم ، ثم تقذف بعقدها المتدلى حول عنقها وبه صليب يحرق صدرها . ثم تخلع ثوب الزفاف الأبيض وتقذف به لأنه يذكرها بالطهارة والنقاء . وتلبس ليدى ماكبث جلباب الساحرة القذر البغيض المنظر . ثم تنزع عنها شعرها الفاتن وتلبس مكانه شعر الساحرة الأشيب المنفوش ، ثم يتغير وجهها وينحنى ظهرها فإذا الملكة الليدى ماكبث تتخذ من جديد صورة الساحرة الشمطاء. وهذا بالضبط ما يحدث لوصيفتها ، إنهما لم يعد لهما عمل فى هذا المكان . لقد رتبتا كل شيء وأفسدتا كل شيء . ويجب أن ترحلا على وجه السرعة . إن سيدهما (الشيطان) لا شك سعيد بما جلبتا من دمار ودماء فى القصر الملكى ، وهو بحاجة إليهما ليوفدهما فى مهمة جديدة . وهكذا تحمل

كل عكازها وتمتطى حقيبتها وتطير فى الهواء وكأنها تمتطى موتوسيكلا تكون له قعقعة مزعجة ، أو تبسط ذراعيها فى الهواء وتطير وكأنها النسر الطائر .

* * *

وفى قاعة العرش ينتظر الملك ماكبث الملكة ليدى ماكبث وحوله ضيوفه الذين أقبلوا لمأدبة الزفاف فى قاعة العرش . ويكون انتظاره طويلا ، ويبدو ماكبث فى حالة اضطراب عظيم ، فيخيل إليه أن الصورة الملكية المعلقة فى القاعة ليست صورته ولكن صورة الملك القتيل دنكان ، ويتجلى له شبح بانكو فيشتد هياج ماكبث . وأخيراً يتجلى شبح الملك القتيل دنكان ويسير فى تؤدة إلى عرشه ويجلس عليه . فيفزع الحاضرون ويجثون أمامه . ويقول شبح دنكان لماكبث : نعم ، أنت قتلتنى لأنى كنت طاغية أقتل الآلاف وأبيد القرى وأظلم الرعية . كل هذا صحيح وأعترف به ولكن هناك شيئاً واحداً كاذباً فى كل ما تقوله عنى . لقد أخذت تاجى ومملكتى ومالى وسلطانى ، ولكنك لم تأخذ زوجتى كما تظن ويبدو هذا مثل كلام المجانين . ولكن سرعان ما يتبين أنه الحقيقة نفسها . لأن شبح دنكان يختفى وتدخل من بعده الملكة . تدخل بلا تاج ولا جواهر ولا ثياب من ثياب الملك ، بل تبدو فى ثوب بسيط تتبعها وصيفتها . وينهض الحاضرون لاستقبالها ويهتفون بحياتها . بحياة ملكتهم المحبوبة الليدى ماكبث . فتقول الملكة فى تؤدة : صمتاً .. محبوبة أو غير محبوبة ، أنا لا أزال ملكتكم . ولكنى لست الليدى ماكبث كما تتوهمون

بل أنا الليدى دنكان أرملة مليككم الشرعى القتيل .

* * *

ويظن ماكبث والحضور أن بالمرأة مساً من الجنون ، لأنهم حضروا حفل زفافها إلى ماكبث ، ولكنها تفسر لهم كل شيء ، لقد جاءتها الساحرتان وسجنتاها فى قبو القصر الملكى مع وصيفتها ورمتاها فى الأغلال ، وأخذتا من كل هيئتها وصوتها ، وإن من رآه الناس فى الكنيسة يزف إلى ماكبث لم يكن الملكة بل كان الساحرة تتبعها صاحبتها الشمطاء ، إنها تعلم كل شيء عن مقتل زوجها ومقتل بانكو وكل ما كان من اغتصاب عرش البلاد .

ويضطرب الحاضرون فيهتفون آنا بحياة ماكبث ويهتفون آناً بحياة مليكتهم الحزينة ، ويشتد هياج ماكبث فيطردهم من قصره ليبقى وحده فى مواجهة الليدى دنكان التى تقول له هازئة : « لن تخرج من هنا . لن تحكم البلاد . لأن الفتى مالكولم ولى العهد الشرعى قد جاء من قرطاجة على رأس جيش عظيم ليسترد عرش أبيه . إن البلاد كلها قد تألبت عليك وتخلى عنك أصدقاؤك » .

ويدخل الفتى مالكولم شاهراً حسامه ، ويكون نزال بينه وبين ماكبث يسفر عن مصرع ماكبث وانطواء صفحته ، هذا الذى تنبأت له الأقدار بأنه لن يهزمه رجل ولدته امرأة . وقد كان الفتى مالكولم حقاً هذا الرجل الذى لم تلده امرأة ، فحين يروى علينا قصته نعلم أنه ليس ولد دنكان من صلبه بل ولده بالتبنى ، لأن الليدى دنكان كانت

عقيماً لا تنجب . إنه ولد بانكو من غزالة مسحورة فى صورة امرأة ، وقد ارتدّت أمه غزالة قبل ولادته . وحملته الليدى دنكان إلى القصر الملكى وزعمت أنه وليدها ليرث العرش . إنه قد جاء ليثأر لأبيه الحقيقى (بانكو) ولأبيه بالتبنى (دنكان) وليجلس على عرش البلاد . إنه بانكو الثانى ، وسوف يكون هناك بانكو الثالث وبانكو الرابع وبانكو الخامس وبانكو السادس وعشرات غيرهم . وهكذا تحققت النبوءة .

وعندما يجلس بانكو الثانى على العرش تحسب الرعية أن عهد الطغاة قد انتهى ، ولكن الملك الجديد يبدد أحلامهم . إنه لم يأت ليحقق أوهامهم فى العدالة والرخاء ، فى الفضيلة والسلام . إنه جاء ليحكم رعاياه الحمق الأوغاد الجبناء بالنار والحديد . لسوف يصادر كل أملاكهم . لسوف يضاجع كل نسائهم . لسوف يسترق كل رقابهم . لسوف يبدو ماكبث الأسود اللعين ملاكاً نورانيًّا بالقياس إليه. لسوف يجعلهم يترحمون على أيام ماكبث !



الفصل الثانى عشر

فى النساء والرجال

بعد أن شاهدت فى باريس تجربة يونسكو الجديدة ، حول موضوع « ماكبث » ، شاهدت مسرحية جديدة للكاتب الأمريكى إدوارد ألبي أسمها : « كل ما فى الحديقة » ، وهى مقتبسة عن مسرحية لكاتب مسرحى توفى حديثاً ، اسمه جايلز كوبر ، وقد أعاد ألبي صياغتها . والعنوان نفسه مقتبس من عبارة معروفة هى : « كل ما فى الحديقة ورود » . والذى شاهدته طبعاً فى مسرح ماتوران هو الترجمة الفرنسية لمسرحية ألبي الجديدة ، وليس نصها الإنجليزى .

وقد وصلت إلى مسرح ماتوران ، وهو مسرح تديره أرملة هارى بور الممثل العظيم ، قبل ارتفاع الستار بنصف ساعة ، فذهبت أتسكع أمام واجهته ، وفى بهو مدخله أقرأ الإعلانات الجسيمة المعلقة على جدرانه ، وهى تعلن عما سبق لهذا المسرح أن قدمه من مسرحيات وما سوف يقدمه فى المستقبل القريب ، فوجدتها قوائم ممتازة من مسرحيات الطليعة كأعمال أداموف وأرابال ومرجريت دورا إلى الكلاسيكيات اليونانية مثل « أليكترا » سوفوكليس إلى الروائع التقليدية مثل بعض أعمال شكسبير وجوجول وتشيكوف وبيرانديلو وكونجريف إلخ .. ولكنى وجدت بينها مسرحية اسمها « الرجل الذى فقد ظله » : « مسرحية من ثلاثة فصول تأليف

بول جيلسون ، مستوحاة من قصة شاميسو » ، فضحكت لأنى تذكرت الصديق فتحى غانم وروايته ، المعروفة . ولما كنت لا أعرف من شاميسو هذا ، رأيت أن أذكر هذه الواقعة لأنها قد تهم الصديق فتحى غانم أو تسرى عنه .

وقد وجدت مسرحية « كل ما فى الحديقة ورود » وردة سوداء من ورود الشر ، برغم أنها نموذج ممتاز من المسرح الواقعى الحديث ، بلا شعر ولا رمز ولا أسطورة ولا خيال . أو فلنقل على الأصح إنها نبات جميل مسموم من تلك النباتات الجميلة المسمومة الكثيرة التى أينعت فى الوجدان المعاصر لأنها تصور كل النساء وكأنهن بغايا وكل الرجال وكأنهم قوادون . والذى يخفف قليلا من ظلامها أنها لا تدعى أنها تتحدث عن الطبيعة البشرية وتنسب إليها هذه الخصائص ، وإنما تتحدث عن الناس فى المجتمع المدنى المعقد فى القرن العشرين ، أو بتحديد أدق فى الحضارة البورجوازية المعاصرة . متمثلة فى الحضارة الأمريكية . فالمسرحية إذن فى حقيقتها هجاء فظيع للحضارة الرأسمالية الغربية التى تنتج مثل هذه النباتات السامة المسمومة .

ومسرحية « كل ما فى الحديقة ورود » تدور حول موضوع مألوف ، وهو تصوير حياة أسرة أمريكية من الطبقة المتوسطة الصغيرة فى بلدة أمريكية صغيرة . وأعضاء هذه الأسرة ثلاثة هم الأب (ريتشارد) ، وهو موظف دؤوب مستقيم تجاوز الأربعين مؤمن بكل الفضائل التقليدية ، وزوجته الجميلة الفاضلة المحبة له المتفانية فى الإخلاص له (جينى) ، وهى فى نحو الخامسة

والثلاثين ، ثم ابنهما الغلام الذى يدرس فى المدرسة الثانوية وقد اقترب فى دراسته من إتمام شهادة البكالوريا .

غير أن هذه الأسرة الصغيرة النموذجية ، لأنها نموذجية، وقعت فى حبائل النظام الاقتصادى الاجتماعى الأمريكى كغيرها من ملايين الأسر ؛ فهى قد أقامت عمادها على أساس الاقتناء بالتقسيط المريح الذى بغيره ينهار الاقتصاد الأمريكى والصناعة الأمريكية . فالزوج قد اشترى فيلا جميلة مريحة لها حديقة جميلة مريحة ، واشترى أثاثاً جميلا مريحاً وسيارتين جميلتين مريحتين : إحداهما لشخصه ، والأخرى لزوجته، كما اشترى كل الأدوات الكهربائية اللازمة من ثلاجة ، وغسالة ، وتكييف .. إلخ ، مما تقدمه الصناعة الحديثة . كل ذلك اشتراه الزوج بالاتفاق مع زوجته على أساس التقسيط المريح . وبالتالى فأكثر دخله ، وهو دخل متوسط ، ينفق شهرياً فى سداد أقساط البيت والسيارة والثلاجة والغسالة .. إلخ ، فى اليوم الأول من كل شهر ، ثم يعيش الزوجان فى ضنك شديد بقية الشهر . وقد دامت هذه الحالة سنوات وسنوات لأن كل ما يسدد ثمنه يبلى ولا بد من تجديده ، والفلسفة التى تقود هذه الأسرة الأمريكية المتوسطة ، كما تقود ملايين الأسر الأمريكية المتوسطة ، هى المحافظة على ما يسمونه « المركز الاجتماعى » ، وعلى « المظهر المحترم » بين الأقران والجيران والمعارف ، ولذا فهى تحتمل هذا الضنك فى صمت نبيل سنوات طوالا يبدو أنها بلا نهاية فى سبيل المظهر والمركز .

ولكن الغلام الوحيد يكبر ويصبح فتى ويقترب من دخول الجامعة

وتكثر نفقات تعليمه ونفقاته الشخصية ، والأسرة حائرة فى الأمر ، لأنها مهددة بسبب حياة الشظف التى تعيشها أن تقطع تعليمه وتدفع به إلى العمل فى سن باكر ، وهو مصدر شقاء عظيم للأب والأم . ثم إن حشائش الحديقة الهائشة ، كان الأب يشذبها ويسويها بالمقص سنوات وسنوات وهو الآن يتقدم فى العمر ويحلم بماكينة كهربائية تسوى له حشائش حديقته الجميلة وتوفر له عناء العمل اليدوى ، وهو لا يجد ثمن هذه الماكينة .

وفى لحظة من لحظات التشاكى المنزلى بين الزوج والزوجة من ضيق الحال والجزع على مستقبل ابنهما يتفقان على أنه لا حل لكل هذه المشاكل إلا أن تخرج الزوجة للعمل لتكسب بعض المال الذى يمكن الابن من الاستمرار فى كليته ويأتيهما بقصافة الحشيش الكهربائية ويدخل بعض الراحة على حياتهما اليومية . غير أن هذا يثير مشكلة من نوع جديد ، فالزوجة الجميلة الفاضلة الأنيقة ، كأى بنت من بنات الطبقة المتوسطة لاتتقن أى عمل من الأعمال لأن أسرتها نشأتها على أن تكون « ست بيت » وأما للأطفال وكفى. وأخيراً يستقر رأيهما على أن العمل الوحيد الذى تستطيع الزوجة القيام به هو أن تعمل كمضيفة حيث لاتطلب من المرأة أية خبرات خاصة إلا حسن المظهر وحسن الاستقبال وآداب السلوك ، وهذه كلها متوافرة فى هذه الزوجة .

ولا يحس بمتاعب هذه الأسرة الداخلية إلا شاب صديق للأسرة اسمه جاك ، وهو مليونير بالوراثة ، ولكنه سكير متلاف لا يفيق من

الشراب ، ويقضى حياته بين النوادى والنوادى الليلية ، وهو لكثرة ماله لا يعرف للحياة طعماً ولا معنى ، فحياته كلها يوم بلا غد ، يغلفها يأس يائس ، وهو يحاول أن يبدد هذا الصراع الكامل بالانغماس فى الملذات وكثرة الترحال والسير سيرة العاطلين بالوراثة ، وهو أعزب بلا عمل ولا أمل . وربما كانت فيه بعض ملامح من الشذوذ الجنسى . وهو يقتنى العشيقات ويهملهن كما يقتنى الكرافتات ويهملها . ومع ذلك لم يحاول أبداً أن يغوى الزوجة جينى لأنه كان يحترمها ويحبها حباً بريئاً لا يريد أن يفسده ، فهى عنده كل ما بقى فى مجتمعه الصاخب من ملامح الفضيلة الفطرية والبساطة الطبيعية . وكان لا يخفى عنها عواطفه الحقيقية بدون مبالغة ، ويقول لها دائماً إنه عندما يموت سوف يترك لها فى وصيته ثلاثة ملايين دولار ، فتكون دعابة لطيفة تسر بها جينى ويسر بها الزوج ريتشارد لأنهما يصرفانها على أنها من مزاح الكلام . وما إن ينصرف حتى يعود ريتشارد وجينى إلى التشاكى حول ضنك الحياة وضرورة خروجها للعمل حتى تستقيم الأمور .

وفيما هما فى هذه الورطة تأتى زائرة غريبة فى نحو الخمسين لتزور جينى فى أثناء غياب زوجها فى عمله ، وتقدم نفسها لها على أنها مسز كريكيت . وتبدأ مسز كريكيت كلامها بقولها إنها عرفت أن جينى تبحث عن عمل ، وإنها قد جاءت لتساعدها فى ذلك . وتذهل جينى لأنها لم تفض لأحد بمتاعبها أو نواياها . فتطمئنها مسز كريكيت بقولها إنها تعرف كل شىء عن كل الناس فهذه مهنتها . إنها تعرف أن جينى

لا تتقن عملا بالذات ، ولذا فهى تستطيع أن ترتب لها أن تعمل كمضيفة وسوف تجد أنه عمل مجز . ومسز كريكيت امرأة عملية باردة الصوت حاسمة العبارات والنبرات ، ودائماً تدخل مباشرة فى الموضوع . وتخرج من حقيبة يدها رزمة من البنكوت ، ألف دولار ، قائلة : خذى هذه دفعة أولى تحت الحساب . وتحار جينى فيما تسمع وما ترى ، وتحملق فى رزمة الدولارات . ما هذا ؟ ما كل هذا ؟ أى عمل هذا الذى يدر كل هذا المال ؟ إنها تشتبه فى مقاصد هذه المرأة الغريبة الصارمة الملامح والعبارات . وترفض طبعاً أن تأخذ الدولارات . لابد أن هذه المرأة تنصب لها فخاً . ولكن المرأة تلح وتضع الدولارات فى يد جينى المذهولة قائلة :

خذى هذا . سوف تحل كل مشاكلك . العمل بسيط . سوف تعملين كمضيفة عندى . أربع مرات فى الأسبوع . كل مرة سيكون أجرك مائتى دولار . يعنى ثمانمائة دولار فى الأسبوع ، يعنى أكثر من ثلاثة آلاف دولار فى الشهر . وقد تصل بالبقشيش إلى خمسة آلاف دولار إذا سر الزبائن من خدمتك . ما هى مواعيد عمل زوجك ؟ وتجيب جينى ذاهلة : كل يوم ويخرج فى الثامنة صباحاً ويعود فى السابعة مساء . فتقول مسز كريكيت : عظيم . عظيم . عملك من الثالثة للسادسة أربعة أيام فى الأسبوع . وتسأل جينى فى حدة : برغم ذهولها أى عمل هذا ؟ فتجيبها مسز كريكيت : أنت لست وحدك . عندى مضيفات كثيرات . تأتين إلى بيتى فى المواعيد المحددة . أنت جميلة

وشابة ومظهرك ممتاز . تستقبلين زبائنى من الرجال . أنت تفهمين . رجال سئموا زوجاتهم . رجال أعمال على سفر . رجال يشتكون من الوحدة . ولكنهم جميعاً ظرفاء .. مهذبون . أنا لا يدخل بيتى إلا صفوة الرجال ، وبعضهم كرماء للغاية ، إذا ارتاحوا إليك غمروك بالهدايا . يمكنك أن تبدئى العمل فوراً .

وتفهم جينى المطلوب منها : أن تعمل فى بيت دعارة . وتثور ثورة عارمة وتقذف بالدولارات فى وجه مسز كريكيت فتتبعثر على الأرض ، وتطردها شر طردة : خذى دولاراتك القذرة واخرجى فوراً فوراً ، وإلا استدعيت البوليس ولكن المرأة تنهض فى هدوء وتقول فى صوت بارد : سأمضى . على كل حال فكرى فى الأمر . هذه بطاقتى تحمل عنوانى . إذا قررت .. وتقذف جينى بالبطاقة فى سلة المهملات وتصرخ فى هيستيريا : اخرجى فوراً أيتها القذرة . اخرجى . وتنصرف مسز كريكيت . وتترنح جينى لهول ما سمعت . ثم تسترد هدوءها درجة درجة . ثم تنحنى على الأرض وتجمع الدولارات المبعثرة فى كل مكان وترتبها ثم تضعها فى درج كومودينو مجاور . وهنا يدخل ابنها لحظة ثم ينصرف وهى تتأمله ساهمة ينتهبها الحب والجزع . ثم يدق جرس الباب فإذا به ساع يقدم كمبيالة من الكمبيالات التقليدية التى تأكل دخل الأسرة فى كل شهر .وبعد أن ينصرف نرى جينى تمشى جيئة وذهاباً وهى فى حالة من الاضطراب الشديد . ثم تميل على سلة المهملات وتلتقط منها بطاقة مسز كريكيت وتخفيها فى حقيبة يدها .

وتمر شهور ، وتبدو الأسرة أكثر رخاء وأقل توتراً ، بل تبدو أعظم سعادة : الزوج مقبل على زوجته يغمرها بالحب والحنان والزوجة مقبلة على زوجها تغمره بالحب والحنان . لقد اختفت متاعب الأسرة منذ أن بدأت جينى تعمل « كمضيفة » والابن (روجر) دخل الكلية فى القسم الداخلى وهو الآن يقضى العطلة مع والديه . ويأتى ساعى البريد ليسلم للزوج ريتشارد ظرفاً مسجلا ما إن يفتحه حتى يجد بداخله رزمة بخمسة آلاف دولار . ويدهش ريتشارد ، فليس هناك خطاب وليس هناك تفسير لهذه الرسالة ، بل ليس هناك عنوان من مرسل . وتقول جينى لا شك أنها هدية من صديق. إن ريتشارد لا يعرف صديقاً يمكن أن يهديه مثل هذا المبلغ الطائل . إذن لاشك أنها مكافأة من رجل أسدى إليه ريتشارد صنيعاً كبيراً ولكن ريتشارد لا يذكر أنه سدى لأحد صنيعاً كبيراً . لاشك أن هناك خطأ ما . لا ليس هناك خطأ ما فالظرف يحمل اسمه ومع اسمه عنوانه ، وهو ليس عنوان شخص آخر يحمل الاسم نفسه . إنه حائر ، إنه يكاد يجن من الحيرة ، لسوف يعيد المبلغ إلى مصلحة البريد أو يسلمه إلى البوليس ، وتقول جينى : هذه تكون حماقة . فالمال فى يده ، وكل شىء يدل على أنه موجه له . أياً كان التفسير فالمال ملك له . لكم كانايتمنيان أن يقيما حفلة كوكتيل يدعوان إليها جيرانهما الوجهاء مستر فلان وزوجته ، ومستر فلان وزوجته ومستر فلان وزوجته . ألم يكن يتمنى أن يرى أقرانه حديقته الجميلة والجازون الجميل الذى يتعب فى تصفيفه كل يوم أحد بعد أن اشترى

قصافته الكهربائية ؟ ها هى ذى الفرصة قد سنحت وهو يريد إضاعتها .

ودرجة درجة يقتنع ريتشارد وتغمره الفرحة . إن زوجته على حق . ماذا يهم من أين جاءت النقود أو لماذا ؟ إنها الآن فى يده وهى ملك له . لسوف يميم حفلة الكوكتيل التى طالما تمنى أن يقيمها ويدعو لها الجيران والأصدقاء . وهو اليوم يدعوهم بالفعل . فيلبون دعوته ، ويأمر بالويسكى والجن والفرموت وكل أنواع الشراب . فتجيئه ، استعداداً لحفله المساء . ومع ذلك تعود إليه الحيرة القاتلة ، فيذهب يرهق زوجته بالأسئلة الحائرة ، وهى لا تعرف بماذا تجيب إلا أن تحاول صرف تفكيره عن الموضوع ، ويفتح ريتشارد درج الكومودينو مصادفة بحثاً عن شىء فيقع بصره على أكداس من آلاف الدولارات مرتبة ومخبأة فيه ؛ ويخرج من الحيرة إلى الاضطراب . ما هذا ؟ من أين جاءت كل هذه الدولارات ؟ لاشك أن فى الأمر سراً خطيراً تعرفه جينى وتخفيه عنه . وتقول جينى إنها مكاسبها من عملها . غير معقول . أى عمل يمكن أن يعود عليها بكل هذه الآلاف . وتقول جينى فى احتجاج وبراءة : ولكنى اشتغلت ستة أشهر ! ستة أشهر أو سنة أو ثلاثة . محال محال أن تكسب مضيفة كل هذا المال ؟ لا بد أن تكشف جينى له عن سر كل هذه الأموال . وأخيراً تعترف له جينى بالحقيقة . إن مسز كريكيت هى السبب . ولكنها تحبه . تعبده . لقد فعلت كل ذلك من أجله . ومن أجل ولدهما روجر ليتم تعليمه الجامعى .

ويصاب ريتشارد بهياج كهياج المجانين . ويصفع جينى ثم يصفعها

ثم يركلها ، ويسبها بأفحش السباب : مومس . قذرة . يا للعار ! وهى تتقبل كل ما ينزل بها صاغرة ، ولا تجد ما تقوله إلا أنها تحبه ، وأنها ظنت أنها بذلك تحل مشاكل الأسرة . وبعد أن يفرغ ريتشارد شحنة الغضب العارم ينهار على مقعد وينتحب كالأطفال . ووسط نشيجه يتحدث عن الطلاق . نعم . لابد من الطلاق . وفيما هما كذلك يدخل ابنهما روجر لحظة ويشهد هذه العاصفة التى لا يفهم سببها . فينسحب . أو تأمره أمه بالانسحاب . ثم تستجمع جينى قواها وتقول : فليكن . ولكن ليتم كل شيء فى هدوء . غداً صباحاً نبدأ إجراءات الطلاق . أما هذا المساء فتمالك نفسك . إن الضيوف قد أوشكوا أن يصلوا . تمالك نفسك أمام روجر وإلا حطمته نهائياً .

ويهب ريتشارد من جديد عند ذكر الضيوف ويعود إليه هياجه . ولكنه لا يلبث أن يقتنع برأيها . سوف يتمالك نفسه جملة ساعات حتى ينصرف الضيوف . يا للعار ! بأى وجه يقابل الناس بعد ذلك . ولكن غداً صباحاً سوف ينتهى كل شيء .

وسرعان ما يقبل الضيوف : ثلاثة رجال من وجهاء الجيرة ومعهم زوجاتهم الثلاث كلهن جميلات ورشيقات وأنيقات فى أغلى ثياب . ويكون استقبال غريب اختلط فيه المرح المصطنع والعصبية الواضحة ويخرج بهم ريتشارد ليريهم حديقته الجميلة .

وفى أثناء غيابهم يدق جرس الباب ، وتكون مفاجأة : إنها مسز كريكيت . وتضطرب جينى وتتضرع إليها أن تنصرف لأن بالبيت

زواراً ، ثم إن زوجها موجود . ولكن مسز كريكيت لا تحفل بتوسلاتها بل تأخذ طريقها إلى مقعد وتجلس فى استقرار . إنها جاءت فى أمر هام : لقد اكتشف البوليس أنها تدير منزلها للدعارة ، وقد يكبسونه بين يوم وآخر ، ولابد لها من أن تغير مقر عملياتها . وأنسب بيت وجدته لذلك بيت مجاور لمحطة السكة الحديد ، وزوجها بحكم عمله هو الذى يملك أن يؤجره لها . فيجب إقناعه بذلك .

ويدخل ريتشارد وضيوفه بعد أن تفقدوا الحديقة ليجدوا مسز كريكيت . وتحاول جينى أن تسيطر على اضطرابها فتبدأ فى تعريف الضيوف بمسز كريكيت ، ثم تكون المفاجأة الجديدة . إذا بمسز كريكيت تقول فى لهجة متهكمة : « كيف حالك يا بريل ؟ وأنت يا لويز ، أرجو أن يكون الصفاء قد عاد بينك وبين زوجك ؟ أما أنت يا سنثيا ، فسأخصم منك مائتى دولار لأنك تغيبت عن عملك يوم الأربعاء . وهكذا ندرك أن العقيلات الثلاث يعملن مثل جينى فى مشغل مسز كريكيت . ويحملق ريتشارد ذاهلا ، فقد كان يتوقع أن تثور فى بيته العواصف الزوجية حين يكتشف الأزواج المخدوعون حقيقة زوجاتهم ، ولكنه يدرك أن الأزواج الثلاثة على علم بكل ما يدرى . وتعود إليه نخوة الرجال ويعود إلى هياجه فيسب كل النساء العاهرات والأزواج القوادين ، ويتهجم على مسز كريكيت ، ولكن رفاقه يهدئون من روعه ، وأخيراً يقول له أحدهم : اهدأ يا ريتشارد . لا تحسب أننا نختلف عنك فى شىء . لقد ثرنا مثلك حين اكتشفنا الحقيقة ، وكدنا

أن نقتل زوجاتنا ، ولكننا هدأنا بعد وقت ، وقبلنا الأمر الواقع ، ثم ألفناه . إن الحياة صعبة كما تعلم ، والغلاء يشتد . كان علينا أن نختار بين السعادة والشرف فاخترنا السعادة . غداً تألف هذا الموضوع وتتعايش معه كما ألفناه وتعايشنا . أما الآن فلنفكر فى حل مشكلة مسز كريكيت لا بد أن نساعدها على تأجير المنزل الجديد ، وإلا تعرضنا جميعاً للفضيحة .

ويسمع ريتشارد هذا الكلام فى ذهول ، ولكنه يجد نفسه درجة درجة ينساق مع ضيوفه الثلاثة والنسوة الخمس إلى بحث هذا الموقف الجديد فى هدوء وإلى تدبير الحاول لمواجهته !

وفيما هم كذلك يدخل عليهم صديقهم الشاب المليونير السكير جاك ، وهو فى حالة سكر بين لا يكاد يحفظ توازنه . وما إن يقع بصره على مسز كريكيت ، حتى يوسعهما تهكماً وهو ينظر نظرات العتاب إلى جينى . إنه لم يكن يتصور أن مسز كريكيت يمكن أن تمد تخوم إمبراطوريتها بحيث تجعل امرأة فاضلة مثل جينى بين رعاياها . أما الأخريات فقد عرفهن فى المراش وهن يثرن تقززه . لقد كانت صدمة لجاك أن يرى مسز كريكيت ملكة المواخير فى لندن سابقاً ثم فى عديد من مدن أمريكا ، فى دار جينى . وينهض جاك . إنه عائد إلى ناديه حيث العاطلون بالوراثة سيئون للغاية ولكنهم أقل سوءاً من هذا العفن البورجوازى ، حيث المتطلعات والمتطلعون يضحون بأبسط معانى الشرف من أجل « المركز الاجتماعى » .

ويصاب الجميع بذعر عظيم ، إن الشاب السكير جاك شاب طيب ، ولكنه مخمور ، ولا يؤمن إن هو عاد إلى النادى أن يثرثر عما رآه : حفلة عائلية تجتمع فيها ملكة القوادة بالزوجات والأزواج

وتقول النسوة : امنعوه . ويتألب الرجال الأربعة على جاك المترنح ويمددونه على الكنبة ويجلسون عليه ليمنعوه من الحركة دقيقتين أو ثلاثا ، ثم يتركونه ، فإذا ذراعه تسقط فى استرخاء م... . متتقدم مسز كريكت وتجس نبضه برهة ثم تعلن : لقد مات .

وفى خليط من الفزع والوجوم والحزن العميق على موت جاك يقف الجميع كالبله لا يعرفون ماذا يفعلون . فى البيت جثة رجل ميت ، ولا شك أن البوليس سيطرق الباب إذا لم يجدوا حلا لهذا الإشكال . ويقول ريتشارد رب البيت : إذا نحن ألقينا جثة جاك فى الشارع فسيظنون أنه مخمور مات من فرط السكر ويتكفاون به . لقد كانت حا ته تدل على ذلك . ولاشك أن عشرات من الناس رأوه فى النادى يترنح قبل مجيئه . وتقول مسز كريكيت : هذه فكرة نيرة ستدفع بنا جميعاً إلى السجن . ألا تعلم أنهم سيشرحون الجثة لتحديد سبب الوفاة ويكشفون انفجاراً فى أوعية الرئة نتيجة الاسفيكسيا ، فيعرفون أنه مات مخنوقاً ، ولم يمت من التسمم الكحولى ؟ وتعود الحيرة والفزع وتتردد عبارة واحدة : ما العمل ؟ ما العمل؟ وهنا تقول مسز كريكيت بلهجة الآمر : هناك حفرة عميقة فى الحديقة . احملوه إليها فى الظلام وادفنوه فيها ، ثم انسوا الموضوع وتعالوا نتدبر مسألة تأجير البيت الجديد . ويحمل

الأربعة جثة جاك المسكين ويخرجون بها إلى الحديقة، ثم يرجعون بعد دقائق ويأخذ كل مكانه على مقعده . وبعد صمت وجيز يقول ريتشارد : أليس هناك بيت آخر غير البيت المجاور للمحطة ؟ هناك صعوبات في تأجيره وهي كذا وكذا وكذا . وينغمس الجميع في مناقشة حول البيوت المناسبة والبيوت غير المناسبة

ويظهر بينهم شبح جاك وقد عاد من العالم الآخر، ويقول مخاطباً الجمهور : مسكينة جيني . لقد كنت شديد الإعجاب بها . وقد تركت لها في وصيتي ثلاثة ملايين دولار ، ولكنها للأسف لن تستطيع أن تحصل عليها قبل سبع سنوات . فالقانون ينص على أنه لابد من انقضاء سبع سنوات على اختفاء الجثة قبل أن يدرج صاحبها رسمياً في عداد الأموات ، أما ريتشارد المسكين فقد كنت دائماً أعطف عليه لطيبته الشديدة وسط هذا العالم القاسي ، أما الآن فأنا لم أعد أخاف عليه من شيء . لقد تعلم كيف يعتني بنفسه .

وهكذا يعود كل شيء إلى مجراه في هذا البيت النموذجي في هذه البلدة النموذجية في الولايات المتحدة الأمريكية حيث تؤدي مسز كريكيت وظيفتها الاجتماعية الخطيرة ، وهي حل مشاكل التطلع الطبقي في مجتمع البورجوازية الصغيرة . وقد أثبتت مسز كريكيت حقاً أنها جديرة باسمها المضحك لأن لعبتها في الحياة هي أن تدفع بكل الكرات لتستقر في كل الحفر !

الفصل الثالث عشر

الزهرة السوداء

قرأت وأنا في باريس أن مسرح دى تيرتر ، في أعلى مونمارتر ، يقدم عرضاً من « أغاني مالدورور » .. للشاعر الفرنسي الرجيم لوتريامون ، ودفعني الفضول أن أرى كيف يقدم لوتريامون على المسرح . وهو شاعر غير مسرحي ولم يكتب قط للمسرح . وعادت بي ذاكرتي إلى سنة ١٩٤١ ، حين كنت أجلس مع المرحومين : رمسيس يونان ، وكامل التلمساني ، في أحد استديوهات الفنانين في درب اللبانة بالقلعة ونقرأ « أغاني مالدورور » للوتريامون ، ونتحدث عنها وعنه .. وكان لوتريامون قبلها ويومها وإلى يومنا هذا ، من شعراء الخاصة ، لا يقرؤه إلا المثقفون ، ليس فقط في مصر وحدها ، ولكن في فرنسا نفسها . وكان أكبر ازدهار لشهرته بين حلقات الشعراء الرمزيين ، مثل ألفريد جاري ، وليون بول فارج ، وفاليرى لاربو ، ثم بين حلقات السيرياليين . وكنا يومئذ نقرأ لوتريامون في الطبعة المشهورة التي صدرت عام ١٩٣٨ ، وقدم لها رسول السيريالية أندريه بريتون ، والمثال العظيم ماكس إرنست وغيرهما من قادة المثقفين في العالم .

وكان اليوم عصر يوم أحد ، وذهبت إلى مسرح تيرتر ، فوجدته

مسرحاً صغيراً ، كمسارح الجيب ، بجوار كاتدرائية الساكركير ولم يكن فى القاعة إلا ثلاثة غيرى .. وكان العرض « سولو » . أى عرضاً منفرداً ، قدمه ممثل شاب فى نحو الثلاثين ، اسمه كازالاس ، ذو موهبة فريدة فى الإلقاء شغل خشبة المسرح بمفرده ساعة ونصف ساعة متصلة يؤدى أداء دراميًّا ترتيبه الخاص واختياراته الخاصة من أغانى مالدورور ، لا يساعده فى ذلك إلا فقرات مسجلة من موسيقى غريبة وبعض الفقرات المسجلة بصوت آخر يرتفع كالهمس أو كالوحى أو كالفحيح فى الخلفية ، ولا يساعده فى ذلك إلا ماكياج لقناع الموت على وجه شاحب البياض شاحب الخضرة تحت ضوء البروجكتور وسط ظلام المسرح . ساعة ونصف من الشعر المنثور تعلقت فيها أنفاسنا لهذا الفيض من عذاب الشعراء الذين رأوا الشيطان رؤية العين فنسجوا من همسه بردة سوداء كفنوا بها آلاء الرحمن .

وقد كان بودلير ، صاحب « أزهار الشر » ، احدهم . كذلك كان ايزيدور دوكاس ، ذلك الفتى الغامض الغريب الأطوار الذى اختار أن يتخذ لنفسه اسماً مستعاراً هو الكونت لوتريامون ، استعاره من اسم شخصية فى إحدى روايات أوجين سو (الكونت لاتريرمون) . وفى حياته القصيرة التى لم تتجاوز ٢٤ عاماً ، (فقد ولد إيزيدور دوكاس بمونتفيديو عاصمة أورجواى فى ٤ أبريل ١٨٤٦ وتوفى فى باريس فى ٢٤ نوفمبر ١٨٧٠) لحق بركب الخالدين . وقد كتب لوتريامون عن نفسه فى النشيد الأول من «أغانى مالدورور» : « سوف تشهد نهاية القرن التاسع عشر ظهور شاعرها»

(ومع ذلك فهذا الشاعر لن يبدأ بنظم رائعة ولكنه سيتبع قانون الطبيعة) .
وقد ولد هذا الشاعر على شطئان أمريكا فى مصب نهر لابلاتا ، هناك حيث يقيم شعبان ، كانا فيما مضى متنافسين ، وهما يجاهدان الآن ليبز كل منهما الآخر فى التقدم المادى والمعنوى . فبيونس أيريس ، ملكة الجنوب ، ومونتفيديو اللعوب تتصافحان عبر المياه الأرجنتينية على مصب نهر لابلاتا » .

* * *

وواضح من هذا الكلام أن لوتريامون حين تنبأ لنفسه أنه سيصبح شاعر « نهاية القرن » إنما كان يتصور أن الأجل سيمتد به على الأقل إلى منتصف العمر ، ولكن المنية عاجلته فى شرخ الشباب فى ظروف غامضة . فكل شيء كان غامضاً فى حياة هذا الفتى الذى أتعبت سيرته مؤرخى الأدب لخلوها من المعالم الواضحة ومن الدروب الواضحة ومن الصداقات أو الزمالات الواضحة التى تعين عادة على تتبع سير الشعراء . فكل ما نعرفه عن سيرة لوتريامون أنه كان ابن فرانسوا دوكاس قنصل فرنسا بالنيابة فى مونتفيديو من زوجته الفرنسية جاكيت دافزاك ، وكلاهما من بلدة تارب جنوب مدينة بوردو بالقرب من البرانس الفرنسية . وقد كان الأب من قبل يعمل مدرساً فى فرنسا ثم انتقل إلى لسلك السياسى فى ظروف غير واضحة ، ولكن عقد الزواج يدل على أن الزواج تم قبل ولادة الطفل إيزيدور (لوتريامون) بشهرين ، مما يشير إلى خطأ تورط فيه الأب فرانسوا دوكاس مع الآنسة جاكيت وهما

بعد فى تارب ، خطأ جعل الزواج قهرياً . وربما كان هذا هو سبب لجوء الأب إلى تغيير مجرى حياته جملة والتحاقه بالسلك السياسى ورحيله عن فرنسا إلى أمريكا اللاتينية عسى أن يبتعد من مكان الفضيحة . وقد كان الأب يومئذ فى السابعة والثلاثين من عمره ، أما الأم فكانت فى الخامسة والعشرين .

أما سجل الأب فى مونتفيديو فليس فيه كثير معروف إلا أن رؤساءه شهدوا له بالكفاية وحسن معاشرة الناس، وقيل عنه إنه كان ينتقى خليلاته من بين الممثلات ، وإنه كان ذواقة للنساء وللأدب ، فقد كانت له مكتبة عامرة . وقد ماتت أم إيزيدور قبل أن يتم سنتين من عمره ، وهكذا نشأ شبه يتيم فى كفالة بعض قريباته ، وشب فى مونتفيديو حتى سن الثالثة عشرة . ويبدو أن أسرة لوتريامون كانت أسرة من الشواذ لأن أحد الأطباء النفسيين كتب بحثاً فى « مجلة التحليل النفسى » التى تصدر فى بيونس أيريس عاصمة الأرجنتين يقول فيه إنه استطاع أن يستقصى فى أسرة لوتريامون (دوكاس) أربع حالات من الاحتجاز فى مستشفى المجانين وحالتين من الانتحار وحالة واحدة من القتل .

وأول ما نسمع عنه بعد ذلك هو عودة الغلام ايزيدور إلى فرنسا ليتم تعليمه والتحاقه بمدرسة تيوفيل جوتييه فى تارب وهو فى سن الثالثة عشرة ، ثم بمدرسة بو بالقرب من بوردو وبياريتز . وليس هناك ما يدل على أنه حصل منها على البكالوريا فى ١٨٦٤ أو ١٨٦٥ شأن أقرانه (وقد كان منهم الماريشال فوش) . كذلك تعب الباحثون دون جدوى

فى أن يجدوا لاسمه أثراً فى جامعة باريس مما يوحى بأنه لم يبدأ تعليمه الجامعى . وكل ما عرف عنه فى أثناء دراسته الثانوية أنه كان معتزلا أخدانه منطوياً على نفسه غريب الأطوار شديد التعالى كثير الكآبة مستسلماً لأحلام اليقظة دائم الشكوى من الصداع الفظيع ، وكان يتحدث عن نفسه أحياناً على أنه « مريض بعقله » . ولم تبد عليه أية مواهب خاصة فى الدراسة ، بل على العكس من ذلك كان من أوساط التلاميذ ، وإن بدا عليه اهتمام خاص بأدب سوفوكليس وراسين وكورناى وإدجار بووتيوفيل جوتييه . وآخر ما نسمع به عن إقامته فى مدرسة بوكان عام ١٨٦٥ ثم تنقطع أخباره ثلاث سنوات حتى ١٨٦٨ حين نراه يظهر فى باريس . ويبدو أنه قضى هذه السنوات الثلاث فى ونتفيديو .

* * *

ظهر اوتر يامون (إيزيدور دوكاس) عام ١٨٦٧ أو ١٨٦٨ فى باريس أديباً ولم يظهر طالباً ، وكان عمره وقتئذ اثنتين وعشرين سنة . وفى هذا العام نشر النشيد الأول من « أغانى مالدورور » . ويبدو أن اوترياموں حين هبط باريس كان قد اتفق مع والده على أن يحترف الشاعر الأدب ، ربما وهو يتم دراسته فى باريس . فمعروف أن أباه كان يجرى عليه معاشاً شهرياً عن طريق رجل يدعى داراس كان مديراً لأحد البنوك ، ومعروف أن لوتريامون كان يطلب من داراس هذا أموالا علاوة على معاشه لكى ينفقها على طبع النشيد الأول من « أغانى مالدورور » . وفى أواخر عام ١٨٦٨ اتفق لوترياموں مع ناشر مشهور اسمه لاكروا مدير

« المكتبة الدولية » على نشر النشيد الثانى من « الأغانى » وهى دار نشر ذات فروع فى باريس وبروكسل ولايبزيج وليفورنو ، عرفت بنشر الكتب الثورية والمنبوذة والمصادرة ومن بينها بعض أعمال فكتور هيجو وأوجين سوو برودون وزولا . ثم أمد لوتريامون الناشر لاكروا فى أوائل ١٨٦٩ بمخطوط الأناشيد الستة مجتمعة ، وهى كل « أغانى مالدورور » ، على أن تطبع فى أثناء الصيف فى بروكسل على نفقة المؤلف الذى قدم ٤٠٠ فرنك بصفة عربون . ونعرف من أوصاف الناشر لاكروا صورة لوتريامون عنده ، فهو قد « كان شاباً طويلا فاحم الشعر أجرد الذقن شديد العصبية دؤوبا على العمل ، لا يكتب إلا فى أثناء الليل جالساً إلى البيانو يلقى عباراته بصوت عال ، ويصوغ جمله صياغة الصائغ ، ويزن إيقاعها على إيقاع التواليف الموسيقية » . وهكذا طبعت الطبعة الأولى من « أغانى مالدورور » فى بروكسل ، ولكن الناشر حجبها بعد طبعها فلم يوزعها على المكاتب لتعرض على الجمهور « لأن الحياة مصورة فيها بألوان مريرة ولأنه كان يخشى النائب العام » . وقد كان لهذه الصدمة أثر عميق فى نفس لوتريامون حتى إنه بدأ يعد بألا يغنى فى أشعاره القادمة إلا عن « الأمل » و « الصفاء » و « السعادة » و « الواجب » . ولكنه لم يعش ليحقق شيئاً مما وعد به .

« أيها القارئ ! لعلك تريد منى أن أبدأ فواتيح هذا الكتاب بالكلام عن الحقد وليس سواه ؛ ومن أدراك أنك لا تشمشم أثر الكراهية ، وأنت سابح فى شهوات بلا عدد وبغير حدود إلا ما يقر به فؤادك ،

تشمشم بخياشيمك المتغطرسة . وهى واسعة ورقيقة ، وأنت تتقلب على بطنك فى الهواء الأسود الجميل شأن سمكة القرش ، كأنما أنت تدرك أهمية هذا الفعل ، بل أهمية شهوتك المشروعة ، تشمشم بعظمة وهدوء روائح الشر الحمراء ! أيها الوحش ! إن هذه الروائح لتطرب لاشك خياشيمك الممسوخة فى خشمك البشع او أنك بادرت قبل ذلك وتنسمت ثلاثة آلاف مرة متعاقبة ضمير الكون الأزلى الرجيم . . . » .

وهكذا منذ البداية تعرف رأى اوترىامون فى الكون والإنسان . فضمير الكون ملعون رجيم . الحية فى قلب الشيطان والشيطان فى قلب الكون ، والبغض يحكم الوجود . أهو نوع من تنازع البقاء وبقاء الأفسد؟ إنه أكثر من ذلك . إنه شهوة للشر وتلذذ من القسوة يذكرنا بفلسفة المركيز دى ساد .

من أجل هذا يتحدث اوترىامون عن صفحات كتابه قائلا : « هذه الصفحات المظلمة التى تقطر سمًّا » . قال بانجاوس : « لم يعد للديانة المانوية أتباع » ، فأجاب مارتان : « أنا موجود »! « إن اوريامون مثل بودلير وفاوبيز ، يعتقد أن التعبير الفنى عن الشر يتضمن أرقى درجة من درجات الإحساس الأخلاقى » . هذا رأى ، ولعله رأى صائب ، لأن اكتشاف قوانين الكراهية التى تحكم الكون وعالم الأحياء ، وحياة الإنسان بدلا من أن تحكمها قوانين الحب ، هو مصدر عذاب للشاعر . وهو يجد لذة فى هذا العذاب كما يجد العاشق لذة فى سعير الحب .

وبهذا نقترب من بعض ألوان الصوفية التي تجد أن الطريق إلى الفضيلة هو التطهر بالرذيلة ، وتجد أن الشك طريق الإيمان والتجديف طريق العشق الإلهي . وفي الديانة المانوية الله لا يحكم الكون وحده وإنما يحكمه معه الشيطان ، والظلمة تلازم النور والليل النهار طالما الكون كائن في صورته المادية . ولن يكون الكون نوراً على نور إلا في نهاية الزمن أو في الآخرة كما نقول نحن المؤمنين .

« سوف أبين في سطور كيف كان مالدورور خيراً في طفولته حين كان يحيا سعيداً ، وقد بينت . ومن بعد ذلك أدرك أنه ولد شريراً ويا له من قدر عجيب ! فأخفى طبعه ما استطاع إلى ذلك سبيلا لسنوات وسنوات ، ولكنه في النهاية بسبب هذا الجهد المضنى المضاد لطبيعته الذي بذله لإخفاء حقيقته ، وجد أن الدم يصعد إلى رأسه ، حتى تجاوز ذلك قدرته على الاحتمال . فانغمس في إصرار في حياة الشر .. فوجد الراحة في جوه الناعم اللذيذ ! ومن ذا الذي يعقل هذا ! حين قبل مالدورور طفلا صغيراً وردى الوجه . أحب او أنه سلخ منه خديه بحد الموسى ، ولقد كان خليقاً بأن يفعل ذلك مراراً وتكراراً ، لولا أن العدالة وما في ركابها العظيم من رسل القصاص ، أوقفته في كل مرة . ولم يكن مالدورور بالكذاب ، لذا كان يعترف بالحقيقة ويعلن أنه قاسي الفؤاد . أيها البشر ! هل سمعتم ؟ إنه يجسر على قولها المرة بعد المرة ، أن يسطرها بريشته الراعشة هذه ! فهي إذن قوة أقوى من الإرادة .. إنها لعنة ! وهل يستطيع الحجر أن يتحرر من قانون الجاذبية ! محال . محال أن

يحاول الشر الزواج من الخير . وهذا ما قلته لكم آنفاً » .

* * *

« الإنسان خير بالطبع » . هذه هى القضية التى يناقشها الناس والأنبياء والفلاسفة منذ الأزل . ومع ذلك فالرأيان فيها متعارضان حتى اليوم وفيما بينهما ظلال ، ولوتر يامون يقول إن براءة الأطفال الملائكية تخفى تحتها جوهر الشر الملازم للوجود الإنسانى . إن سقوط الإنسان قانون طبيعى كقانون سقوط الأجسام بفعل الجاذبية . ومقاومة السقوط هى مصدر شقاء الإنسان وجنونه . بل إن مجرد إخفاء السقوط هو مصدر شقاء الإنسان وجنونه . أليس هذا هو الكبت وآثاره التى نقرأ عنها كثيراً فى علم النفس ؟ والحل إذن ؟ أن يطلق الإنسان العنان لغرائزه الشريرة ؟ هذا جحيم ، لأن رسل القصاص تقف دائماً بالمرصاد . أن يكبت الإنسان غرائزه الشريرة ، هذا جحيم ، لأنه بمثابة تحد لقانون الأجسام الساقطة . أن يسقط فى الرذيلة وأن يلبس قناع الفضيلة ! هذا ما يفعله الناس . وزواج الشر من الخير رياء . ظاهره الطهارة وباطنه خداع الزناة .

« عقدت مع الدعارة حلفاً بقصد نشر الفوضى داخل الأسر . وإنى لأذكر الليلة السالفة على ليلة هذا الحلف الخطر . رأيت أمامى قبراً وسمعت فراشة النور ، طائر النار ، جسيمة كما الدار ، تقول لى : (سوف أضىء لك الطريق . اقرأ النقش . هذا الأمر السامى لم يصدر عنى) وانتشر فى الهواء إلى مدار الأفق ضوء عظيم بلون الدم ، ما إن رأيته

حتى اصطكت أسناني وسقطت ذراعاى هامدتين . فاعتمدت على سور متهدم حتى لا أتهافت وقرأت : (هنا يرقد فتى مراهق مات بذات الرئة أنتم تعرفون لماذا . لا تصلوا من أجله) . ربما غيرى كثيرون ما كانوا ليجدوا شجاعة مثل شجاعتى . فى هذه الأثناء جاءت امرأة جميلة عارية ونامت عند قدمى . قلت لها بوجه حزين : (يمكنك أن تنهضى) . ومددت لها يدى ، يد الأخ ذابح أخته . وقالت لى فراشة النور : « خذ حجراً واقتلها » . قلت لها ، (ولم أقتلها ؟) قالت ، خذ حذرك أنت الأضعف لأنى أنا الأقوى. هذه المرأة العارية يسمونها الدعارة . واغرورقت عيناى بالدموع واتقد فى قلبى الغضب ، وأحسست بقوة مجهولة تولد فى نفسى . وتناولت حجراً كبيراً ، وبعد جهد جهيد رفعته إلى مستوى صدرى ثم وضعته بساعدى على كتفى وصعدت جبلا حتى قمته ، ومن هناك سحقت فراشة النور ، فغاص فى الأرض رأسها جسيماً بحجم رجل ، وارتد إلى الحجر على ارتفاع ست كنائس ، ثم هوى من جديد فى بحيرة غارت مياهها لحظة ودارت فى دوامة حفرت مخروطاً عظيماً مقاوباً . ثم عاد الهدوء إلى سطح المياه . ولم يعد الضوء الدامى يلمع بعد ذاك . وصاحت المرأة الجميلة العارية : (ويحك ! ماذا فعلت؟) قلت لها : (أنت خير عندى من فراشة النور ، لأن بى رحمة بالتعساء . الذنب ليس ذنبك إذا كانت العدالة الأزلية قد خلقتك) . قالت لى : (فى يوم من الأيام سوف ينصفنى الناس . لن أبوح لك بالمزيد، والآن دعنى أمضى ، لأخفى فى قاع البحر أحزانى السرمدية . ليس فى العالم

سواك والوحوش الشائهة التى تئن فى قاع هذه الهاوية الظلماء ، ليس سواكم من لا يحتقرنى ، أنت طيب القلب . وداعاً يا من أحببتنى) . قلت لها : (الوداع ثم الوداع ! الوداع ! لسوف أحبك ما حييت ! منذ اليوم سوف أهجر الفضيلة) . من أجل هذا أيتها الأمم ، حين تسمعين ريح الشتاء تئن على سطح البحر أو قرب شطآنه ، أو فوق المدن الآهلة التى لبست منذ زمان على الحداد ، أو عبر فلوات القطب ذات الزمهرير ، قولى أيتها الأمم : هذا الذى يمشى ليس روح الله . إنه ليس إلا زفرات الفضيلة الذبيحة اختلطت بزفرات هذا القادم من مونتيفيديو ، (وهى عميقة). فيا أطفالى : أنا القائل لكم . هيا إذن ، اركعوا والرحمة تملأ قلوبكم ، وليبتهل الناس وهم أكثر من القمل إحصاء ، بمديد الصلوات » .

نحن هنا وفى كل مكان فى عالم الشاعر بليك ، فى عالم الفيلسوف نيتشه ، فى عالم النبى زارادشت ، فلنقل إن فراشة النور طائر النار ، هى الروح .. أو الروح القدس ، والشاعر حائر بين فراشة النور والجسد العارى ، الذى يسمونه فى بعض الآداب الدينية بالمرأة القرمزية ، تجسيد الخطيئة . هو حائر بينهما لا يعرف أيهما يقتل . وأخيراً يتناول حجراً ويحاول أن يقتل فراشة النور . ولماذا هذا الاختيار ؟ لأن البغى الأبدية تعترف بذلتها فهى ترقد عند قدميه وتخفى وجهها من العار ، أما الروح ، فراشة النور ، فمتجبرة تريد أن تسحق . وطوبى للضعفاء كما قيل فى القديم ، فلنقل إنها المجدلية ، ومن كان منكم بلا خطيئة فليرجمها بحجر . ولكن حين أراد الشاعر أن يقتل الروح ، الفراشة

المنيرة ، غاصت فى الأرض كالأساس المتين وشمخت وتعالت حتى بلغت مقام الكاتدرائيات الباذخة ، أما الحجر فقد سقط فى المياه التى ابتلعت دوامتها المرأة القرمزية ، وهكذا قتلت الروح الجسد . فوداعاً أيها الجسد الذبيح . صلوا عليه واستمطروا الرحمات .. ولكن السؤال الذى يطرحه اوترى يامون فى هذه المقطوعة : هل الله حقًّا هو الذى أمر بذبح الجسد ؟

« أى أوقيانوس القديم ! أيها الأعزب العظيم ! عندما تجتاز وحدتك الجليلة ، وحدة مملكتك المترفعة ، تزدهى بالحق كبرياء لروعتك الأصيلة ، ولمدائحى التى أنظمها فى بهائك .. ليت أن جلال البشر لم يكن إلا تجسيداً لظل جلالك .. إنى لا أطلب شيئاً عزيزاً ، وهذه الأمنية الصادقة تمجيد لك . فجلالك المعنوى ، وهو صورة الأبدية ، عظيم كتأمل الفيلسوف ، عظيم كغرام المرأة ، عظيم كالبهاء الإلهى فى صورة الطير ، عظيم كخواطر الشعراء ، أنت أجمل من الليل ! أيها المحيط ، أجبنى ، أتريد أن تكون شقيقى ؟ إذن فتحرك فى جموح .. فى جموح أعظم وأعظم او أردت أن أقارنك بالانتقام الإلهى ، امدد مخالبك الزرقاء واحفر بها على صدرك طريقاً . هذا جميل ابسط أمواجك الفظيعة أيها المحيط الفظيع الذى لا يفهمه أحد سواى . هأنذا أتهافت أمامك وأركع على ركبتى .. « أى أوقيانوس القديم ذا الأمواج الباورية .. عيناى ابتلتا بالدمع المدرار ، منهك أنا — ولم أعد أحتمل أن أتعقب خطاك ، فأنا أحس بأن أوان عودتى إلى البشر الأفظاظ قد جاء . ولكن

فلنتجمل بالشجاعة . فلنتحامل على أنفسنا ولنحقق قدرنا على الأرض يلهمنا الإحساس بالواجب ، وسلاما أيها المحيط القديم » .

كانوا فى قمة الحركة الرومانسية يسمون هذا مذهب الحلول ، ورثه الشعراء الأوربيون عن الفيلسوف سبينوزا الهولندى وعن سنانكور فى فرنسا ، أوما يسمى بوحدة الوجود . الله حال فى الكون ، وما فى الجبة غير الله كما كان الحلاج يقول : اقرأ مقطوعة : « سألت العباب » فى صوفيات النفرى ، ونظائرها فى السهروردى المقتول ، وفى ابن عربى . تجد بذور الفكر الرومانسى قد أينعت من قبل فى تراثنا العظيم ، وكان لها شهداؤها . إنه ليس زواج الجنة والجحيم ، كما كان بليك يقول ، لأن الزواج يتضمن الازدواج السابق أو الانشطار السابق ، أما هذا الذى نواجهه فهو معادلة جديدة قديمة فيها الله مساو للكون وروح الله مساوية لروح الكون ، حيث لا جوامد ولا أشياء صماء ، حيث روح الجبل وروح المحيط وروح الغابة وكل هذه الأشياء أجزاء من الروح الأعظم . وفى مثل هذا الوجدان (أو لعله الوجد !) يناجى الإنسان الجبل والمحيط بقوله : يا أشقائى ويناجى الإنسان الغابة بقوله : يا أختاه ! هنا الروحانية والجسدانية شىء واحد . أو كما كان سبينوزا يقول فى كتابه : « الأخلاق » « الله هو مجموع الذكاء الموزع فى أرجاء الكون » أو كما كان يقول : الله بالنسبة للكون هو مجموع زوايا المثلث بالنسبة للمثلث : لا مثلث موجود إلا ولازمه قانون ٢ ق . ولكن سبينوزا كان فيلسوفاً وليس شاعراً فهو يتكلم عن العقل الإلهى المبثوث فى أرجاء الكون ،

أما اوترياهون فهو شاعر ولذا يحدثنا عن الروح الإلهية المبثوثة فى أركان الكون . ترى أى الماردين أعظم ؟ الإنسان أم المحيط ؟

وعلى كل فما هذه إلا شذرات من إيمان اوترياهون ومن تجديفه كلها جاءت من النشيد الأول من « أغانى مالدورور » ، وبقيت خمسة أناشيد . جلست ساعة ونصف ساعة أستمع لمختارات الممثل أندريه كازالاس معلق الأنفاس وكأنه ينشد لى وحدى . وبعد العرض زرته فى الكواليس لأهنئه . وبعد أن أزال أصباغه ومساحيقه خرجنا معاً وعدنا إلى الحى اللاتينى . قلت : « يخيل إلى أنى سبق أن رأيتك على المسرح » فأجاب : « ربما . أنا مثلت من قبل فى (تيمون الأثينى) لشكسبير ، وفى (ميديا) لسنيكا على مسرح الأوديون ، وفى (انتصار العاطفة) لجوته فى أفينيون وفى الأوديون ، وفى (مجمع الحب) لأوسكو بانيتزا فى مسرح باريس ، وفى (لعبة المذبحة) ليونسكو وفى (إسكوريال) لجيلدرود ، وفى (مالك الحزين) لسترندبيرج وغيرها وغيرها . وعرفت أين رأيته من قبل . قالها فى تواضع شديد ، بل فى خجل شديد ، فبدأ كذلك الشاعر الجزويتى جيرارد مانلى هو بكنز الذى كان وجهه يحمر خجلا كلما رأى فى الحديقة الدوخة تحمر فى الربيع ، وكأنه يرى رمز الخطيئة . فلنقل إن الفن - كالحب - خطيئة ، وكلما عظم الفن عظمت الخطيئة .

وأهدانى نسخته من « أغانى مالدورور » . قلت : « وداعا ! ليتنا نلتقى فى القاهرة ، فنحن أيضاً مثلكم ، بيننا نفر يرتكبون معصية الفن العظيم » .

الفصل الرابع عشر

٥ أيام فى روما

فى عودتى من باريس إلى القاهرة نزلت بروما حيث قضيت خمسة أيام ، قضيتها بين الآثار وفى المسارح وفى الأكاديمية المصرية مع صلاح كامل مدير الأكاديمية ومستشارنا الثقافى بروما ومع أسرة أمريكية تحمل لى وداً كبيرا .

وكانت هذه زيارتى الثانية لروما . وفى الأولى زرت الفاتيكان وفى الثانية كانت لى جولة كل صباح بين الخرائب المرمرية المبثوثة فى كل مكان حيث يعيش الأحياء . باحثاً عن الموقع الذى قتل فيه يوليوس قيصر — أشهر اغتيال فى التاريخ — يشيرون إلى الفورم — سوق روما القديمة — حيث تجاورت آثار الإدارات الحكومية والمجالس النيابية والمحاكم ومعابد الآلهة والدكاكين وساحات الاجتماعات الشعبية الشهيرة وأقواس النصر ، هناك تحت الكابيتول حيث السناتو مجلس الشيوخ أو (البرلمان الرومانى) وحيث جرت أقلام المؤرخين وكتاب المسرح أن مارك أنطونيوس هيج رعاع روما وهو يخطب على جثة قيصر ويشعل شرارة الحرب الأهلية . فأذهب إلى الفورم فيقال لى : لا ، ليس هنا . اذهب إلى كامبو دوليو . فأذهب إلى كامبو دوليو فلا أجد لوحة أو أثرا أو شاهدا أو أى شىء يدل على مقتل قيصر . ويؤكد لك الناس أن المكان القديم مطمور تحت البيوت والكنائس القائمة . ثم تفاجأ بمرشد ثالث يقول : بل اذهب إلى

الحفائر فى لارجو أرجنتينا . فهناك كان موقع السناتو القديم الذى قتل على درجه يوليوس قيصر . أما السناتو الذى رأيته فى الفرم فقد بناه يوليوس قيصر ولم يعمر حتى يتم بناؤه وتأملت الأطلال المرمرية طويلا ، ثم انصرفت أسفا لنقص اليقين . قلت : ربما فى زيارة قادمة أكون أكثر توفيقا فى مناجاة أحجار روما القديمة .

وفى الأكاديمية المصرية شاهدت عرضاً للفيلم التسجيلى « ينابيع الشمس » الذى أخرجه المخرج فيني (تصوير حسن التلمسانى) لحساب وزارة الثقافة المصرية ، وعرضاً آخر للفيلم التسجيلى « العجيبة الثامنة » الذى أخرجه حسين بيكار أيضاً لحساب وزارة الثقافة المصرية عن موضوع معبد« أبو سمبل» ، باعتبار أن« أبو سمبل» أضاف إلى عجائب الدنيا السبع عجيبة ثامنة . ومع العرضين فاصل تمثيلى قصير كان عبارة عن مجموعة مونولوجات ألقاها الفنان الإيطالى إيفانو ستاتشيولى إلقاء منفرداً ، مونولوج أن نكون أو لا نكون ، من «هاملت شكسبير» ومونولوج آخر من بيرانديلو . ولو أننى انتظرت يومين آخرين لشاهدت عرضاً لفيلم « المومياء » الذى أخرجه شادى عبد السلام لحساب وزارة الثقافة المصرية . كذلك كان هناك معرض لاثنين من الفنانين المصريين . وقد كان كل ما رأيت شرفاً لمصر فى بلاد الفرنجة . الأكاديمية ومن فيها وما فيها .

وتصورت كيف أن هذه الأكاديمية يمكن أن تتحول إلى واجهة مشرفة ومركز ثقافى لفنون مصر وآدابها فى العاصمة الإيطالية ، او أن

صلاح كامل قدم كل مساء نشاطاً ثقافياً مصرياً من نفس المستوى فى باب المسرح أو السينما أو الموسيقى والغناء أو المحاضرات العامة أو فيما يدخل فى باب التبادل الثقافى . أما فى النهار فقاعات العرض تتسع للوحات أربع فنانين تشكيليين فى وقت واحد يمكن تغييرهم على مدار السنة مرة كل شهر . ولكنى وجدته حزيناً يفيض بالإحساس بالإحباط لأن يده مغاولة عن كل شىء . وبدت لى الأكاديمية كعلبة مجوهرات عظيمة من أرقى طراز وقد صففت فى واجهته العلب الأنيقة على خلفيات من أثواب القطيفة الفاخرة ، ولكن العلب للأسف خالية من المجوهرات . وجدت مدير الأكاديمية حزينا لأن همومه كانت من نوع آخر غير ثقافى . فقد عرفت منه أنه اضطر لعقد السلف شهرياً ولمدة أربعة أشهر من بنك إيطالى لدفع مرتبات الموظفين المحليين الذين لم ترد اعتماداتهم فى « الباب الأول » من الميزانية بلغة المستخدمين والحسابات فى الحكومة المصرية السعيدة . فمنذ انتقلت الولاية على الأكاديمية من وزارة التعليم العالى إلى وزارة الثقافة خفضت ميزانية الأكاديمية السنوية خارج الباب الأول دون سبب معروف من نحو عشرة آلاف جنيه إلى نحو خمسة آلاف جنيه ، وهى ميزانية المشروعات والمطبوعات وأجور الخدم ومصاريف الإنارة والمياه والتليفون إلخ . ولولا ما يتمتع به صلاح كامل فى روما من هيبة شخصية ومن صلات ممتازة لقطعت الكهرباء والمياه والتليفون عن الأكاديمية ولانصرف البواب وخدم النظافة والطبيخ والغسيل الذين يخدمون أبناءنا الفنانين العشرة المقيمين فى الأكاديمية لعدم صرف أجورهم ولأغلقت

الأكاديمية أبوابها وجلس موظفوها المعينون على الباب الأول فى القهوة انتظاراً لأول السنة المالية القادمة . وقد استصرخ صلاح كامل واستنفر المسئولين بالرسائل وبالبرقيات وبالمكالمات التليفونية ، ولكن دون جدوى وكان آخر استصراخ أعرفه رسالة حملنى إياها إلى الدكتور عبد القادر حاتم نائب رئيس الوزراء للثقافة والإعلام ، وقد حملت إليه الرسالة عند عودتى إلى مصر فأمر بحل جميع مشاكل الأكاديمية . فأرجو أن يكون الناس اللى فوق والناس اللى تحت ممن يمسكون كيس الدولة قد صدعوا بأوامره أو وجدوا طريقاً لحل مشاكل الأكاديمية .

ووجدت مدير الأكاديمية قد حدد لمهرجان افتتاحها شهر أبريل أو مايو ١٩٧٢ ، فنصحته بأن يؤجل الافتتاح إلى أكتوبر أو نوفمبر حتى يرتب أموره ، .. واقترحت عليه وعلى وزارة الثقافة أن يستغرق مهرجان الافتتاح أسبوعاً كاملا بحيث تعرض فى النهار صفوة لوحات فنانينا التشكيليين وتماثيلهم ، ويخصص المساء الأول لتقديم مسرحية لسنيكا أو لجولدونى أو لبيرانديللو على مسرح الأكاديمية تحية من مصر للفن الإيطالى ، والمساء الثانى لتقديم عمل من أعمال توفيق الحكيم بالإيطالية ، تحية من إيطاليا للفن المصرى ، والمساء الثالث لتقديم نماذج مصرية من أوبرا « عايدة » لفيردى وغيرها وريستيال على البيانو لرمزى يسى وعلى الفيولونسيل لناجى الحبشى وغيرهما . والمساء الرابع لتقديم الفيلم المصرى . والمساء الخامس لندوة ثقافية عن العلاقات الحضارية بين مصر وإيطاليا . والمساء السادس لندوة عن العلاقات

السياسية والاقتصادية بين مصر وإيطاليا . ولما عرفت من مدير الأكاديمية أن من الممكن دعوة رئيس الجمهورية الإيطالية فى حفل الافتتاح اقترحت أن يرأس وفد مصر الرسمى الدكتور محمود فوزى الذى يعرف الإيطالية فيما سمعت ، وأن يرأس وفدها الثقافى توفيق الحكيم . وحين عرضت مقترحاتى على الدكتور حاتم أبدى اهتماماً شديداً بها ، ولم يبق إلا أن نأمل أن تترجم هذه الأفكار إلى واقع . أليست هذه طريقة لتغيير صورة مصر فى الخارج ؟

وبرغم الآثار وبرغم الأكاديمية وجدت الوقت لمشاهدة مسرحيتين بالإيطالية ، وأجريت لقاءين مع المخرجين دى سيكا ومونتالدو . وسعيت للقاء أنطونيونى وفلليني وفيسكونتى وباسوليني وروسلليني لأنقل لقراء « الأهرام » صورة عن مدارس الفن السينمائى ، ولكنى وجدتهم إما خارج إيطاليا وإما خارج روما . وكانت تجربتى مع دى سيكا غريبة فقد التقيت به فى الاستوديو فى أثناء التصوير بين لقطتين ، وعبرت معه البلاتو تحت الكاميرات والبروجيكتورات التى تعشى البصر وهرج الاستوديو إلى غرفته الهادئة ، فوجدته يسير فى اختيال كأحد القياصرة وقد تجمهرت من حوله نسوة جميلات فى حالة من الهستيريا ، هذه تقبله على خده وهذه تتعلق برقبته والثالثة تقول « مبروك » والرابعة تقول « رائع » .. ثم رأيت سيدة بارعة الجمال ملامحها أنجلو سكسونية تجر طفلة فى نحو الخامسة تقطع الطريق على دى سيكا وتقول إنها من أستراليا وإن ابنتها موهوبة وإنها مستعدة للامتحان فى التمثيل . وقد حدد لها دى سيكا

صباح اليوم التالى للنظر فى هذه الموهبة الجديدة .

وكان دى سيكا مرهقاً فى أثناء لقائى معه فلم أجالسه إلا نصف ساعة وعرفت منه أنه عديم الخبرة الشخصية بالفيلم المصرى ، ولكنه سمع ببعض ما يجرى عندنا من زميله روسيلينى . وحين ناقشته فى تجارب زملائه الجدد أنطونيونى وفلينى والباقين من أتباع ما يسمى بالموجة الجديدة كان شديد الأدب شديد الإطراء على الطريقة الإيطالية ففهمت أنه لا يقر منهجهم فى الإخراج . فهذا ممتاز فى كذا وذاك ممتاز فى كذا .. أما الجوهر فقد كان يتجنب الإشارة إليه فى حرص شديد . قلت : باختصار أنت لاتزال مطمئناً إلى مدرستك الواقعية ؟ فضحك لأنه أدرك أنى أدركت ، وأخذ يدافع عن المدرسة الواقعية دفاعاً حاراً . وكنت دائماً أشكو من البطء وتفتيت الزمن فى أفلام الموجة الجديدة دون تعويض تشكيلى فشكا دى سيكا مما يسميه « الغموض » فى عمل زملائه ، وهو ما يسميه زملاؤه المبرر النفسى .

أما مونتالدو صاحب الفيلم العظيم « ساكو وفنزيتى » ، فقد بهرنى ببساطته وثقافته وبإيمانه بأن فى الحياة قضايا تستحق أن يدافع عنها الفنان من خلال الفن . وقد عرفت منه أنه يعد فيلماً عن حياة « جيوردانو برونو » ، الفيلسوف والعالم الإيطالى (١٥٤٨ — ١٦٠٠) الذى أحرقته محاكم التفتيش لقوله بأن الأرض ليست فى مركز الكون ولكنها فى ركن مهمل من الفضاء تأسيساً على نظرية كوبرنيك فى الفلك ، ولأنه قال بضرورة الانسجام بين الروح والجسد وهاجم نظرية سحق الروح للجسد

التى تنادى بها بعض التفسيرات الدينية المحافظة ، كما قال بلا نهائية الكون وهو ما يشكك فى أنه مخاوق ، وقد عاش حياته مطارداً بين جامعات إيطاليا وسويسرا وفرنسا وإنجلترا وألمانيا حتى استدرج أخيراً إلى روما ، وهناك حوكم بتهمة الزندقة وأحرق على الخازوق فى كامبودى فيورى (ميدان الأزهار) بعد سبع سنوات من السجن .

أما فيلم « ساكو وفنزيتى » فموضوعه القضية الفظيعة التى هزت ضمير العالم فى العشرينات من هذا القرن كما هزت قضية دريفوس ضمير العالم فى القرن التاسع عشر . ففى ١٩٢٠ ارتكبت فى بلدة صغيرة بالقرب من مدينة بوسطون فى أمريكا جريمة سرقة بالإكراه قتل فيها رجلان . وبعدها بأسابيع قبض البوليس على رجلين أحدهما اسمه ساكو وهو صانع أحذية والآخر اسمه فنزيتى وهو بائع سمك ، وكلاهما من المهاجرين الإيطاليين ، وكان الاشتباه مؤسساً على أن سيارتهما تطابق أوصاف السيارة التى ارتكبت بها الجريمة وقد وجدوا معهما مسدساً من نفس العيار . وبرغم اضطراب شهادة شهود الإثبات وعدم كفاية أدلة الطب الشرعى تمت المحاكمة فى جو من التوتر والإرهاب زادهما أن محامى المتهمين كان معروفاً بميوله الاشتراكية ، وربما كانت على ساكو وفنزيتى أيضاً شبهة يسار ، وأن سكان ولاية ماساشوستس بصفة خاصة عرفوا بعدائهم المتعصب ضد « الأجانب » ، وكان القاضى ، واسمه ثاير ، من غلاة المحافظين . ولهذا كانت محاكمة ساكو وفنزيتى محاكمة سياسية قبل أن تكون أى شىء آخر . وانتهت بإدانتهما والحكم عليهما بالإعدام . وقد جرت محاولة

لإعادة النظر فى القضية استغرقت سنوات ، وثار الرأى العام فى كل مكان فى أمريكا وخارج أمريكا ضد هذا الحكم بإعدام الأبرياء وعمت المظاهرات فى كل عواصم العالم تندد بالعدالة الأمريكية العرجاء وبالتعصب العنصرى والعقائدى ولكن بدون جدوى . بل إن أحد الشركاء فى الجريمة عذبه وخز الضمير فسلم نفسه للبوليس معلناً أنه كان أحد من شاركوا فى عملية السطو ، ومع ذلك لم يعتد باعترافه لأنه رفض أن يبوح باسم شركائه الحقيقيين . وقد قدم ساكو وفنزيتى التماساً إلى محافظ ولاية ماساشوستس واسمه فولر بتخفيف حكم الإعدام إلى السجن المؤبد . وزارهما المحافظ فى السجن وخرج من لقائه معهما فى اضطراب شديد لأنه أحس باحتمال براءتهما ، ولكنه برغم ذلك لم يخفف الحكم خوفاً على مستقبله السياسى . وفى ٢٣ أغسطس ١٩٢٧ عند منتصف الليل تم إعدام ساكو وفنزيتى ، على الكرسى الكهربائى . ويروى أنهما قابلا المنية إلى آخر لحظة بكرامة الرجال . قال فرانكلين روزفلت معقباً : « إن هذه أكبر جريمة وحشية ارتكبتها العدالة الإنسانية فى القرن الذى نعيش فيه » وكتب الروائى الكبير جون دوس باسوس « نعم ، لقد انتصرتم ، ولكنكم شطرتم أمريكا إلى معسكرين » .

وكانت حكاية ساكو وفنزيتى محفورة فى ذاكرتى منذ أن كنت فى الثانية عشرة من عمرى . ومازلت أذكر والدى جالساً ونحن بعد فى مدينة المنيا يقرأ فى الجرائد المصرية وصف تنفيذ حكم الإعدام فى ساكو وفنزيتى الذى طيرته وكالات الأنباء ودموعه تنهمر على خديه . ولم نكن

نفهم سر انفعاله الشديد ونحن صبية ، فكان يشرح لنا كل ما قد جرى. ولعل هذه كانت أول صورة رسخت فى ذهنى عن « أمريكا » .

وفى لقائى مع مونتالدو لم يكن لنا حديث إلا عن الالتزام فى الفن وكيف يمكن للفن أن يلتزم بقضايا الإنسان بدون أن يتنازل عن مقاييس الفن أو يجعل من فنه دعوة مباشرة صلعاء لأية عقيدة من العقائد السياسية أو الاجتماعية . وكان واضحاً أن مونتالدو اشتراكى النزعة ومشرب بروح الهومانزم فى وقت واحد . وكان يتمنى أن يزور مصر . قلت : ولماذا لاتجرب الإنتاج المشترك مع وزارة الثقافة المصرية ؟ هناك أرض مشتركة عريضة بيننا وبينك ، فأنت معاد للاستعمار ونحن معادون للاستعمار . قال : أى موضوع تقترح ؟ قلت : خذ مثلا ملحمة قنال السويس منذ حفرها حتى تأميمها ، فقد كانت نقطة احتكاك مباشر بين مصر والاستعمار . قال : هذا موضوع ممتاز للسينما ، وذهب يتحدث عما لقيه المصريون على يد أجانب مصر من الاستغلال الشنيع ، يتحدث وكأنه مصرى يعرف كل شئ ويحس بكل شيء مما كان . وتحدث عن ثورة ١٩٥٢ حديث المتفهم لأسبابها ونتائجها . قال فى عمق : لقد بالغتم فى عدائكم لنا لأننا بالغنا فى إذلالنا إياكم . كل هذا كان منطقيًّا . قلت : « فى هذه الحالة تستطيع أن تتناول قصة قناة السويس من خلال أسرة أجنبية عاشت فى مصر ثلاثة أجيال : جيل عاصر إسماعيل وجيل عاصر ثورة ١٩١٩ وجيل عاصر عبد الناصر » . قال : « غريب . إن هذا بالنص ما نصحنى به باباو نيرودا عندما كنا نبحث موضوع فيلم عن

تاريخ شيلى وقناة بنما مع الاستعمار الأجنبى .

وكنت أسمع عن مسرح إدواردو دى فيليبو فقررت أن أشاهد عرضاً من عروضه برغم أن معرفتى بالإيطالية طشاش بعد مضى ثلاثين سنة على تعلمى إياها من دون استخدامها بأى معنى حقيقى . (ونفس الأمر بالنسبة للألمانية) . وكان الغرض الأول من هذه التجربة امتحان ذاكرتى لأعرف إن كان فى استطاعتى متابعة نص مسرحى يلقى أمامى بسرعة الكلام فى الحياة ، وإلى أى مدى تكون المتابعة . أما الغرض الثانى فكان امتحان المسرح نفسه : إلى أى مدى يستطيع الأداء التمثيلى والحركة المسرحية والإخراج .. إلخ أن يحمل معنى النص إلى المشاهد الذى لا يعرف لغته . وقد كانت تجربة فريدة لأن ذاكرتى نجحت بنسبة ٢٥ فى المائة أما المسرح فنجح بنسبة ٥٠ فى المائة ومعنى هذا أنى لو تابعت اللغة بنسبة نصفها لأمكننى متابعة النص كله بنسبة ١٠٠ فى المائة اعتماداً على دلالات التمثيل والحركة والإخراج .

وسمعتهم يقولون فى روما لا تقل إدوارد ودى فيليبو . قل إدواردو فقط فليس فى إيطاليا غير إدواردو واحد . هكذا كان إدواردو عظيماً فى نظر الناس ، عظيماً فى نظر النقاد ، وهو الآن واستمرارات مضت سيد المسرح الإيطالى بغير منازع منذ بيرانديللو . وهو مؤلف وممثل معاً ، وقد أتهم فى مرحلة من مراحل إنتاجه بالنسج على نول بيرانديللو ولكنه فى الحقيقة مؤلف تقليدى ينتمى إلى مدرسة الكوميديا ديللارتى .

ومن أشهر مسرحياته « السحر الكبير » و« الرعب رقم واحد » و « هذه

الأشباح » و « الأصوات الداخلية »و « «نابولى صاحبة الملايين » و «عيد الميلاد مع آل كوبييللو » ،و« فيلومينا مارتورانو » . (وهى أساس« الزواج على الطريقة الإيطالية ») ، و « الكذب ذو الأرجل الطويلة » (وهى المسرحية التى شاهدتها) .

انظر إلى مسرحيته «السحر الكبير » موضوعها حاجة الإنسان إلى الوهم : كاليجيرو دى سباتا رجل شديد الغيرة على زوجته مارتا ، فهو لا يتركها تغيب عن بصره لحظة واحدة . لهذا فإن ماريانو ، عشيق زوجته يلجأ إلى الحيلة لينفرد بمارتا . فهو يتفق مع الساحر أوتو أن يجعل مارتا تختفى من بيت الزوجية بالسحر أو بالجلا جلا ، ويقودها إلى ماريانو على أن تعود إلى زوجها بعد ربع ساعة ولكنها بدلا من أن تعود إلى زوجها بعد ربع ساعة نجدها ترحل مع ماريانو إلى فنيسيا حيث يقيمان معاً أربع سنوات .ويخرج الساحر مع الزوج كاليجيرو لاختفاء الزوجة ،ويؤكد له أن فى استطاعته أن يستردها او تخلى عن غيرته العمياء ووثق منها ثقة مطلقة.عندئذ سوف يرى زوجته تخرج أمامه من صندوق صغير . وتكون مشكلة الساحر الحقيقية هى إقناع الزوج بأن الوقت ثابت لا يمر ، وأن السنوات الأربع لم تنقض على اختفاء زوجته . وينجح الساحر فى إقناع كاليجيرو بأن الزمن توقف عن الحركة ، ويكاد ينجح أيضاً فى إقناعه بأن مارتا لا تخونه . وفى اقتناع كاليجيرو بتوقف الزمن يحاول أن يتوقف أيضاً عن الأكل والشرب فيرثى الساحر أوتو لحاله ويقرر أن يعترف له بالحقيقة ، ويأمره أن يفتح الصندوق إذا كان قد تخلص تماماً من شكوكه .

وهنا تحدث المعجزة : تعود مارتا وتظهر أمامه فى الوقت الذى يتأهب فيه كاليجيرو لفتح الصندوق ، ولكن كاليجيرو يعدل عن فتح الصندوق لأنه يعلم أنه لم يتخلص من شكوكه تماماً . ولهذا يرفض قبول زوجته مارتا لأنها ظهرت أمامه قبل أن يفتح الصندوق ، بمعنى أنها ظهرت أمامه قبل أن يتخلص من شكوكه نهائياً . إنه يؤثر أن يحتفظ بالصندوق وهو مغلق .

وقد لاحظ الناقد الكبير أريك بنتلى فى كتابه عن « المسرح الإيطالى » ، أن ما يقال عن تأثر إدوارد وبيرانديلو فى تصوير تداخل الوهم بالحقيقة قول غير صحيح . وعنده أن موضوع « السحر الكبير » ليس طبيعة الحقيقة ، على غرار ما نجد فى بيرانديلو ، ولكن مجرد ثقة الأزواج فى زوجاتهم .

أما « الرعب رقم واحد » الذى يعيش فيه الناس فهو الحرب العالمية الثالثة . وهذه حالة أسرة من أب هو ماتيو وابنته ، والأب يعيش فى رعب من نشوب الحرب العالمية الثالثة إلى حد أنه لا يفتأ يؤجل كل عمل وكل مشروع وكل قرار فى حياته ، بما فى ذلك زواج ابنته . وحين تيأس البنت وخطيبها من الأب وأحواله يتفقان على افتعال إذاعة كاذبة تعلن فى الراديو أن الحرب العالمية الثالثة قد نشبت فعلا . وهنا نجد أم العريس تتدخل لتؤجل الزواج . لقد فقدت فى الحرب العالمية الثانية زوجها وابنها الآخر وهى لا تريد أن تفقد ابنها الأخير فى الحرب العالمية الثالثة ، ولذا فهى تحبس ابنها فى غرفة صغيرة تطعمه فيها ما لذ وطاب

ولكنها طبعاً تحول دون خروجه لإتمام الزواج خشية أن ينتهى خروجه أيضاً بدخوله الجيش . ولكن هذه الكوميديا تنتهى نهاية سعيدة بظهور الحقيقة وهى أن الحرب العالمية الثالثة لم تنشب ويتم زفاف الخطيبين بعد ثلاثة فصول من الأوهام التى يعيش فيها الأب والأم . فكل منهما يعانى من عاهة نفسية أو من جرح عميق يجعله يختبئ فى الأوهام ويتمسك بأسخف الآراء.

وفى « الأصوات الداخلية » هناك رجل يستمع دائماً إلى إلهامه الباطنى فقلبه دليله ، وكل شيء يدرك عنده بالحدس. هذا الرجل يتهم أسرة من الأسر بأنها اشتركت فى قتل أحد أصدقائه . ولكنه يكتشف فيما بعد أن هذا كان حلماً أو وهماً ، لأن صديقه مازال على قيد الحياة . أما الأسرة فلا تنفى التهمة لأن كل فرد فيها يعتقد أن أى فرد آخر فى الأسرة كان يمكن أن يقتل ذلك الرجل .

وأوسع مسرحيات إدواردو شعبية هى مسرحية « فيلومينا مارتورانو » (١٩٤٦) وهى تدور حول موضوع رجل يهدى بغيًّا إلى طريق الفضيلة . والبغى فيلومينا جاءت من حثالة نابولى ، وقد أنقذها من الفقر المدقع سرىٌّ من سراة نابولى يدعى دومينيكو سوريانو ، فقد عاشت معه سنوات عديدة . وعندما تجاوز دومينيكو الخمسين رأى أن يؤسس أسرة حقيقة ، وأن يتزوج بنتاً جميلة ، محترمة تصغره سنًّا . وحين عرفت فيلومينا ذلك ادعت المرض وتماوتت وطلبت أن تزف إلى صاحبها دومينيكو وهى على فراش الموت ، فلم ير دومينيكو بأساً من ذلك . ولكن ما إن تمت مراسم الزفاف حتى نهضت فيلومينا من فراشها وهى فى سعادة

غامرة ، وهنا أدرك دومينيكو أنه خدع . ولكننا نعلم أن فيلومينا لم ترتكب هذه الخديعة بدافع أنانى وإنما لتعطى وضعاً شرعيًّا لأولادها الثلاثة الشبان . ويبدأ دومينيكو الغاضب باتخاذ الإجراءات القانونية لإبطال هذا الزواج الذى تم بالتحايل ، ولكن فيلومينا تخبره أن أحد هؤلاء الأبناء الثلاثة ابن منه ، دون أن تحدد أيهم ، لأنها ترفض التمييز فى المعاملة بين أولادها . وهنا يقتنع دومينيكو بأن زواجه من فيلومينا هو الأمر الطبيعى ، وينبذ فكرة البحث عن زوجة جديدة . ويكون قد نجح فى إبطال الزواج بالتدليس ، ولكنه يعقد قرانه على فيلومينا من جديد بإرادته ويتبنى أولادها الثلاثة .

هذه نبذة عن إدواردو دى فيليبو الممثل الكاتب صاحب فرقة إدواردو الشهيرة ، وهو الآن فى الثانية والسبعين من عمره ، فقد ولد عام ١٩٠٠ ومع ذلك تراه على المسرح وتلقاه فى الحياة فتجده فى حيوية ابن الثلاثين .

رأيت إدواردو على المسرح ، فرأيت معجزة . وأنا لا أعرف من اللغة الإيطالية ما يمكننى من الحكم على قيمة أعماله من الناحية الأدبية ، ولكن إذا أردت أن تعرف ماذا يفعل إدواردو على المسرح ، فتذكر الريحانى بوجهه الخشن الملامح وجسمه الخشن البنيان ، لا تعرف أتسخر منه أم ترثى له ، لأنه حتى فى وسط التهريج يهز وتراً فى قلب الإنسان لأنه يمثل الإنسان الطيب المسحوق . ولكن إدواردو هو الريحانى مضروباً فى ثلاثة ، الريحانى بغير جمهور ، الريحانى الغليظ الذى يفرض غلظته على النص والأداء . وأنا شخصيًّا لا أميل كثيراً لهذا النوع من الفن

المسرحى ، من كوميديا المواقف ، بل لا أميل إلى الكوميديا ديللارتى التى يقال بمبالغة شديدة إنها تؤلف فى أثناء التمثيل ، أى أن الممثل فيها مؤلف يكسو هيكلها العظمى بنسيج الحوار تبعاً للموقف ، لأنى أفضل المسرح الأدبى دائم القيمة على المسرح الفنى ، حيث المؤلف الممثل بمثابة أسطى أو صنايعى ماهر فى فن المسرح ، ولاسيما فى الحركة والحوار اللاذع . وحين جلست نحو ساعة مع إدواردو العظيم أناقشه فى أصول فنه ، وجدته دائم الرجوع إلى اسم موليير ، كأنما موليير كان قبسه وهداه . وحرت ماذا أقول له : أى موليير يقصد ؟ موليير « سكابان » أم موليير « البخيل » و« النساء العالمات » و« البورجوازى النبيل » ؟



سلسلة (اقرأ)

الكتب التى نشرت فيها منذ صدورها فى يناير ١٩٤٣ حتى الآن

القصة

١ أحلام شهر زاد (د. طه حسين)
٦ شاعر ملك (على الجارم)
١٢ سنوحى (د. محمد عوض محمد)
١٤ من يوميات فتاة عصرية (حسين شوقى)
١٨ قنديل أم هاشم (يحيى حقى)
١٩ سيدة القصور (على الجارم)
٢٢ جحا فى جانبولاد (محمد فريد أبو حديد)
٣٠ قطر الندى (محمد سعيد العريان)
٣٢ الشيخ قرير العين (كرم ملحم كرم)
٣٤ فارس بنى حمدان : أبو فراس الحمدانى (على الجارم)
٤٣ عنترة بن شداد (محمد فريد أبو حديد)
٥١ الشاعر الطموح : المتنبى (على الجارم)
٥٨ خاتمة المطاف (على الجارم)
٦٠ شجرة الدر (محمد سعيد العريان)
٦٢ مرح الوليد (على الجارم)
٦٣ رفيق الأرض (نظمى لوقا)
٦٧ أمير قصر الذهب (طاهر الطناحى)
٨٧ غادة رشيد (على الجارم)
٩٢ الجامحة (أمينة السعيد)
١٠٥ الحب الضائع (د. طه حسين)
١٠٦ سجل التوبة (أمين الريحانى)
١٠٨ سارة (عباس محمود العقاد)
١١٦ اللحن الشرود (كرم ملحم كرم)
١٢١ عذراء الأندلس (أحمد الصاوى محمد)
١٢٢ أشطر من إبليس (محمود تيمور)
١٢٩ زامر الحى (محمود تيمور)
١٣٠ فى بطون الليالى (رشاد دارغوث)
١٣٥ ليلى العفيفة (عادل الغضبان)
١٣٦ أبو على الفنان (محمود تيمور)

١٤١ بنت قسطنطين (سعيد العريان) ٢٨١ خالدون في الوطن (إبراهيم المصري)
١٤٥ عيون مصوبة (محمود كامل) ٢٨٣ دماء في الفجر (فاروق حلمي)
١٥٢ قلوب معذبة (قدري قلعجي) ٢٨٤ عروسة على الرف (صوفي عبدالله)
١٥٣ دماء وطين (يحيى حقي) ٢٨٧ قصص من جوته
١٥٥ بنت يزيد (سامي الكيالي) (عبد الغفار مكاوي)
١٥٩ أجواء (حسن محمود) ٢٨٨ قصص الحب العربية
١٦٥ مصرع طاغية (حسن رشاد) (عبد الحميد إبراهيم محمد)
١٦٧ أنات الساقية ٢٨٩ البارونة أم أحمد (محمود تيمور)
(عبد الله القرشي) ٢٩٢ شيء من الخوف (ثروت أباظة)
١٧٦ عودة المفقود (حسن رشاد) ٢٩٧ ابن السلطان (عبد الغفار مكاوي)
١٨٣ الثريا (كمال بسيوني) ٣٠٢ نشيد الكروان (طاهر الطناحي)
١٨٦ عاشقة نفسها (حسن رشاد) ٣١٣ عفراء : قصة الحب الخالد
١٩٥ محكمة الضمير (حسن رشاد) (فايد العمروسي)
١٩٩ عرس ومأتم (البدوي الملثم) ٣١٥ أعترف إليك (أحمد فؤاد تيمور)
٢٠٠ مواطن أمام القضاء ٣٣٩ موسى تؤلف كتاباً وقصص
(فاضل السباعي) أخرى (فتحي رضوان)
٢٠٩ حال الدنيا (حسن رشاد) ٣٤٣ إني صاعدة (حلمي سلام)
٢١٩ ثمن الكرامة (سلامة خاطر) ٣٤٤ الوادي السعيد (لويس عوض)
٢٣٤ حبة البرتقال (أحمد العناني) ٣٤٧ بنك القلق (توفيق الحكيم)
٢٣٨ قلب عذراء (إبراهيم المصري) ٣٥٠ دموع في عيون ضاحكة
٢٤٠ نفوس تتكلم (وداد سكاكيني) (يوسف جوهر)
٢٧٣ مذكرات طبيبة (نوال السعداوي) ٣٥١ من أخطاء القضاة
٢٧٦ صنيعة الشيطان (حسن رشاد) (حسن صالح الجداوي)
٢٧٨ يوسف الصديق (محمد طلبه رزق) ٣٥٢ عندما تحب المرأه (حلمي مراد)

الأدب

٢ شاعر الغزل : عمر بن أبي ربيعة (عباس محمود العقاد)
٤ عود على بدء (إبراهيم عبد القادر المازني)
٨ مذكرات دجاجة (د. إسحق موسى الحسيني)
١٣ جميل بثينة (عباس محمود العقاد)
٢١ أبو نواس (عبد الحليم عباس)
٢٣ صوت أبي العلاء (د. طه حسين)
٢٦ العشاق الثلاثة : كثير وجميل وابن الأحنف (د. زكي مبارك)
٣٣ في بيتي (عباس محمود العقاد)
٤٧ أبو زيد الهلالي (محمد فهمي عبد اللطيف)
٤٩ بين البحر والصحراء (شفيق جبري)
٥٩ الجواري (د. جورج عبد النور)
٧٤ قصر الرشيد (د. طه الحاجري)
٧٦ ثم غربت الشمس (د. سهير القلماوي)
٨٣ من النافذة (إبراهيم عبد القادر المازني)
٩٦ شيخ التكية (محمد عبده عزام)
١٠٢ من نافذة العقل (د. نقولا فياض)
١٠٩ نديم الخلفاء : الحسين بن الضحاك (عبد الستار أحمد فرج)
١١٨ المعذبون في الأرض (د. طه حسين)
١٢٠ شاعر الشعب : حافظ إبراهيم (د. محمد سامي الدهان)
١٢٦ من ذكريات الفن والقضاء (توفيق الحكيم)
١٢٨ الجدة الصغيرة (حسن محمود)
١٣١ أمين الريحاني (فاروق عبود)
١٤٧ مارس يحرق معداته (عيسى الناعوري)
١٥٧ غرام الأدباء : طه والحكيم والعقاد وتيمور والزيات وأبو حديد والعريان والشناوي (عباس خضر)
١٨٢ لمحات من الأدب الروسي (ماهر نسيم)
١٩٣ دون جوان (لطفي عبد البديع)

٢٠٣ القومية العربية في الأدب الحديث (د. محمد زغلول سلام)
٢٢٠ الحب المثالي عند العرب (د. يوسف خليف)
٢٢٦ النفس الإنسانية في أدب الجاحظ (سامي الكيالي)
٢٣٣ المرأة في شعر البحتري (د. نعمات أحمد فؤاد)
٢٤٤ التماثيل المكسورة (رجاء النقاش)
٢٤٨ من الأدب الإفريقي
٢٥٩ مع العقاد (د. شوقي ضيف)
٢٦٠ دعاء (علي أمين)
٢٦٧ آخر كلمات العقاد (عباس العقاد)
٢٩٨ ٤ كتب و ٤ كتاب (محمد بدر الدين خليل)
٣٣١ البطولة في الشعر العربي (د. شوقي ضيف)
٣٣٢ يوم بيوم (أنيس منصور)
٣٣٧ في اللغة والأدب (د. إبراهيم بيومي مدكور)
٣٤٢ صراع الأجيال في أدبنا المعاصر (غالي شكري)
٣٤٦ ذكريات عارية (د. السيد أبو النجا)

السير والتراجم

٥ ديستويفسكي (حسن محمود)
٧ الشاعر الرجيم بودلير (عبد الرحمن صدقي)
١٥ بايرون (أمينة السعيد)
١٧ شكسبير (م. ف. أبو حديد، ز. ن. محمود، أ. خاكي)
٢٤ لافوازييه (عبد الحميد يونس وعبد العزيز أمين)
٢٨ بوشكين (نجاتي صدقي)
٣١ الغزالي (طه عبد الباقي سرور)
٣٥ جوته (صديق شيبوب)
٤٢ قصة عبقري: الخليل بن أحمد (يوسف العش)
٤٦ الشيخ الرئيس ابن سينا (عباس محمود العقاد)
٥٠ تشيخوف (نجاتي صدقي)
٥٤ تولستوي (حسن محمود)

٦٥ عمر بن عبد العزيز (أحمد زكي صفوت)

٦٨ جمال الدين الأفغاني (عبد القادر المغربي)

٧٠ الجبرتي (خليل شيبوب)

٧٢ فولتير (سليم سعده)

٧٧ المغني المجنون : كاروزو (أحمد الصاوي محمد)

٧٨ سقراط (على حافظ بهنسي)

٧٩ بيرانديللو (محمد أمين حسونة)

٨٢ فرانزليست (خليل هنداوي)

٨٥ بيتهوفن (محمد فهمي أبو النصر وهدى حبيشة)

٨٩ برناردشو (عباس محمود العقاد)

٩١ جابر بن حيان وخلفاؤه (محمد محمد فياض)

٩٩ نساء محاربات (صوفي عبد الله)

١١٢ مع طه حسين (سامي الكيالي)

١١٣ عبقرية الإمام (عباس محمود العقاد)

١١٥ الإمام المراغي (أنور الجندي)

١١٩ نساء شهيرات (مبارك إبراهيم)

١٢٥ الصديقة بنت الصديق (عباس محمود العقاد)

١٢٧ شلي (أحمد الصاوي محمد)

١٣٩ تيمورلنك (محمد محمد فياض)

١٤٠ عائشة بنت طلحة (كمال بسيوني)

١٤٢ بطل السند ومحمد بن القاسم (محمد عبد الغني حسن)

١٤٣ ابن عمار (ثروت أباظة)

١٥١ العاشقة المتصوفة : رابعة العدوية (وداد السكاكيني)

١٦٢ مكسيم غوركي (نجاتي صدقي)

١٦٤ دانتي (مصطفى آل عيال)

١٧٢ المخترعون (أحمد طه السنوسي)

١٨٧ طاغور (د. جميل جبر)

١٩٢ أدباء من الجزائر (د. إبراهيم الكيلاني)

١٩٧ جان جاك روسو (د. محمد سامي الدهان)

٢٠٤ فيكتور هوجو (د. جورج زايد)

٢٠٧ الناصر صلاح االدين (د. محمد سامي الدهان)

٢٢٣ الشاعر الشهيد هاشم الرفاعي (محمد كامل حته)

٢٣٢ أبو القاسم الشابي (رجاء النقاش)

سياسة وعلوم سياسية

٣١١ حرب الأفيون (د . محمد مظهر سعيد)
(محمد العزب موسى) ٣١٩ فى مواجهة إسرائيل
٣١٦ سجين ثورة ١٩١٩ (إسماعيل صبرى عبد الله)

علم النفس

١٠ شفاء النفس (د. يوسف مراد) ٢٠٢ الإرهاق العصبى (نظمى خليل)
٨٠ الحب والكراهية ٢١٧ لكى تكون سعيداً
(د . أحمد فؤاد الأهوانى) (عبد العزيز جادو)
٩٨ الخوف (د. أحمد فؤاد الأهوانى) ٢٢٩ الطريق إلى النجاح
١٣٣ النسيان (د. أحمد فؤاد الأهوانى) (عبد العزيز جادو)
١٣٧ سيكولوجية الجنس ٢٣٦ عالج نفسك (د. كمال دسوقى)
(د . يوسف مراد) ٢٥٧ أمراض نفسية (د. كمال دسوقى)
١٥٦ النوم والأرق ٢٦٦ النقائص والنجاح
(د . أحمد فؤاد الأهوانى) (ضياء الدين أبو الحب)
١٥٨ الغيرة (إبراهيم المصرى) ٢٩٠ شخصيتك فى الميزان
١٦٦ الأحلام والرؤى (د. عبد الكريم دهينة)
(عبد العزيز جادو) ٣٠٧ قالت له
١٧٠ القلق (د . أبو مدين الشافعى) (محمد زكى عبد القادر)

علوم

١١ الكون العجيب ٣٦ مع الحيات
(قدرى حافظ طوقان) (د. حسين فرج زين الدين)
٢٩ النار والنور (أمين إبراهيم كحيل)

٣٨ العلم والحياة
(د . على مصطفى مشرفة)

٤٨ غرائز الحيوانات
(محمد محمد فياض)

٥٢ النار الخالدة (فؤاد صروف)

٥٥ مع الأسماك
(د. حسين فرج زين الدين
وموى باسيليوس)

٦١ الموج الساحر
(محمد عاطف البرقوقى)

٦٦ مملكة العذارى
(د . أحمد زكى أبو شادى)

٧٣ أسرار الحياة
(د . مصطفى عبد العزيز
و د . عبد العزيز أمين)

٧٥ العيون فى العلم
(قدرى حافظ طوقان)

٨٤ الوراثة والجنس
(د . عبد الحليم منتصر)

٩٠ قصة البترول
(يوسف مصطفى الحارونى)

٩٣ العالم سنة ٢٠٠٠
(على عبد الجليل راضى)

١٠٠ قصة العناصر (امبابى أحمد)

١٣٢ البساط السحرى
(عبد السلام فهمى)

١٤٩ بين البقاء والفناء
(قدرى حافظ طوقان)

١٥٤ أينشتين والعالم
(محمد عاطف البرقوقى)

١٧١ حرب الخامات
(د . عبد الحليم منتصر)

١٧٨ الصعود إلى المريخ
(د . محمد جمال الدين الفندى)

١٨١ هجرة الحيوان
(د. أحمد حماد الحسينى)

١٨٥ الغبار الذرى
(د . محمد جمال الدين الفندى)

١٨٩ عصر الالكترونات
(د . جورج وهبه العفى)

١٩١ الهزات الزلزالية
(محمد على المغربى)

١٩٦ قوى الطبيعة فى خدمتك
(محمد جمال الدين الفندى)

١٩٨ الكلف الشمسى
(محمد على المغربى)

٢١٤ عصر التليفزيون
(د . جورج وهبه العفى)

جغرافيا ورحلات

طب وصحة

- ٢٥ قصة البنسلين (د. مصطفى عبد العزيز)
- ٤١ الفيتامينات (د. مصطفى عبد العزيز و د. محمد رشاد الطوبى)
- ٤٤ قصة العدوى (د. محمد عبد الحميد جوهر)
- ٦٤ الأغذية الشعبية (حسن عبد السلام)
- ٧١ الهرمونات (د. فؤاد خليل و د. محمد رشاد الطوبى)
- ١١٠ نحن المعمرون (حسن عبد السلام)
- ١٢٤ قصة العقاقير (د. محمود محمد سلامة)
- ١٤٦ هذا الإنسان (د. حبيب صادق)
- ١٨٠ ضعاف العقول (مترى أمين)
- ٢١٠ أمراض الصيف (د. أنيس فهمى)
- ٢٢٤ الأسنان: أمراضها وعلاجها (د. حليم الكداوني)
- ٢٢٧ الإنسان والمرض (د. أحمد مختار)
- ٢٣٧ باقة طبية (محمد كامل سند)
- ٢٣٩ أخطاء الأطباء (د. فائق الجوهرى)
- ٢٧٢ الجسد والميكروب (د. مصطفى عبد العزيز)
- ٢٨٢ الصيدلة علم وفن وإنسانية (د. جورج وهبه العفى)
- ٢٨٥ فيتامينات وهرمونات (د. محمد صدقى عبده و د. محسن الدناصورى و د. نجيب الأبراشى)
- ٢٨٦ الغذاء الكامل أساس الصحة (أسامة أمين العطار)
- ٢٩٩ التغذية ومخاطر الصناعة (د. أسامة أمين العطار)
- ٣١٨ أسنانك وكيف تحافظ عليها (د. فاروق مرشد)
- ٣٣٦ النفس والبدن (د. ابراهيم فهيم)

تاريخ

٣٧ العناصر النفسية فى سياسة العرب
(شفيق جبرى)

٥٣ قصة الكتابة العربية
(د . إبراهيم جمعة)

٨٦ الوعد الحق (د . طه حسين)

٩٤ طرائف من التاريخ
(مصطفى الشهابى)

٩٥ من أضواء الماضى (سامى الكيالى)

١٠٣ المهدى والمهدوية (د. أحمد أمين)

١١١ الصعلكة والفتوة فى الإسلام
(د . أحمد أمين)

١١٧ تيجان تهاوت
(محمد عبد الغنى حسن)

١٣٤ أساطير مصرية
(د . عبد المنعم أبو بكر)

١٣٨ الجمعيات السرية (على أدهم)

١٤٤ ابن بطوطة
(د . إبراهيم أحمد العدوى)

١٧٩ السفارات الإسلامية إلى أوربا فى العصور الوسطى
(د . إبراهيم أحمد العدوى)

١٨٨ الثورة العرابية
(محمد عصام المرشدى)

١٩٠ المساجد والقصور بالأندلس
(د. السيد محمود عبد العزيز)

٢١١ الفروسية العربية فى العصر الجاهلى
(سيد حنفى)

٢١٣ الألعاب الأولمبية
(مصطفى الشهابى)

٢١٥ قصة ملكة سبأ
(زاهر رياض)

٢٣١ صور من كفاح الشعب العربى
(د. جمال الدين الرمادى)

٢٤٧ البحر المتوسط بحيرة عربية
(د . على حسنى الخربوطلى)

٢٥٣ الصين والعرب عبر التاريخ
(محمد محمود زيتون)

٢٩١ الكعبة على مر العصور
(د . على حسنى الخربوطلى)

٢٩٣ معركة العلمين (السيد فرج)

٣٢٢ قناة السويس فى مائة عام
(د. محمد عبد الرحمن برج)

٣٣٠ أروى بنت اليمن (عارف تامر)

٣٣٣ رسائل وأسرار (محمد التابعى)

اجتماع

محتويات الكتاب

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية تحت رقم ٢٧٨١ / ١٩٧٢

مطابع دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٢



